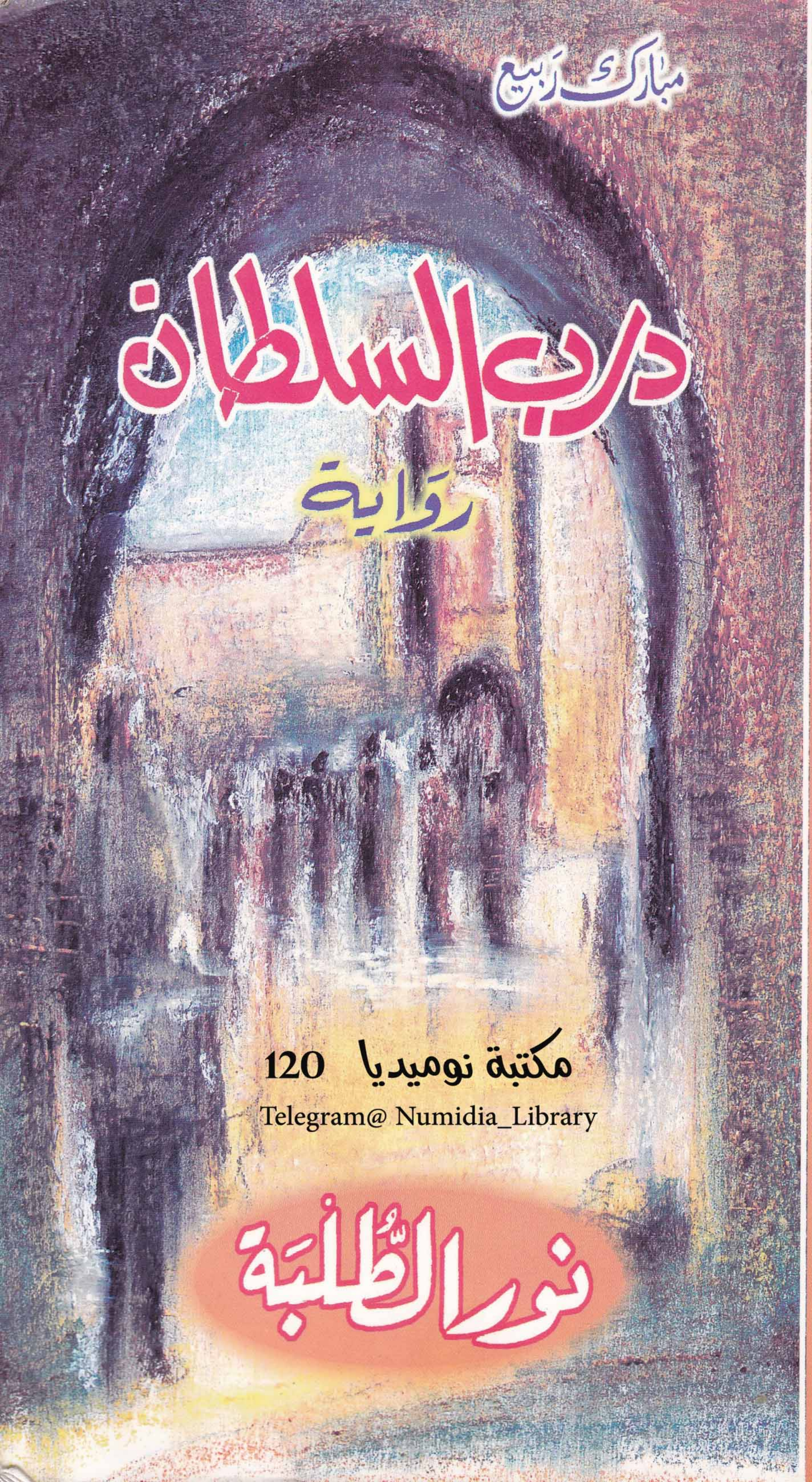


مبارك ربيع

درب السلطان

رواية

مكتبة نوميديا 120
Telegram@ Numidia_Library

نور الطلبة

1

درب السلطان

الطبعة الأُولى 1420-1999
© جميع الحقوق محفوظة

مبارك ربيع

درب السلطان

رواية

1

نور الطلبة

1

درب السلطان، هَدْأة ليل لا تشي بِوَنَى المستغرق المُتعَب، ولا بقوْمة الحارس المتهجد ؛ هدْأة الليل غفوة حي يقظ في نوم، نائم في يقظة... يهمد منه بعض ليتحرك بعض آخر، نبض لا ينقطع، تيار لا يزيد على أن يفتر هنا أو هناك؛ في هذه اللحظة أو تلك، إلا أنه يتململ باستمرار، يتمايل في غفوته، يميل على جوانبه، ويظل دائماً يتردد فيه النفس، ويجري مجْرى الدم... مجْرى الحياة...

درب السلطان؛ يرتدي ليلا مخضرماً، تتراقص فيه على مسافات متقطعة فوهات مضيئة، لمحلات تودع آخر الليل؛ أو تودع بداية النهار، تشِي منها الأبواب والشقوق، وما خلف الأقفال والسواقط، بجهد المتوحد المتفرد لذاته وشغل يده وفكْره : مطرِّزٍ أو مخرِّم أو مُخيطٍ يستعد لسوقه، حرَّار يناجي خيطه والإبرة، معلم شفَّاج وصِبْيَته يخلو إلى عجائنه وخمائره ؛ همة خضار يصحو إلى مكعباته وصناديقه ؛ وأوبة ذي نشوة يستعصي عليه الطريق في إصْرار، تنتقل من أمامه على غش منها العلامات ومعالم الطريق والاهتداء.

أسراب الخطاطيف، تلك التي تملأ الفضاء زقزقة وضجة كل إشراق أو غروب، تبدو وقد سكن بها آخر الليل على محطاتها فوق الأسلاك أو على الحافات ومداخل الشقوق... تبدو في استكانتها العابرة، وما

تضمره من حيوية ونشاط لإشراق اليوم، أشبه ما تكون بجيش متحفز، يركن إلى راحة مؤقتة في هدنة قصيرة.

درب السلطان، عبير أرض، نسمة فَوْحها مزاج أبخرة، عذب حديث، دفء جيرة، دعاء صلاة، وفاء عشرة، خليط شجار، خطْو وخطو باتئاد وإشراق حالم لنظرة حرَّى من فتحة أو شقة أو ثغرة، هبَّة رذاذ بَحرية متباعدة منعشة...

2

انفلتت منه، تركت يده وسارت تقفز أمامه بنصف التفاتة، بصخب صبياني، برشاقة ظبي وخفة... قدماها ترقشان الرمل شبه المبتل في خط بغير استقامة ولا انتظام... بطيش صبياني عابث ترمي من يدها فردتي حذائها العالي وتخطو ملتوية على نفسها، فاتحة أحضانها لنسمة منتصف الليل... تراود بوقع القدمين نهايات الأمواج المتلاشية على الرمال...

أحس بالطيش مغتالا في باطنه... مَشْنُوقاً مخنوقاً مربوطاً بألف وثاق... ثاوياً في الأعماق يوشك أن يتحرك... هيهات... يحس قوي الإحساس بأنه لم يذق طيشاً... لم يلقه أو يعرفه... عاش عنه في حصن حصين، ولم يندم قط على ذلك... من قبل... لم يحس بوخز ندم... أبداً... ولكنه ظل يحس بأنه يَطْوي الجوانح بينها نيران حرمان غامض، تضطرب ولا تنطفىء، تصطخب ولا ترتوي، ولفح ظمإٍ دائم مقيم.

حورية الصخب.... حورية الطيش والمرح... حورية الليل والنهار، حورية البحر، حورية البرّ، والظلمة والنور... على بعد أمتار منه يبدو شبحها العابث على ضوء القَمر، وهفيف النهايات الموجية الرقيقة، يغيب برشاقة في لهفة الرمال... نغمة، رقصة، لوْناً لعالم ساحرٍ

مسحور لا تأسره الكلمات... عصياً، ذائباً مذاباً، صاهراً مصهوراً... عالم يحس به كالمألوف لديه لكثرة ما اهتم به تَمَلاًّهُ وَفَكَّر فيه، لكثرة ما حُرم منه... يدركه بالخاطر لا بالواقع والمتعة...يقر باستمرار أن متعته أياً كانت رغم كل الجهود، لا تفتقد طعم المرارة... مهما كانت ؛ تخالطها على الدوام مرارة ما... ليكن...

عندما التقى بها لأول مرة، قال في نفسه : هذه لا يمكن أن تكون لي. كلُّ ما فيها كان يقول ذلك ويؤكده. لا يمكن أن تكون له مثل هذه، وهذه بالذات ! هكذا هو. هكذا كان. هكذا يخيل إليه أنه كان يعرف فعلا ما يصلح له. هذه لا تكون لي...

وبدت حورية إذا ذاك بعيدة الشرط بعيدة. عجيب، كان جد مقتنع... جد واثق... كل الثقة ومنتهى الاقتناع برأيه... ذلك الرأي الذي جعله يكون صادقاً في حالات كثيرة سابقة مشابهة مع أخريات ماأكثرهن !

عجيب، بقدر ما كان شديد الاقتناع، بقدر ما كان مشدوداً إلى متابعتها، منجذباً إليها... مسحوراً بعالمها... مقترباً... يقترب، كلعبة الفراش المسحوب نحو مصدر احتراقه النوري المتوهج الجميل ! لم تكن تعمل على إغوائه.. أبداً... لم يحس بأنها تغريه بها، ولو أحس لاختلف الشعور... ربما. وهل تعرف تلك، أنها بالنسبة إليه هي عين الغواية بدون حركة قصد، بدون نية أو إرادة... هي هي... هي الغواية، هي كما هي... شيء في كل ما فيها، ينطق بكل ما يعرفه فيه حرماناً وتوقاً وشوقاً... اللهفة اللهفة... الشوق الشوق ؛ وهو الظمأ الأبدي اللهب في بيداء عمقه... وهي... هي وزهوة النَّاضر اليانع على ضفاف واحة فيحاء وارفة الفيء، وافرة الغلال والظلال... لله أنت... لله هو أحمد رقيبة المسحور المصهور المقهور...

شيئاً فشيئاً، أحس بصمت الظما، كذلك الذي يحسه الوامق إلى رشفة أصبحت قيد الشفة على طول دهر حرمان وانتظار... شيئاً فشيئاً، صمت فيه العقل واللسان، توقف الفكر عن أنها لا تصلح له... وأصبحت... أصبحت... صورتها في الطيش العابث الساحر تملأ ليله والنهار... تأخذ عليه الرؤية والسمع واليقظة والمنام... أهو لمثل هذا ؟ أهو... بعد كل هذا وذاك ؟ في أقصى فترات انشغاله اليومي، وانهماكه في مسؤوليات الأوراش والأرقام واللوائح... كانت تفاجئه... حورية أمامه في مشهد يتابعه... صورتها تفترُّ له أو تعبس... قبل أن تطير بعبث وطيش وشغب، بطريقتها... على طريقتها الفاتنة الساحرة القاتلة !

أحياناً تردعه نظرتها برفق حاسم، فيتراجع عما كان فيه... أصبحت فيه، تسكنه. أحياناً يحس بأنه يهوي... يهوي إليها... يهوي ويأخذه الأسف الشديد على نفسه... ثم يشعر ثانية بأنه يرق إليها... يرق حتى يعمه الرضى عن نفسه ودنياه. وفي كل ذلك، غابت راحة البال إلى الأبد والهدوء والطريق القديم القويم، طريق المتعة العابرة... اضربْ واهربْ ! اخطف لحظات عمرك ! اللحظات تلك كانت تنتهي متعتها معها، لتقتنص غيرها، في سلسلة متصلة متقطعة غير متعبة على كل حال... بلا مسؤولية ولا عناء... زاد الطريق... زاد في الطريق، على الطريق، وأنت متنقل جوّال... يمتَلكك شعور كاذب بالامتلاك وبالقدرة والعظمة... شعور الرجل القوي الذي يحس أنه يمتلك مصيره ومصير غيره... وكما لو أن حورية أحست بأن موقفه منها غَريب، عندما قالت له بحنو مقصود :

ــ رقيبتي... سر في حالك، وخليني في حالي... الله يهديك !

دون قصد بلا شك، ضربت على الوتر الحساس في اللحظة

المناسبة... يؤكد أحمد رقيبة لنفسه إذ ذاك، كأنه يوشك أن يحسم الموقف، ليقول لها الكلمة التي تلخص كل سعادته وشقائه، لكنها فاجأته، وأجهزت على ما كان يحاول أن يجمع من شتات فكره.

اعتراه إحساس بأنه فعلا يهوي إلى قعر عميق مظلم.. أظلمت عيناه. دنياه. ومد يده نحوها كما لو كانت بعيدة عنه... في علياء لا يدركها وإنما يمتد نحوها... أراح صفحة وجهه على صدرها... خمدت مشاعره لحظة... خَمدت برهة ثم... بلا مقدمات أجهش بالبكاء!

لم يهوِ بعد ولم يرتق... فقد ذلك الإحساس المتناقض المزدوج ... ولم يعد يهتم بشيء إلا أنها قدرُه المقدور، الساحر المسحور. ولم يعمد إلا لأشرعته يرخيها على كامل السعة للرياح الأربع تاركاً حبل الاتجاه والتوجيه، لإرادة الصدفة والعُباب، وقال لعقله، كابح النزق والطيش: آن لك أن تستريح وتريح، بعد رحلة بحر شاقة متعبة من الحرمان والعناء أو كأنما شحذت الخواطر عزيمته، كأنما أدرك ما غاب عنه منذ مدة من أنه تغير، وأنه لم يعد ذلك المكبوح... وأنه مفتَّح الشراع على الرياح كلها والجهات، مطلق السُّكَّان، ودون مرساة ولا مرفإ مقصود... يرنو إلى الشبح الرشيق الفاتن الذي ما يفتأ يتلوى راقصاً على أنغام كونية تحت أشعة حب قمرية لاتني تزدهي بنورها وتُفيض منه على الكون... يرقص الموج... يرنو... ثم يسير على هدي خطواتها المرتسمة على الرمال المبتلة... يحاول أن يتبين مواقع القدمين تمسحها نهايات الموج بمنتهى الرفق والرشاقة... تناديه... يسمعها تناديه... يتردد اسمه في جنبات الكون الفسيح... يبتلع الصدى أو يذيعه... لا فرق... لا يملك إلا أن يغتال وقاره المرسوم... يرمي إسارهُ، ويتحرك بعبث صبياني، يحاول أن يطابق مواقع قدميه على آثار قدميها

البضتين الناعمتين الدقيقتين، أكثر وضوحاً بما تبقيه نهايات الموج... خطو ملاك... وقع ملاك... صدى ملاك... أو ليست حورية ؟

كانت تنتصب واثقة بابتسامتها المشرقة العريضة... ابتسامة تنير ليلة قمراء، على محيا سحر لم يمسح عليه حزن أو كآبة... أبداً ولن... أو هكذا يبدو له على الدوام في عمق وإشراق ابتسامتها عندما تضحك، وتعرف كيف تفعل... كل الصفاء والبراءة، كل السعادة والبهجة والانشراح، تندفع شلالا غامراً على كيانها عندما تبتسم. وصفحة وجهها البيضاء المشربة بحمرة العافية، تتلفع بخصلات شعرها المبعثرة في فتنة بفعل الحركة والنسيم الليلي... هو أيضاً ذلك المبعثر المتمرد، هو أيضاً يفترّ بطيش عزيز غزير... يغري... يضحك مثلها، يضحك كما تضحك بدفق ما فيها من حياة. هكذا يراها. هكذا ينجذب وبدر ابتسامتها المشرقة، يرسم على محياها صفاء المرح العميق.

وقبل أن يقترب منها أكثر وأكثر... تنفلت فجأة كظبي فاجأه الخطر... تنفلت من قُربه واقترابه، تنط تملأ الكون بالنداء عليه... بمرح طفولي... ينجذب خلفها بعلائق العبير الفواح...

تجري ويجري، تتعرج في سيرها يميناً وشمالا... يجدّ خلفها متعرجاً.. ثم تنحرف مرة واحدة، يميناً وبكل قوة اندفاعها نحو اليمّ... تنط فوق الموجات المتهافتة على الشاطىء... تمضي في خطوها في اليمّ، خطو يثّاقل بقدر ما تتقدم نحو عرض البحر... في عرض باتجاه العمق...

يقف أحمد رقيبة مأخوذاً مشدوهاً، يضج بأمر التعقل والرجوع... حورية... حورية... لم تعد تخطو في عمق اليمّ، ولكنها تتحرك مع ذلك متوغلة رافعة يديها.. تهوي بها على الماء حيناً بعد حين، سعيدة ضاحكة منادية له... أي جنون ؟!

تدعوه ليتقدم نحوها. أي جنون ؟!

خطا وراءها متثاقلا. أي مشروع يجول بذهنها الغريب ؟ سباحة منتصف الليل...حمّامه... كان ذلك ضحكة أو مزحة عابرة وردت بينهما في سياق ما... !

خاض في الماء إلى الركبتين... أحس ببنطاله يتثاقل بالماء... نصف قامتها تغوص في الماء... حورية... حورية... تغوص أكثر... الماء يحتضن نصف صدرها... تضحك وتخبط الماء يميناً وشمالا حولها، تدعوه أن يتقدم... تعال... تعال... رقيبتي الحبيب... تعال... دعاؤها مُغْرٍ ؛ ولكن فكرة التعقل راودته وامتكلته... لو خطا نحوها أكثر لشجَّعَها على حماقات أخرى لا تجول بباله الآن، وقد تعجبها اللعبة فتمعن أكثر... لذلك توقف حيث هو على مبعدة منها، واكتفى بأن يرش الماء بكلتا يديه في اتجاهها... قلّدته، ولكن بُعدَ ما بينهما، كان بحيث تصل نهاية الرشات إلى الطرفين خفيفة واهية... شجَّعته على الاقتراب... تعال... لكنه آثر أن يتجمد خطوه... ويتابع تبادل الرشات من بعيد...

الموجات المتتالية، خفيفة متباعدة لا تزيد على أن تجعل الماء يرتفع بضعة أصابع حول ركبتيه، ليعود في انتظار موجة جديدة... لوحتْ له بيديها، بمرحها الصبيانيْ ذاك، أن يتقدم... ثم لوحتْ مرة أخرى، كأنها تودع... نطتْ تعلو بقامتها، تخترق سطح الماء... تركت نفسها تغطس في لجته تامة كاملة، أمام دهشته وانبهاره !

حورية... حورية... ولم يملك إلا أن يسرع نحو موقعها ــ متعثر الذهن والحركة ــ حين انبثقت تشق سطح الماء، سمكة فضية صاخبة ضاحكة... !

رنا إلى طيشها... وإلى نفسه... إلى الماء حوله... إليها وقد تموجت حولها على سطح اليم أطراف من لباسها... رنا إلى كل شيء ضاحك في الكون حول ضاحكة طائشة بعمق وبقوة وصبيانية...

رنا إليها ووجهها البدري وحده يتراءى وضاءاً فوق صفحة الماء، مغيبة كامل كيانها في الماء بانثناءة خفيفة خفية تحته، ثم ما ثلبت أن تعيد انبثاقها صاخباً نافراً ضاحكاً، كأنها ترسم لحظة خلق آدمية جليلة رائعة... من الماء وإلى الماء... ! أي جنون ؟!

لم يملك إلا أن يمسك رأسه بجُمع يديه... بين يديه... ثم اعترتْه لحظة عنفوان غامضة... ونداء محياها على صفحة الماء يتراءى وحده مشرقاً مجلَّلاً على صفحة الماء، تحيط به هالة شلال فاحم منسدلة حوله متراخية، يداعبها لجين ذائب الليل...

أحس ببنطاله يزداد تثاقلا بفعل الماء... كانت تتحرك ببطء خفي تحت الماء، بانثناءتها الخفية... يتضح له ذلك من المسافة التي تزيد بينهما كلما اقترب... حورية... حورية... أي جنون ؟!

تنبثق بكاملها ثم من جديد تعود تكتسي بالماء... تحت الماء؛ تضحك وتخبط بيديها حولها يميناً وشمالا... تدعوه إلى أن يتقدم... تعال... رقيبتي... احميدتي... تعال...»

دعاؤها مغْر وعنفوان متجدد متردد فيه... لكن واجب التعقل ينتصب في داخله، يراوده ويمتلكه... لو خطا نحوها أكثر لشجعها أكثر على حماقات أخرى... أقلها أن تُمعن في تمديد المسافة بينهما باتجاه عرض البحر... ومن يدري... ماذا يمكن أن يخطر ببالها مما لا يأتي على بال ؟!

وحدها تنبثق وتختفي بشقشقة الطيش والصَّخب من الماء في الماء،

وحدها تغيب في الماء حتى حافة الذقن، صانعة من لجين الليل إطارا لصفحة وجهها البدري الوضاح... نداؤها إليه صاخب منطلق منفلت... ساحر مسحور... قدره المقدور...

أكد لنفسه أنها قدره المقدور، وترك قدميه تتحركان نحو موقعها بتثاقل... يخوض نحوها والماء يرتفع إلى حزامه وما فوق الحزام... يحتويها كما هي بين يديه، لتطوق عنقه بذراعيها ملتصقة به، متكورة في استكانة وليد لحضن دافىء حنون... ويخرج بها من الماء متأنياً بطيئاً يقتلع قدميه اقتلاعاً... وكأنما هما معاً ملتحميْن، ينبثقان من لحظة خلْق يمِّية خارج الزمان، أبدية أزلية... من لحظة خلق يمية ينبثقان، كما انبثقا من لحظة خلق زمنية وحيدة لا تتكرر، ولا يريد لها أن تتكرر... هو على الأقل انبثق من تلك اللحظة، وخلقت حورية سائر لحظاته، وتبْقَى في كل ما تَبَقَّى من حياته... هو على الأقل، ولا يخامره شك في أنها مثله... حوريته قدره المقدور... يخطو بها متأنياً، ويخطو بنفسه، بثقل خطواته، بكل الأطراف المتقاطرة في غوص الخطوات في الرمال الهشة... يحس بها تزداد استكانة تغالب قرّاً يسري في كيانها، يحس بها تخطر أفكارها برفق تلاقي خَواطره... إنهما معاً وفيان لعهد بينهما، ألا يتآكل ما بينهما... لا يتقادم به فعل الزمن... يعتزمان بميثاق أن ينبثقا متجددين مع كل لحظة من زَمن...

3

صعَد بها الكثيب أطرافهما تتقاطر راسمة خطاً عميقاً مبتلا على الرمال الجافة. وقف بها عند باب السيارة على رأس الكثيب المطل... أوقفها على قدميها بصمت، وطفق يعالج فتح الباب الأيمن، بينما انهمكت حورية في اعتصار كومة شعرها من الماء بهدوء ولا مبالاة...

يفتح أحمد رقيبة الباب، ويدفعها برفق إلى الداخل على المقعد. يغلق ويدور من الجهة الثانية. يقف قليلا يعتصر أطرافه المبتلة، ثم يأخذ مكانه إلى جانبها ليميل نحوها، يضمها إليه... قدره المقدور. يحس رعشتها، يلتفت خلفه، يأخذ معطفه من على المقعد الخلفي يضعه على صدرها، فتحتضنه بكلتا يديها ورعشتها تزداد شدة...

يتريث كأنه يأخذ أنفاسه، قبل أن يدير المحرك، تسير بهما السيارة قليلا في الهامش غير المسفلت المحاذي للكثيب الرملي، تطق نتوءات أرضيته الخفيفة بصوت مسموع، ثم بعد انحراف كامل، يمتد طريق الليل ممهداً سالكاً، تميل حورية على كتفه، تتكيء برأسها وتستكين إليه دون كلمة...

مرتخياً كان يقود، وقد بدأت تلتوي به الأزقة والشوارع، ليمر على هامش أنْفا قبل أن يستقيم به الطريق مرة أخرى مصعِّداً... يرتخي... يرتخي مطلقاً لسيارته العنان، وقد أحس بقشعريرتها تخف إلى جنبه...

متكئة على كتفه ماتزال، يشعر بأنه أصحى ما يكون وأوعى ما يكون بحاله... شعوره المألوف هذا، كأنه فاتورة حساب مسبقة أو متأخرة، يقدمها بنفسه لنفسه كلما أحس بأنه أفرط أو أُفْرِط به.... في موقف. قدره المقدور... لا لم يكن على شيء من ذلك الموقف المألوف... إنما وعيه الآن وصحوته، قد يكون بسبب الاستحمام في اللجين الليلي المتماوج... بنصف ابتلال، بنصف رعشة وسمكة فضية... بألف لون ساحر... حورية البر والبحر إلى جانبه... إلى يمينه خفت رعشتها كثيراً، وهي تزداد زحفاً على كيانه... تضغط عليه، يحس أنفاسها الحارة بركاناً ينبثق من قطب الرعشة والبرودة...

أخيراً يعتلي ربوة ينحدر منها إلى مقصده. حرص على أن يوقف الضغط، ويترك سيارته تنساب بهدوء في المنحدر بين فِلَلٍ تنام في أحضان الدوح وهدأة الليل. كان يتوخى ألا يسرع الحارس الليلي نشيطاً من غفوته الثقيلة، للخدمة والمساعدة، أو لمجرد إعلان اليقظة والحضور... تلافى أن ينظر باتجاه الموقع المعتاد للحارس، ملتزماً يساره أقصى ما يمكن، لتتاح له فرصة المواجهة الكاملة للمدخل مرة واحدة، مباشرة...

وأسرع ينزل، يفتح الباب الحديدي، ويدفع المصراعين إلى مداهُما الأقصى، ويعود إلى المقود مندفعاً بالسيارة إلى الداخل... إلى جوف المرأب...

تنفلت حورية على رؤوس الأصابع من الباب الداخلي للمرأب، حينما يعود أحمد رقيبة يغلق الأبواب... يبدو له شبح الحارس يطوف من شباك الباب الخارجي، يريد التأكد مما رأى، ليطمئن ويطمئن، فينظر إليه رقيبة ويشير له نصف إشارة باليد... هكذا يطمئنه، ولا

يترك له الفرصة ليلاحظ ويفهم ما يفهم ؟ من يفهم ؟ هل يفهم هو ذاته حتى يفهم غيره ؟ ما حدث ويحدث مع ما به من حماقة وطيش، لا يزيد على أنه عازم معها... بها... على مضاعفة مشاعره بالنعيم، بالانطلاق والبهجة المستمرة المديدة. هل ينجح في أن يعوض دهور الحرمان ؟

آه، السؤال نفسه... أي سؤال كان أو يكون، ليس له معنًى...

4

عندما دلف إلى الصالة عن طريق الدرجات الداخلية للمرأب، كانت نصف مضاءة. حورية جالسة على كنبة، ملتفة بفوطة ثخينة بيضاء تنعقد على صدرها... رأسها يشبه عمامة مقببة، وذراعها الأيمن على كتفي فتاها رضى المستكين إلى صدرها في اتكاءة جانبية، بينما تقف على رأسها جميلة، تجفف شعرها بفوطة تلو أخرى، وقد اكتست ملامح وجهها البرونزية الدقيقة سمة حدة وغضب... كانت تزمجر بصوت مكتوم مسموع، وحركات متذمرة تلعن طيش صاحبتها، وتنذرها بأوخم العواقب على صحتها... بحر وعوم في هذا الوقت من الليل... وهكذا... في هذا الطقس ؟!

ــ أويلي !

كانت تبدأ وتعيد في لهجة حنق وغيظ؛ وحورية مستسلمة لها، هانئة مبتسمة، لاهية عنها بمداعبة فتاها ومستحلية عبث الأنامل بخصلات شعرها... ثم ها هو ذا أحمد رقيبة، رب الدار، ينتصب بدوره أمام جميلة حافياً مبتلا إلى ما فوق الحزام... تتقاطر أطرافه...!

لم تتمالك جميلة أن تضحك بمزاج حانق... ضحكة حانقة مغيظة بكل عمق وصفاء، متشفية مستنكرة، مشيرة إليه كأنه السبب :

ــ حتى أنت ؟!

واستحالت ملامحها إلى العبوس والغيظ والغضب :

ــ تبارك الله... تبارك الله...!

قالت جميلة ذلك، وهي تترك رأس حورية، وتنفض يدها من كل شيء، منذرة أن لن تمكث معهم في هذه الدار لحظة بعد اليوم... بعد الآن...!

سارت خطوات ثم تريثت، وولتْ نحو رضى... لكن حورية تمسكت بها، وقد عدلتْ سمْتَها وبدأت تطيب خاطرها... بأن لا ضرر فيما فعلتْ... وأنها مجرد لعبة ورهان تفرج به عن نفسها...

ــ الهم... الغمّ يقتل يا اختي !

ــ سبحان الله، تفراج الهم بالحماق ؟ تبارك الله علينا !

قامت حورية تمسك رضى بيمناها، بينما يسراها على عقدة الفوطة عند الصدر...

قالت للفتى رضى وهي تخطف قبلة من خده :

ــ يا الله حبيبي... سلِّمْ على عزيزك... يا الله حبيبي !

انحنى رقيبة على الطفل يتيح له قبلة ويربت على كتفه قائلا :

ــ يا الله بابا... سرْ تنعس. •

يتحرك الفتى، كأنه يتزحزح في مكانه، كأن مقاومة تحول بينه وبين القيام... يقوم مجاراة، وما يكاد أحمد رقيبة يغيب، حتى يعود الفتى إلى جلسته مشيراً بالسكوت إلى جميلة التي بدا عليها استنكار...

تتركه غير عابئة، وتنصرف إلى فضاء الصالة، تتفقد بعض أشيائه... زهريات وأرائك... تلمس هنا وتعدل هناك في حمية وهمة...

تدندن بأنغام هامسة... ثم مالبثت أن انصرفت لما عليها، مشيرة إلى الفتى بابتسامة وسبابة تهدد.

انصرف الفتى إلى تركيب لعبة كان منهمكا فيها، وبين حين وآخر كان يرمي نظره إلى سلم المنزل مترقباً من ينزل... لم تكن لعبة تصرف اهتمامه بقدر ما كانت تبدو تعلة يتلهى بها في انتظار ما يريد... في هدوئه، كان يبدو صبياً على اعتداد واعتياد بما يفعل... لعبة يبْنيها ويهدم، يركب ويفكك بطريقة آلية، وانتباهه يرنو إلى ما حوله، يرمي بين الحين والآخر نظرة إلى سلم المنزل في ترقب هادىء.

مرة بعد أخرى، تظهر جميلة متحركة في هذا الاتجاه أو ذاك، ثم ما تلبث أن تختفي، دون أن تغفل عن الفتى، ترشقه بنظرة أو ابتسامة.

5

كل شيء جاهز كالمعتاد.

بعد أقل من ساعة، كانت جميلة تدفع إلى ركن الصالة التكميلية للهو، طاولة متحركة جاهزة بأصناف مما لذ وطاب، وقد أجلست رضى على كرسي، وطفقت تتلهى بأن تقشر له بعض الفاكهة... وأقبلت حورية بدراً متألقاً، زادها دفء الحمام والزينة رونقاً وإشراقاً، تختال في فستان أسود يزهو ليله بوردة ماسية متلألئة أعلى الصدر، ويلتقي بشلال شعر فاحم منسدل إلى الوراء في خصلة واحدة... بدت أبهى ما تكون في ربيعها الثالث، مديدة هيفاء، شهية رائعة...

وقفت جميلة تستقبلها باستبشار هاتفة مبتهجة، الله يحفظك... الله يحفظك وينجيك... ويحفظك ويزيدك... ابتسمت لها حورية ورسمت على وجنتها قبلة، وهي تقرص على أذنها بمودة وتحبب؛ وجلست قرب رضى الذي مال عليها تداعبه وتقبله...

وأقبل أحمد رقيبة في بدلة قاتمة مكتملة برباط رقبة منقط أحمر... بدوره كان يبدو منتعشاً نشيطاً؛ قامت حورية تستقبله، تقف بمواجهته، تعدل من وضع الرباط حول عنقه... حركة تفقد عادية لمظهره أكثر منها حاجة حقيقية للتعديل... تمر بنظرة سريعة فاحصة على كامل مظهره، ترتسم ابتسامة على ثغرها وهي تأخذه من يده لتجلس بينه وبين رضى...

تظهر على أحمد رقيبة ملامح تساؤل واستنكار، تجاه الفتى المستكين في عزيمة على السهر، فتبادر حورية تذكره بأنها ليلة عطلة الأحد... تنثني على رضى تداعبه ثم تفتح كامل ذراعيها عليهما معاً تضمهما إليها : ماذا يفعل من يحبكما معاً... جدّاً...؟!

اتجهت جميلة إلى جهاز التسجيل، اختارت لحنا تعرف بالعادة أنه مناسب، وأخذت مكانها على كنبة تجعلها جاهزة للخدمة عن قرب... وقد بدت فتاة خمرية رقيقة الملامح، أنيقة في بساطة، لا تتعدى العقدين من عمرها... اللحن «ديباجة حب لم يكتمل» قطعة رومانسية رائعة، وأورع منها أنها تحمل معها عزيز الذكرى في علاقة حورية بأحمد رقيبة، سمعاها معاً لحظة القرار الحاسم لعلاقتهما، كررا السماع إليها في جمال العزف المنفرد للفيولنست الإيطالي البارع... وظلت حورية تشرح لأحمد رقيبة أنها تحبّ الحب غير المكتمل... الذي لا يكتمل... الحرمان ؟ لا. أبداً. إطلاقاً... بل الظمأ المستمر إلى ينبوع الحب مهما جرعتَ منه... الحرمان يولد الإحباط واليأس وإحساسات التعاسة... أما الظمأ فهو السعي لارتواء ممكن... محتمل... لكنه لا يتم، ولو تم لانتهى الحب... بلغ غايته... صدحت الديباجة بعزف جماعي... لكنٍ الصدى المنفرد وعبق المكان المضمخ بعبير الذكرى، كان وحده امتداداً وعمقاً لمشاعرهما.

مدت حورية يدها، تتناول كأساً بلوريةً طويلة عميقة، وانبرت جميلة مدركة معنى الحركة، وطفقت تناول صاحبتها عدة قوارير وزجاجات واحدة بعد أخرى، وحورية بمهارة كيميائي خبير، تنقل بصرها بين الكأس والزجاجات، تصب بمقدار، تراقب وتضيف وتخلط، تحرك وتراقب اللون، كأنها تتذوقه بحلاوة اللسان... حتى إذا ارتأت أنه استوى، عفّرت حافته باللون والسحيق وشقت عليها قرص

فاكهة رفيع... أخيراً ها هو ذا مزيج مزاج تحذقه وتخلقه... مزيجها... مزاجها العتيد الخاص المخصوص، بطقوسه وحركاته ومهارته، والذي يفتتح به أحمد رقيبة جلسته قبل أن يلج عالم سهرته الفسيح المتنوع وذلك لا يحلو إلا من يد حاذقة مدربة... حبيبة محبّبة... يد حورية صَنَاع، ومن ذوقها المرهف الرفيع...

وظلت حورية تنتقي نتفاً من محتويات مائدة متنوعة شهية، وتناوله باللطف والنكتة والدعابة، ثم ما تلبث أن تفعل مثل ذلك مع رضى... مرددة باستمرار : آه من حب رجلين... آه، من حبكما...!

جميلة تتابع ببهجة بالغة، متنبهة لأية حركة راغبة من حورية أو رقيبة أو رضى، لتقديم لطفها وحسن خدمتها... لحظات الصفاء حبيبة إلى النفس... وبين الحين والآخر، تقوم لتغذي جهاز الترديد بأغنية أو قطعة طرب مما تعودت عليه في مثل هذه الجلسات... أحمد رقيبة في هنائه يتناول من يد اللطف الحورية المشاركة، يتناول الأنامل ذاتها... تردعه بحركة وإيماءة محببة، وكأنها ترى في ذلك خروجاً عن الشرط والميثاق... فعليه كما يقتضي الأمر، أن يستسلم ويتناول، لا يتعدى ذلك، ولا يناوِل...! وضحكا من أعماقهما ضحكة الكون حولهما، وجميلة ورضى...

كانت حريصة في طقوس جلستها الليلية أن تكون مستوفية كل شروط السهرة الحقيقية، وأول ما حاربتْه في أحمد رقيبة أن يساهرها بلباس النّوم، أو يجالسها مسترخياً... استنكرت ذلك الميل منه : أيريد أن ينام ويرتخي وهو يسهر ؟! تساءلت في إحدى المناسبات مستنكرة إن كان يريد أن يسهر أو يشخر ؟!

ما أطال النوم عمراً ولا...!

مضت ساعة... وحام طائر المرح... رقّ وحط على الجلسة، فقامت حورية، اتجهت إلى علبة أزرار خفية، داعبتْها، فتراقصتْ في السقف والأركان حزم ضوئية متقاطعة متداخلة بشتى الألوان... ثم توجهت نحو خزانة الأغاني، تنتقي ضالتها، ودفعت بقرص الأغنية إلى جوف الجهاز، ووقفت منتصبة القامة في شموخ، مفصحة عن رقبة عاجية مستقيمة، دافعة برأسها أقصى ما تستطيع إلى الوراء، ليتدلى منبع شلال كثيف نحو الأرض... وظلت برهة متجمدة الحركة في وضعها مقدمة رجلا ومؤخرة أخرى، في انتظار النغمة الأولى... ثم انطلقت ترقص بخفة على الإيقاع الغجري المنساب في شدة متلاحقة الوصلات... الثلاثة عيونٌ شاخصة مشدوهة، تتابع النغم والحركات، مشاركة في العزف بحركة الكفين...

كانت الدماء المندفعة إلى كيان حورية، بفعل التواءات الرقص وعنف الحركة تخالط زينة محياها مع تراقص الألوان، فتضفي عليها مزيداً من سحر وافتتان، وتجعل من الجلسة جزيرة سحرية، كوناً فاتناً عجيباً يتحرك فيه شبح الراقصة طيفاً رقيقاً سابحاً في شلالات وأمواج شفافة، من فلك غير مسكون ولا معهود...

وعلى موجة من نغم هادىء مغاير، تمد ذراعين عائمتين في بحر السحر والألوان، نحو رقيبة تجذبه على بعد إلى الحلبة... يقابلها... يساير النغم بحركات غير مدربة... تدور حول نفسها أمامه وتتحرك كرّاً وفرّاً قبالته... تمد يديها نحو رضى ليشارك في الجلسة... ثم إلى جميلة... يدورون في حلقة يتقابلون اثنين اثنين، تمسك أخيراً بيد رضى... يسايرها الصبي في عفوية ومهارة، يلتوي كل منهما، ويدور حول نفسه أمام الآخر... يتقاربان... يتباعدان... تتناءى النغمات وتتسارع نحو الهمود...

تتوقف الحركة... يعود رضى وجميلة إلى مكانيهما، بينما تمد حورية يدها إلى رقيبة وهما يعودان إلى الكنبة.

تقوم جميلة إلى الجهاز، تغذيه بنغمة استراحة هادئة ناعمة، ثم تعود إلى رضى، تقدم إليه مشروباً وحلوى، وتأخذ لنفسها بعض ذلك.

تخدم حورية صاحبها، تشاركه وتؤاكله... قبل أن تقوم إلى رضى تقبله تدفعه لينام... يقوم يودع منصرفاً رفقة جميلة... وماتلبث حورية، أن تومىء بإيماءة استئذان لتغيب بدورها مؤقتاً...

يظل أحمد رقيبة يتابعها، ثم يغمض عينيه كأنّه يستريح، يريح ناظريه ويستريح. يداهمه في الإغماض مشهد تلو مشهد من لحظات حياته...

6

أكيد، وبحق أنه أسلم إليها شراع حياته... مطمئناً راضياً واعياً وفي تمام العقل والوعي والإرادة... فعل ذلك، وهو لا يزداد إلا إمعاناً في تسليم حاله والقبول به... كان أكبر من راضٍ وأكثر من هانىء وسعيد؛ أكثر من مرتاح لتجوال مركب حياته... حياتهما... أو حياته معها... مركب مسحوب مسحور بلا مرساة ولا سكان تقوده الرياح الحورية إلى لا وجهة... أو إلى وجهة واحدة وحيدة، حيث تريد! ذاك كان... وسيظل الشرط والميثاق بينه وبين نفسه أولا، وبينه وبين حورية قبل ذلك... وجهته بالمركب ذاك... وجهتُها به مرافىء المتعة والحرية والسرور... أي خيال لا يقف عند حد في خلق الملذات والمباهج والمسرات في المأكل والمشرب والملبس... في المجلس والأثاث والمظهر والمعاشرة... في التغيير المستمر في كل لحظة من حياة...؟ وفية كانت وأكثر من وفية للميثاق الضمني بينهما... تذوق المتعة والفرحة والمرحة... ذاق ابتداع الطرافة في كل شيء... تذوقه قطرة قطرة، لحظة لحظة... خلق المتعة والفرحة والمرحة في كل نبضة من زمان، رعشة من كيان، حرف من حياة... وفياً كان وأكثر من وفي لما يقتضيه الشرط والميثاق : تعطيل محكمة العقل... وما يراه عقلا... قطع دابر كل استفهام جدي إلزامي أو استنكار، نفْي كل منطق أو نقد...

ــ كل شي زين !

شعار ضمني وصريح لحياته معها... كل شيء كذلك، بما تجعله هي كذلك... هو كذلك بها، لا قبلها ولا بعدها... وأبداً... أبداً لن يكون بدونها.

ــ كل شي زين !

تضحك حتى الأعماق بالطريقة التي يُرَدِّد بها جملته الشعارية مفخمة مضخمة !

أسلم إليها شراع حياته، وترك إليها أمر القيادة والوجهة والاتجاه، تجوب به مرافىء السحر والسرور... أكبر من راضٍ بنفسه عن نفسه... وهي أكبر من فنانة تستخلص من خلاصة لوينات الحياة المتناثرة المتسارعة، تشكل من ذراتها الدقيقة الهاربة، ما يكون زهرة اللوحة الهلامية المتكاملة، متحولة متحركة لا متناهية الأبعاد والألوان... باتجاه كل ما يحتمل وما لا يحتمل من عوالم... بلا حدود ولا نهايات... لا. تلك فاتنة فنانة ساحرة... لا تكل ولا تمل في ابتداع طقوس المسرة، فنون الحياة العجيبة البسيطة الحرة الممتنعة.

أن تكون معي، كما أنا؛ يعني أن تحيا الحياة ملء الحياة، وتمرح ملء المرح... وتعتبر عمرك المحدود المحسوب أعماراً، وتجوب جزراً وأفلاكاً وأقماراً... قال ذلك في نفسه مراراً، وكرر أن شهرزاد تلك التي كان ينهل من سيرتها في الحلقات صغيراً كلما أتاح له الكد والكدح لحظة... شهرزاد تلك، لم تكن شيئاً يذكر أمام هذه... أو على الأقل، شهرزاد تلك، كانت له حلماً ورؤية ورحلة في الزمان... أما شهرزاد هاته، فهي هنا، الآن، معه وإليه، فيه... شهرزاد تلك... شهرزاد هاته... وهو، أيكون شهريار ؟ يا للمفارقة... هو شهريار، ذاك

القوي الجبار الفتاك البالغ الغنى والقسوة والسطوة والجبروت ؟! لا، لا، إلا أن تكون قسوته على نفسه أو قسوة زمانه عليه، زهرة عمر في رحلة ما قبل حورية الطويلة المتعبة... أو على الأصح، في فترة ما قبل أن يطمئن إلى أنه بالفعل يستحق أن يطمئن، إلى أنه بالفعل يستحق، وأنه حصن نفسه ضد أفاعيل الزمان... أربعة عقود قضاها كداً في كد منذ لحظة ميلاده الأولى... أكثر من أربعة... خمسة عقود منذ لحظة ميلاده... لا يبالغ... منذ إطلالته على الحياة... لم ترحب به الحياة... لم تستقبله بالترحاب والمسرة... لم تمنحه هواءها بكرم معلوم... ولم يستنشقه بعفوية معهودة في المواليد... لم يتنفس هواءها الجديد بعشق أو لهفة وهو يطل على الكون من قناة بلا منفذ فيما يبدو... وإنما لفظه الرحم الرحيم لفظاً بعد أهوال وصعوبات كادت تؤدي بالوالدة... لم يشهق ولم يزفر رغم الخبط القوي على مؤخرته الكزة... وهو مزْرقّ معلق في الفضاء. وحين وضع على جنب من يد المولّدة العارفة في يأس وإقرار بالفشل، دون أن يهتم أحد بغطائه أو الالتفات إلى كتلته الهشة الهامدة... وبينما التفتت المولدة إلى الوالدة تنظر أمرها وما هي معرضة له من أخطار أصعب ولادة تشهدها مولدة وتراها رأي العين... إذا بها، بعد فترة، تلاحظ أن كيان الوليد الميت الهامد، ينوء بنَفس يسري واهناً فيه...!

زغردت المرأة فرحاً وشكراً لمعجزة الخالق، واحتضنت كيان الوليد... حكّت أطرافه وكامل جذعه، ولفتْه بكومة صوف محلوج من الرأس إلى أغمص القدمين... فُؤَيْر يُطلّ على الحياة بعينين تتحركان لتتفتحا... توشكان ببطء وعلى بياض فارغ ولا شيء أكثر... بشرة الجبيهة البارزة من لفافة الصوف ومقدم الرؤيْس الخالي من الزغْب... أعجوبة... أعجوبة ميلاد... أعجوبة موت أعجوبة حياة، سبحان

الله... فُؤَيْر... فؤيْر صويغر يطل بخوف... يطل بتردُّد وخجل على حياة لا تبدو حافلة به ولا هي مبالية بمجيئه أو مرحبة... سبحان الله الخالق الرزاق... سبحانه واهب الموت والحياة...

عدلت المرأة المولدة العارفة الغطاء حول الطفل الوليد، لفافة على لفافة الصوف... نظرت لحركة عينيه الواهنة في إغماضهما وجهادهما للتفتح... رَنَتْ إلى نأمة الحياة الواهية على جبهته، سبّحَتْ لقوة الخالق... تركت كل شيء فيه لقدره المقدور، وانصرفت إلى الوالدة، انصرفت إليها ساعات وساعات، تنعشها بالنضْحِ والحركة والدعاء... تناولها حساء الدجاج الساخن، وتضع على بطنها قطعة الآجر الملفوفة في خرقة، وتطلق حولها وحول وليدها ألواناً من الأدعية والبخور.

ساعات وساعات... ثم ما يلبث لون الوليد أن يمتقع بعض الشيء... شيئاً فشيئاً يتورد... بقعة بقعة... يبدو التورد ويبدأ يسري كحبيبات باهتة تحت البشرة الدقيقة الرقيقة، وتصدر عنه عطسة واهنة... عطسة ثانية... زغرودة حياة.

قوة الزمان من ضعفك يا شهريار، وضعفه من قوتك... والرحمة والقسوة يا شهريار... تلك كانت حكايات الصبا وأساطير الحلم والخيال... الآن، أنت تحيا فعلا حقاً صدقاً !

قالت له دائماً، إذا كنت معي، كما أنا فعلا، فلا تمتنعْ عن شيْءٍ... حريصة كانت على أن تؤكد في عبارتها الجدية والمبدئية عبارة «كما أنا»...

سألها أكثر من مرة، لماذا تستعمل هذه العبارة... أكدت ما يَعْنِي أنها كما هي، عندما تريد أن تكون على حقيقتها، وكما تريد أن تكون.. لا كما يراد لها أن تكون... هكذا كما تريد بدون زواق ولا نفاق؛ لأنها

هي أيضاً تعبتْ من الأقنعة... أقنعتها وأقنعة الغير... أقنعة الزمان والمكان... الزمان كان عليّ أقسى... فهي كما تريد أن تكون... هي كما هي، تحيا وتجعل من معها يحيا... آمين... تسنّت تعرابت ؟!

يؤمن على كلامها، ويستسلم، تؤمّنُ معه وهي تنهي خطابها كما تريد... عندما تريد، وتمزج الجد بالهزل، تسأله :

ــ تسنْتْ تعرابت ؟!

هي هي كما تريد أن تكون، وكما تريده أن يكون معها. حورية الحياة وملاكها المغري، شيطانها الأحلى والأعذب !

رضى... شهريار آخر... صغير جبار، ذخيرة مستقبل محشوة بالبارود وبالعسل... غامضة ! رضى... ماذا يعرف من قدره... بل ماذا لن يعرف من قسوة الزمان ؟ رضى ... كل ما يدور حوله، كل نأمة من حورية، كل إشارة تأتيها أو حركة منها تعمل على تأمينه من قسوة الزمان... تسعى لأن تصنع له الزمان زماناً خاصاً محكوماً... هو الحصن الحصين ضد الألم والحرمان والحزن والفاقة والعذاب... ذخيرة المستقبل ماذا يعرف ؟ وماذا لن يعرف، عن القدر المحكوم الزمن المنسوج له بيدها حورية الأم، حورية الحنو والدفء والحنان..؟ ذخيرة مستقبل... عسل وبارود...! أي شهريار آخر يُدّخر لآخر زمان... عسل وبارود... عسل وعسل أم بارود وبارود ؟! يرْعبه الصغير رضى... حقيقة يرعبه بما يرى فيه من تحكم بأمه... حورية التي تخلق كل شيء بإشارة منها، يحس بها رقيبة قشة أو أقل وزناً من خلق صغيرها رضى... آه، كأنّه يغار منه... من ماذا ؟ لماذا ؟

7

منذ لقائه الأول بحورية، بل بعد تعارف دام فترة، أبدى لها... أو... ربما بدا منه عدم استساغة ما لسلوك رضى، لسلوكه معه... أو لعلاقتهما... أو...

قالت إنه ابنها وأخوها وصديقها الصغير الأصغر... إنه أيضاً أبوها أو يكاد... رضى ذاك هو الذي خلقها عندما ولدتْه... إنها به وله ومن أجله... حبيبها الذي لا يبلغ ولن يبلغ مكانته أحد فيها مهما كان الآخر... مهما كان... رضى هذه مكانته... وهو رغم صغره يعرف عنها كل شيء في الماضي والحاضر والمستقبل، لا تخفي عنه شيئاً مهما كان... مهما كانت... تحدثه عن كل شيء فيها ولها، كما لو كانت تحدث نفسها، إنه أيضاً، أختها وأمها... ومرآتها التي لا تتردد في أن تقف أمامها مكشوفة بعيوبها بآلامها وآمالها... فعلا هو كذلك... هو مرآتها بالحقيقة والمجاز... إنه يذيع الصابون على جسدها ويختار لها ملابسها أو يكاد... إنها تسأله عن رأيه هو أولاً فيما تلبس أو تعْزم أن ترتدي... وينام كل منهما في أحضان الآخر !

عندما أنهت إليه خطابها، كان الدم قد اندفع قوياً إلى وجنتيها بفعل حدة استجابتها لموقف... لملامح تراءت لها من شبه موقف منه... استجابة أطارت من رأسها كل شيء حتى مفهومِ شعارها المقدس للفرحة والابتهاج وترك المحزنات المنغصات ظهرياً...

تمتم رقيبة، يريد أن يعتذر... فهو لا يقصد ولم يكن يقصد سوءاً أبداً، يجب أن يعتذر ويشرح... يشرح لها هو الذي يعلم علم اليقين بخبرة سنوات عديدة، وفترات لا حصر لها من حياته الماضية... من صباه البعيد أن السماء وحدها كانت تجود عليه بفضائها الفسيح، وهي وحدها الطبيعة على رحابتها كانت تمنحه أحضانها وتدفئه... لم تكن الأمطار والعواصف لتترك له فرصة أن يجد الدفء في غير أحضان الطبيعة... وأي دفء ! إنما يريد أن يقول لها فقط : إن الطفل.. إنه يريد الطفل أن ينشأ على شيء من التحمل والاعتماد على النفس، وعلى بعض الحشمة والاحترام لها وله... أليس ابنه أيضاً... بمثابة ابنه ؟

لم يزد بهذا الكلام على أن غذى فيها التذمر والامتعاض وحدة الاستجابة، كبار واحترام وأم وأب ؟!

تساءلت إن كان صاحبها رقيبة نفسه قد حمل أو مايزال يحمل احتراماً لوالديه... لأمه خصوصاً مادامت هي التي تحل في ذكرياته... وما قيمة ما يحمل لها إذا كانت الأم تلك، كانت وظلت عاجزة عن حمايته وحماية نفسها ؟ ثم ماذا يمنع رضى من أن يحترم أمه... بل أكثر من ذلك، وهو الأهم، أن يشعر بأنها تحبه وأنه يحبها بدوره... وهذا ما هو حاصل ومؤكد. فعلا، ما قيمة أن يحترم الأم، إذا كان هناك من يقسو عليها من شخص أو ظرف، يجعلها تنسى ولدها ووليدها لفترة طويلة أو قصيرة، مستسلمة لمالك أمرها أو قدرها شخصاً كان أو ظرفا ؟

كان رقيبة واعياً بقيمة اللحظة والموقف، وكانت جلستهما في أتم هناء لا يريدها أن تضيع في هذر فارغ... إلا أنه مع ذلك لم يفلح في أن يعيد إلى رأس حورية، مستوى ما كانا فيه من انتعاش وانتشاء...

تركته في حركة تذمر بليغة واضحة وانصرفت دون أن تنبس ببنت شفة.

لابأس، لابأس، أحسن ما فعلت، تحسن الانصراف كما تحسن أشياء كثيرة... إنها أنقذته من حدة موقف كان مسببه، رغم يقينه بأنه ليس مخطئاً... إنما... المهم أنها أحسنت بالانصراف... كعادتها...

وكعادتها، تحسن الرجوع، عادت إليه، أعادته إلى نفسه، بحركة لطيفة أخرجته من تأملاته، كان غائصاً في زمانه القديم وطفولته... يقارن... طفولة وطفولة... وهو شاهد حاضر ناظر...

عادت إليه ماثلة في فستان قاني الليل، يتمسك بمنتصف الصدر، ويتدلى في شفافية مموهة إلى ما دون الكعب... وقد غاب شلال شعرها الفاحم في لفة دائرية، على شكل وردة أو قعر زوبعة ساكن... يتدلى من طرف أذنيها قرطان طويلان، يربطان اللوينات الهاربة لكل من الفستان والحذاء عالي الكعب...

ماثلة تخرجه من تأملاته... ماثلة كالخارجة من حلم بلطف الحضور وسحره...

تخطو حورية نحو الجهاز، تدفع بنغمات صميمية ناعمة تقف منتظرة... وعلى انسياب النغمات تفتح ذراعيها :

ـ أنت لي... وأنا لك يا مولاي !

هذه لحظات تحسن صنعها كما لا يحسنها بشر... يزعجه فقط هذا الإلحاح المرير للحظات منسية من ماضيه، هو عازم متعاقد على نسيانها، لكنها ترتسم من ذاتها بقوة، لا راد لها لتعتصر الصدر، وتنعقد في الحلقوم...

ـ أنت لي... وأنا لك يا مولاي !

وحدها تبدو متغلبة عن الذكرى إلا ما تريد، متى تريد، وحدها لها كل القدرة على امتصاص اللحظات ذرة ذرة، كأنها لم تعرف أبداً عسر الزمن... بؤس الزمن... ضغط الزمن... من أية طينة هذه ؟ أو لم يعرف بعد ؟ بعد كل ما مضى وما هو راهن وما يأتي...؟ ألم يعرف بعد ؟ يعرف الكثير وذكراه المريرة من زمنه المعسر، ليست إلا متعة أخرى يستحضرها الخاطر الشقي، ليضاعف من متعة حاله، وحال متعته... لا عليه إذن... مرارة الذكرى من نعيم الحاضر، وجهه الآخر الذي لم يعد يراه ولن... فهو إذن يحاول في غير حال، في غير مقام ولا مقال...؟ لا سؤال. لا سؤال...

ـ أنتِ لي وأنا لك مولاتي...!

8

لم تتعثر بها القدمان، بل كانتا تخطوان في قصد، تعرفان الطريق الذي سلكته مراراً تنشد راحة البال، وأمن القلب الحائر المتعثر... تحج إلى من أفاض عليه الكريم ينابيع الأمن والراحة.

وجهتها درب الطلبة أو بمحاذاته على الأصح، دار ولد السيد... بالذات... سيدي ولد السيد، تلك الدار العتيقة ذات الكرمة الوارفة الظلال عند المدخل الفسيح، يستريح إلى فيئها الصادون المشتكون والمرضى والمتظلمون، إبان الحر، ويلوذون بدفء صحنها المسقوف في مواسم القر والاعتدال...

لم تكن أول مرة، ولا ثالثها، تقود فيها سليمة خطواتها نحو الدار الرابضة في فضائها بسكون، منبسطة مبسوطة وحدها على الأرض، تحيط بها بضعة مبان من كل جانب، من أبنية الدرب أو امتداده، لا يزيد الارتفاع عن طابق أو طابقين. دار السيد... ولد السيد... سيدي ولد السيد... تجللها الحرمة والوقار، ترتفع من كرمتها زهوة الأوراق، بلون الأمل والرجاء لكل قاصد أو عابر... يفوح من فوهاتها عبير الطبيخ لكل زائر أو محتاج كرماً وتكريماً وبركات... ويتبرج المكان من أرجائها، واتساع جنباتها، بروائح الطيب والبخور تنساب موجاته في الأعماق، وفي الفضاء مضمخة الأعطاف بالأدعية والأذكار...

سارت سليمة تنحدر نحو الدرب، ثم تصعد منحرفة بمحاذاته، تمسك بيمناها فتاتها إلى جانبها، بينما تثّاقل يسراها بقفة تحمل بعض ما يقتضيه المقام وواجب الزيارة... تجود به النفس هدية إلى أهل الدار... أهل الخير والبركة وأهلها... أهل كل قاصد، وأهلها هي بالذات، نِعَمُ الدار عليها كثيرة عندما تقصدها في كل أمر مهما كان... و لم يكن أمر أبداً من قبيل ما هي عليه الآن. زياراتها كانت كثيرة وهداياها، ولا تدري ماذا حصل...

تسير، وبقدر ما تخطو، تخف بها القدمان مع أنها لم تكن مستعجلة ولا بها إحساس من ذلك ؛ على العكس، إنها تشجع نفسها على الطريق بخواطر ما كان وظل يربطها بالدار... تتشجع بذلك على ما بها من داعي التراجع.

هكذا هي، في سعيها لإحياء صلة قديمة، كأنها تعترف بتقصيرها في الانقطاع، كأنها تتقدم بإقرار يستحق ما يستحق...

فعلا، تُقر بتقصيرها وذنبها ولا يمكن بغير ذلك أن تخطو نحو الدار... تخطو ممسكة بيمناها فتاتها، بينما تثّاقل يسراها بما تقتضيه الزيارة والمقام، وباطنها يتماوج بالخواطر والأفكار... وكله... كله يُفرج بخير الله وأهل الدار...

9

رغم خفة سيرها كانت نجاة إلى جانب أمها سليمة تبدو كالمجرورة بخطوها، مقطورة إلى سعيها واتجاهها إلى دار ولد السيد... فقلبها الفتي إن كان قد عرف خفقة الحيرة، ونبضة القلق فهو لم يتفطر بعد، ولا اكتوى بالجحيم المُلمِّ المقيم المُقْعِد تنشد له البرد والسلام، كما تنشد ذلك سليمة أمها الآن في خطوها إلى دار سيدي السيد.

سليمة تسعى بهذا الخطو، بهذا القلب الكسير، لأنها ألفتْ أن تضع أحمالها في هذه الدار... وقفة أو زيارة هنا بين الحين والآخر، تتزود بها على فترات من عمرها، وكلما دعت إلى ذلك الحاجة... فما وضعت مولوداً، أو وقع في بطنها حمل، أو جدّ بخاطرها جديد، إلا وسعتْ بقلب واجف مرتجي، وبنية صادقة خالصة... تأمل، تدعو، تنشد... وما انصرفت إلا آمنة راضية هنية.

تسعى الآن، يدفعها شعور الحاجة وحافز التقصير، تنشد العون يملأها الإحساس الشديد بأنها تأخرت كثيراً... ربما وصل بها الأمر إلى حد التفريط بعد كل ما جرى... أكان يجوز من جانبها وهي على هذا القرب من دار ولد السيد، من دار الأمل والرجاء أن تحتمل وحدها كل ما احتملت لحد الآن ؟ ماذا لو خطت قبل الآن هذه الخطوات البسيطة، وشكتْ حالها كما كان العهد بها عندما كان الأمر

يتعلق برزق الأولاد، أو صحة والدهم أو سعده، أيام كان ذاك الوالد والداً حقّاً، وأيام كان في حاجة إلى من يطلب له تيسير الرزق وحسن السعد... أو عندما كان الأمر يتعلق بحمل أو مولود..

تخطو نجاة بجانب أمها كالمجرورة المقطورة، وتخطو سليمة في خضم أفكار وخواطر متضاربة... لعلها حضرتْ هنا بالفعل... من يدري ؟ إنها هنا دائماً بقلبها وعقلها في حضورها وغيابها... أيام كان لديها حقاً عقل وقلب.

من يدري ؟ ربما كان بإمكان زيارة مثل هذه لو تمتْ منذ سنتين أو ثلاث... أو أكثر... أن تمنع ما حدث... بعضه أو ترممه بطريقة ما... تخطو في خضم أمواج من خواطر متلاطمة، تتساءل مرة وتجيب أخرى... تسمو بها الهمة تارة، يقعد بها الخمود تارة... وهل كانت تستطيع أن تزور الدار، وتكلم أحداً كائناً من كان، لتشتكي بأمر يخصها هي وحدها ؟... هكذا ؟ ولا يتعلق الأمر بحمل أو مولود، ولا برزق أو سعْد أو تيسير حال... وإنما يتعلق بها هي عيناً، يتعلق بها زوجاً وامرأة... من بنات حواء... تخلّى عنها... ابن آدم... زوجها، رب أولادها وبيتها ؟!

أهذا موضوع يستحق الشكوى مهما كان طعمه وحدّتُه ؟ أهو موضوع يمكن لها هي أن تفتح به شفتين مهما كان عذابه ؟ أية كرامة منها تحتمل ذلك وأية ملامح ؟ بأي وجه تنظر في المشتكى إليه، وكيف تحكي ؟ من أين تبدأ وكيف تنتهي... و... كيف يرف لها بها طرف، وتتمسك أرض، ويفسح فضاء...؟!

الآن، تخطو سليمة يحفزها أمر نجاة، أمر ابنتها... إحدى فلذات كبدها... تخطو محملة بعبء المسؤولية الثقيلة... تخطو كما كانت تخطو

قديماً من أجل حمل أو مولود... نجاة... إحدى فلذات الكبد... حمل ومولود ومستقبل غائم غامض... الأمر يهمها كثيراً، يحتاج منها إلى التوجيه والنصح والمعرفة ممن له ذلك... الأمر الآن لا ينال من كرامتها في شيء... إنها تماماً في وضع ما كانت عليه سابقاً في سالف الزيارات والعهود... كانت تزور لشأن عائلي، لشأن معنوي...

مع ذلك، في خواطرها هذه، لم تكن سليمة بريئة من شعور بالتقصير في حقها وفي حق الدار وأصحابها، دار السيد... وليغفر لها، ليغفروا لها، كما يغفر للمارق العاق الذي لا يتذكر أولي النعمة والبركة، إلا عند اشتداد الحاجة، وفي ضيق نطاق المحنة...

نجاة تائهة... مجرورة مقطورة إلى خطو أمها، إلا أنها هي أيضاً تموج بها أفكار وخواطر... ماذا تفعل أمام الحيرة والقلق ؟ في أي طريق تسير على هذا النحو ؟ أمِن الصواب أن تسحبها أمها هكذا... في هذا الاتجاه ؟

لحظة لا مثيل للإحساس بها، تلك التي اندفعت فيها نجاة بحدس خفي إلى استراق السمع... لحظة عادية جداً، لكنها لأمر ما بدتْ غريبة الترتيب، فلأول مرة، بإلحاح صديق الوالد، رفيق عمره وخلِّه القديم... أحد خليليه. عمها الحاج على كثرة ما تردد عليهم بحضور الوالد وفي غيابه، بدون ترتيب ولا كلفة، لأول مرة بعد ذلك كله، يحضر الآن، في لحظة تبدو غريبة، تستقبله فيها سليمة بعبارات ترحيب، وباهتمام أكبر، تُنادي ابنتها نجاة، تطلب منها أن تهيىء لعمها الحاج شيئاً... ضيافة واحتفاء...

نادتْها لذلك، وهو في حد ذاته غريب، فمتى كانت سليمة رغم العشرة والصحبة الصادقة تحتفي بالحاج في خلوة هكذا... وتطلب

من نجاة إعداد شيء... بدل أن تشجعها على المكوث معهما، أو أن تستأذن هي لتهيىء ما تتطلبه الضيافة، وتأمر ابنتها بمؤانسة عمها لحظة ذلك... هذا إذا كان في الاحتفاء مبرر..!

نادتها أمها... طلبتْ منها إعداد ما طلبت، وفي وجدان نجاة، في إدراكها المرهف غُنَّة إبعاد واضحة في لهجة أمها... أرادت أن تبعدها... أو تشغلها بشيء عن شيء... هكذا حدستْ نجاة هكذا فهمت... هكذا استقرت في وعيها نبرة الصوت المخالطة لنداء أمها فيما طلبت منها...

استرقت نجاة السمع والانتباه، وهي تهيىء أواني الشاي، بعيدة عن مجلس الخلوة بين الاثنين... أرهفت سمعها، كلها كانت سمعاً، فتحت كامل إحساسها لتلتقط عبارات متقطعة متباعدة لكنها قوية الوقع... زواج... خطبة؛ والتقطت اسمها في ثنايا ذلك... مقروناً... مربوطاً... مجروراً، لا تدري... كل ما تدري وسمعها لن يخطىء، أن اسمها وارد في خلوتهما، في حديثهما... وتدري أكثر أنها التقطت أيضاً اسم حمادي... من حمادي ؟ وهل غير ابن عمها الحاج ذاته ابن هذا المختلي حالا بوالدتها... رفيق الوالد في العهد الزاهر السعيد القديم ؟ هو وحدهٌ حمادي الاسم الوحيد الجاري على الألسن، وهي هي نجاة... والاسمان معاً وردا بوضوح في سمعها ووجدانها...

خفق القلب ؟ طبعاً.

ارتعش الكيان كله ؟ صدقاً حقّاً عمقاً...

مفاجأة ؟ أكثر... أكثر..!

وانحبست أنفاس نجاة، تستحضر ملامح حمادي... صورته... رأته مرات و لم يكن شيء يخطر ببالها، تسمع عنه الكثير وهو يعمل خارج

الوطن بأوربا... تسمع عنه من بعيد، وتسمع عنه حين يعود كالوهم في زيارة لا يكاد فيها يرى لكثرة تنقله بين الأحبة... تسمع عن رسائله إلى أهله، ومن أخباره نُتفاً متناثرة... تنبعث من هذا أو ذاك؛ و لم تنتبه أبداً أو يخطر ببالها أنها ستكون موضوعاً مرتبطا به... ومن اهتمامه ! سمعت عنه ولاشك من أمها ذاتها... سمعت أشياء غير متكاملة وفي غاية الحياد... سمعت عنه ولاشك، بمناسبة ذكرى شيء يتعلق بسن أخيها عزيز المقارب لحمادي... كثيراً ما كانت والدتها في الفترة الأخيرة تعقد مقارنات بينهما لصالح حمادي... متأسفة على خيبة أملها في عزيز... وفيما بعد أصبحت الوالدة تذكر المقارنة بين الفتيين، لتنتقل إلى مقارنة أهم بين زوجها أحمد رقيبة، وصديق عهده القديم الحاج... هذا من ذاك... وذاك من هذا ؟!

لماذا تسحبها على هذا النّحو ؟ وأين الطريق ؟ هل يتعلق الأمر بما استرقت إليه السمع... بما انتهى إليها، أم بشيء آخر لا يهمها، ولا علاقة لها به ؟ مهما يكن، فأين الطريق ؟ وأي طريق ؟ تصدق أم لا تصدق ؟ وماذا تقول ؟ بخصوص ماذا ؟

لم تزد سليمة على أن رفعت صوتها تنادي نجاة بالإسراع بالشاي للضيف العزيز. يشكر ويكرر أن الدار داره، بلا تكليف... ومناسبات الشاي وغيره كثيرة وقادمة إن شاء الله... لكنه حريص على أن يسمع الجواب...

أرهفت سمعها بأقصى ما يحتمله سمع بشر، حريصة على التقاط كل نأمة في الموضوع... قالت سليمة إنها ليست أباً... ليست رجلاً يقرر وحده في مثل هذا، وقال الحاج إنها كل شيء... هي الكل في الكل... لها الرأي الأول والآخر قبل أي آخر غَيْرها...

كان يكلمها بما يحمل نبرة الغيرة عليها والاعتزاز بها. أدركت ذلك سليمة من حركاته وضغطه على الكلمات، إنه يعني الكثير، أدركت ذلك منه وأنعشها بعض الشيء. إنها مشاركة منه لما يعرف أنها تعانيه أو عانته على الأقل...

فيما يخص الموضوع، يعرف الحاج أكثر من غيره ما يجب، ولكنه ينتظر رأيها أولا، لأنها رغم كل المظاهر، هي التي تملك الأمر... مرة أخرى، يلمّح الحاج إلى أنه بجنبها ضد صديقه القديم... بل هو ساخط عليه وعلى موقفه، ويفضل ألا يخاطبه في مثل ما جاء فيه، إلا أن الواجب واجب... وبعد أن يسمع رضاها طبعاً، بعد رأيها، هناك أكثر من طريقة للاتصال بغيرها... بأحمد رقيبة... إنما على سليمة أن ترد بصراحة ووضوح... والباقي يأتي... إنما من المهم أن حمادي هنا الآن في إجازة... وهو سيزور أمه سليمة طبعاً، لتأخذ سليمة وقتها الكافي للتفكير، فهذا حق وشرع... إنّما يقتضي الحال أن يتم ذلك وحمادي هنا...

خفقة القلب... نبضة المجهول في الكيان... وتوجس المرغوب فيه بحرقة الفضول والتطلع... وحمادي... حمادي لا تراه العين الآن... ليتها تستطيع رؤيته دون أن يشعر أو يدري... أو تمتلىء به العين والقلب على هون ومهل حتى تستقر صورته... صورته ؟ صورته بعيدة محايدة في الخاطر والذكرى، لا تكفي لتزرع اطمئناناً... هي بذلك تزيد خفقة المجهول وقعاً، لماذا تستعصي الصورة عن الالتئام في عرض الخاطر ؟

تقوم سليمة وراء الحاج تودعه مرددة أن يكون خير إن شاء الله... والرجل يودع بنفس التأكيد... لن يكون إلا الخير... كل الخير...

انتظرت نجاة طويلا... انتظرت أن تفاتحها الوالدة في الموضوع... قاست كثيراً في انتظار اللحظة، وتوقعتها مراراً... أعدت نفسها لما تسمع ولما تقول... لكن اللحظة لا تحل، أتبلغ قسوة أُم بها هذا الحد ؟ ألا تدرك أم مثل سليمة بطبيعة الأنثى، ماذا تعاني نجاة ؟ لماذا إذن هذا العذاب ؟

لا تحل اللحظة أبداً، إنما هو التوجس والقلق والانتظار، وصورة حمادي لا تسعف بالالتئام والحضور؛ وها هي ذي مجرورة مقطورة إلى خطوات والدتها وسعيها، لا تعرف إلى أين ومن أجل ماذا ؟

لماذا... لماذا لا يفاتحها أحد ؟ لماذا تبقى فريسة خواطرها ؟ ومن يسعف ؟

10

ما كادت سليمة تطل على حومة دار السيد، حتى تباطأت خطواتها وكأنها اطمأنت إلى الهدف وهدأت إلى حالها... حتى قبضتها على يد نجاة خفت، ارتخت قليلا، وأصبحت مجرد لمس أو يكاد... وبدت المرأة في هيئة ناسك يلج محراب تعبده... وبدت طلائع دار السيد في عدة أفراد حول الباب الكبير... وعلى القرب بضع سيارات، بعضها خاص، وبعضها الآخر مهيأ لنقل الزائرين إلى أي مكان في المدينة أو خارجها.

دار السيد هي في واقع الحال دار ابن السيد، ولد السيد، بعد رحيل الوالد الذي كان كعبة الشاكين والمتبركين والمرضى، تاركاً إرثه لخلف لا يقل عنه... ولو حَلّ حفيد من سلالتهما مهما كان قريباً أو بعيداً، لما حملت الدار غير اسم السيد الذي لا يكاد أحد يذكر اسمه الحقيقي، وتلتقي الألسن عند ذكره مقروناً بمشاعر الاحترام والتقديس.

تركت سليمة يد ابنتها وهي تشارف عتبة الدار، تتهيأ للدخول ومالبثت أن مالت على جدار المدخل تلثمه متمتمة بأدعية حارة خفية. وخطت إلى الداخل حيث الصحن الفسيح، تحتل الكرمة الوارفة أحد أركانه، مرسلة أغصانها على الجدران... وقد تناثر الزوار في الصحن نساء ورجالا، يبدو من حال بعضهم أنه مقيم أو شبه مقيم هنا...

جماعات وأفراداً بما يخصهم من لوازم الغطاء والفراش وبعض أواني الطبخ الضرورية...

تقضي تقاليد الدار أن كل من يدخلها ضيوف، يوزع عليهم ما تيسر من الأكل في أوقات الوجبات... وفيما عدا ذلك، لا يمنعهم مانع من تهيىء ما يشاؤون أو ما يقدرون عليه بأنفسهم في الصحن أو داخل المطابخ في الدار ذاتها... لا شيء يشعرهم بأي حرج، كأنهم في دورهم وبين ذويهم أو في ملك مشاع... أما ما يُحمل من هدايا، وأعْطية، فإنه يأخذ طريقه في الدار لينال منه الجميع...

تقاليد الدار حماية أيضاً وحمى، يرومها المحروم والمقروح والمظلوم، تؤوي في أمن وأمان قاصدها مهما كان، وممن تظلم... هكذا تقاليد الدار من سلف لخلف، هكذا هم زوارها وقاصدوها من جيل لجيل... تمنح الماء والطعام، تفيض الظل والدفء، تهيىء الغطاء والفراش... وراحة الحال والبال.

11

السيد... ابن السيد يخرج لزواره بعد الضحى وبعد العصر من كل يوم، وفيما عدا ذلك، فهو مختَل بنفسه في الدويرية وملاحقها أقصى عمق الدار، يعيش عيشة الزاهد المتعبد بين عائلته ومريديه... يستقبل في خلوته من هو أهل لذلك أو في حاجة إليه...

دلفت سليمة متجاوزة الصحن الكبير العاري تتقاطع على أرضيته مربعات الزليج الأسود والأبيض، وينفتح وسطه على باب يؤدي إلى صالة فسيحة مفروشة بالحصُر، تتناثر في بعض أركانها زرابي متفاوتة في الجودة والقدم، مختلفة الألوان والرسوم والأحجام... صالة فسيحة تنتثر فيها قصاع الطعام من كسكس أو طواجن أوقات الأكل إذا اقتضى الحال؛ ومسجد تقام فيه الصلوات في أوقاتها... ومجلس للقراء والذاكرين ما بعد العشاء...

لم يكن موعد خروج السيد قد حان فيما بعد العصر هذا اليوم خطت سليمة بمحاذاة باب الصالة الكبيرة حيث دفعت باباً صغيراً، يؤدي إلى دار النساء والزائرات، وهي عدة غرف متداخلة تكون شبه صالة واحدة مستطيلة مخصصة بكاملها للنساء الزائرات... عدة أطفال كانوا موزعين بِالقرب من أمهاتهم، أو بعيداً عنهنّ، بينما انصرفت النساء في مجموعات صغيرة إلى أحاديثهن الخاصة التي غالباً ما تعود لتدور حول «الزيارة» المرتقبة للسيد وبركته حين خروجه...

انتحت سليمة ركناً بالقرب من مجموعة نساء بعد التحية، وجلست بجانبها ابنتها وقد انكبَتَ في داخلها قلق الحال والسؤال.

ظلت سليمة برهة تنتظر حتى فتح الباب المؤدي إلى الدويرية، وظهرت إحدى النساء المساعدات والمتطوعات في المطبخ داخل الدار، يظهر عليها ذلك من طريقة تشميرها عن كميها ولفها لأذيال ثوبها الفضفاضة... سألتها سليمة عن الحاجّة... أجابت المرأة بما يفيد أنها موجودة بالداخل... مشغولة...

وكأنما أدركت المرأة من هيئة سليمة أنها من العارفات المتعودات على زيارة الدار وأهلها... فنظرت إليها ملياً، ثم أشرقت ملامحها قليلا دون أن تبتسم، أو تتحدث، وفتحت لها الباب، متنحية بما يتيح الفرصة لدخول سليمة دون أن تتخلى المرأة بيدها عن مصراع الباب، كأنما تؤكد بذلك للغير أن العملية استثنائية للمقربات جدّاً، من أهل الدار.

فعلت المرأة ذلك، وأومأت توجه سليمة نحو مقصدها... كانت الحاجّة الكبيرة والدة السيد، (ولد السيد)، والحاجة الصغيرة زوجته وأم أولاده، تتفقدان المواقد والطناجر، توجهان وتشيران، وقد وقفت الطباخات والمساعدات وكلهن متطوعات، منصرفات بهمة إلى مأموريتهن...

في أركان المطبخ الكبير، وعلى رفوفه، وفي صناديقه، تبدو أكداس المؤونة والغلال والخضر من كل الأنواع والأصناف... أثر النّعمة والمكانة باد على الحاجّة الصغيرة، والرائج أنها لا تنتمي لبيت كبير، بل تتمتم الألسن ــ ألسن النساء خاصة ــ بأنها علقت بالدار منذ حياة الوالد، السيد، في أواخر أيامه، متطوعة في خدمتها، وظلت تعمل

ما في وسعها حتى استاطاعت أن تعلق بولد السيد، في غفلة الحاجة الكبيرة، وَتصل إلى الزواج منه...

تقدمت سليمة نحو المطبخ باتجاه المرأتين معاً، سلمت باحترام على كل منهما... أحسنتا بدورهما الترحيب، وقادتها الحاجة الكبيرة نحو إحدى غرف الاستقبال... بينما استمرت الحاجّة الصغيرة في إتمام دورتها وإشرافها على ما يجري في المطبخ، حتى إذا اطمأنت، أشارت ووجهتْ... لحقتْ بالزائرة لتجد الحديث بينها وبين الحاجة الكبيرة مسترسلا في ود وترحاب، لتنخرط فيما هما فيه، وما أيسر ما تتذكر كل من الحاجّتين زائرتهما القديمة التي انقطعت منذ مدة طويلة حقاً عن الحج إلى الدار لأسباب يعلمها الله وحده... ليست أبداً نسياناً ولا نكراناً... الله وحده يعلم ما في القلوب، وما في قلب سليمة من شوق دائم للتبرك بالدار... عبارات لوم خفيفة وعتاب عابر من المرأتين لسليمة... والخير في ساعة الخير... والزيارة كلها خير متى تيسرت... الدنيا صعبة... والزمان غدار، والحمد لله على كل حال... والله يخزي الشيطان...

أقبلتْ إحدى النساء من ناحية المطبخ بصينية الشاي، وقامت الحاجّة الصغيرة نحو آنية حلويات وسط الغرفة، تسحب غطاءها القماشي المخرّم، وتقدمها لضيفتهما، حريصة على إظهار الحفاوة بالفتاة تسألها عن اسمها تشجيعاً ودفعاً للحرج، وتناولها الشاي والحلوى...

كانت فرصة سليمة لتحدث المرأتين عن نجاة كبرى بنتيها، وأنها من أجلها جاءت تتبرك تستشير السيد... ظهر البشر وعلامات التشجيع على المرأتين بعبارات مودة ودعتا للفتاة وأمها بكل خير... حينئذ مدت سليمة يدها إلى قفتها الكبيرة وأخرجت لفافتين متتابعتين،

قدمت لكل من المرأتين واحدة منهما، بعبارات الاعتذار والتواضع... هدية بسيطة إلى دار البركة والخير، ثم دفعت بالقفة بكامل ما فيها، علامة على أنه لكل الدار، بعد أن خصّتْ المرأتين بما قدمت أولا.

كانت سليمة عليمة بأصول الزيارة، وهي قبل وبعد كل شيء من المقربات وعلى يسر حال... شكرت المرأتان وكررتا لها الدعاء، وهما تبشرانها بأن عقدتها ستحل إن شاء الله... تُفك معاقيدُها ببركة السيد إن شاء الله...

مالبثْ الحركة أن دبتْ بل احتدتْ في صحن الدار، دار النساء، حركة تأهب، تشي بقرب خروج السيد إلى زواره... وفاحت روائح الطيب والبخور... والعادة أن يظهر السيد من باب يصل ما بين خلوته في الدويرية وصالة الانتظار، إلا أنه قد يلج دار النساء أو على الأقل فهذا ما يجب الاستعداد له دائماً... فلحظة خروج السيد هي اللحظة المرتقبة، لحظة تأهب للجميع...

كانت هذه الحركة إيذاناً بانتهاء زيارة سليمة وابنتها لدار النساء... لذلك قامت الحاجتان، وقامت سليمة معهما، وهما تدعوان لها بالخير، وتشجعانها على البوح للسيد بكل ما يشغلها...

عادت سليمة وابنتها إلى حيث تنتظر جماعة النساء مع أطفالهن، وقد غصت القاعة بالزائرات، وبعض اللغط يعلو... ثم مالبثت أن طغت همهمة وصوت دعوات من بعيد... خرج السيد لزواره وهو الآن في الصالة الكبيرة يتقبل الزيارة، يستمع لأصحابها ويدعو لهم واحداً واحداً، ويرشد وينصح، ويصف الطريق لما يجب... ومضت قرابة ساعة قبل أن يهُلّ السيد على النساء المنتظرات...

ملأت قامته الفارعة الطول فتحة الباب بجلبابه الصوفي المحبب

الخفيف الأبيض، بالحناءة كتفيه ورأسه المغطى بقب الجلابة، وإلى جانبه مريده وعونه التبعي، يشير بما يلزم عند الاقتضاء، يومىء بالتزام الصمت، يحمل بيمينه طبقاً من الدوم المضفور الملون الدوائر، مغطى بمنديل رقيق أبيض... تردد صوت السيد بالسلام، خافتاً بقدر ما يصل إلى كل سمع ووجدان، وكأنه الصدى الخفي... أشار التبعي إلى النساء بالتزام أماكنهن بحركة من يديه... توقف السيد لحظة يتمتم بقراءة أو دعاء، ثم تقدم قليلا نحو منتصف القاعة قائلا بصوت مسموع هذه المرة :

ــ باسم الله.

أشار التبعي إلى النساء للتقدم واحدة واحدة... منهن من تتقدم بمفردها ومنهن من تدفع أمامها أطفالها، تقبل الزائرة يد السيد الذي لا يكاد يرفع بصره لشيء، لا يمنع ولا يدفع، ولا يخرج عن انحناءته الطبيعية... كل ما يبدو منه خطا الحاجبين ومعالم لحية متوسطة وخطَها بعض الشيب القليل، النساء منهن من كانت تطيل الشكوى والتمسح والتظلم... كان يستمع بإغراق واستغراق في انحناءة رأسه حركة تظهر معها بين الحين والآخر ملامح وجهه الصبوح في ومضات خاطفة. وجنتاه المتوردتان وشفتاه الدقيقتان تنفرجان بدعاء أو تأمين... وبمقتضى الحال يضع كفه على رأس أو كتف المشتكية أو الطفل المقصود بالزيارة والموضوع... ويغمض عينيه مغرقاً في انحناءته ليقرأ أو يدعو... ويمد يده باتجاه التبعي الذي يبسط طبقه كاشفاً عن محتواه : مجموعة تمائم ولفائف وأعشاب وقطع بخور... مساحيق مطوية في أوراق... يتناول منها ما يناسب الحال والمقام يقدمه للمريضة والمشتكية... أحياناً أخرى يلزم الحال أن يعرض وصفة شفوية على

المستمعة أن تستوعبها لتحضرها بنفسها لنفسها أو لغيرها، وكانت كل زائرة في انتهاء أمرها تضع في الطبق ما تجود به من نقود...

تقدمت سليمة تدفع بجانبها نجاة... قبّلت يد السيد وهي تتمتم :

بنتي آسيدي، بنيتي...

ولم تُبنِ أو تتم جملة مما تريد وأجهشت بالبكاء، وبدأ كيانها الذي كان قصيراً أمام قامة السيد يهتز بحركة هستيرية مما جعل الرجل يخرج عن انحناءته وغضه، ويمد يده يمسح على رأسها حيناً وعلى كتفها حيناً آخر، ثم يمضي في قراءة أو دعاء مغرقاً من جديد في انحناءته غير ناظر إلى شيء حوله أو عابئ بشيء. بدا وكأنه يغيب في دعائه وقراءته دون أن تفتر يده عن مرورها على كتف المرأة، ظلت سليمة مهتزة الكيان بنحيب داخلي مكبوت، وقد أرْخت رأسها إلى حضن الرجل، ويده ما تفتأ تمر على كتفها ورأسها دون أن يفتر عن التلاوة والدعاء... حتى بدأت تعود إلى روعها وهدوئها، تمسح دموعها... تقبّل يدي السيد وتمسح بهما على وجهها... ثم ترفع نظرتها إليه لأول مرة، لتعرب عن حاجتها بوضوح...

لمحت على ثغر السيد طيف ابتسامة رحيمة لا أحلى منها وأبرد على قلب كليم وخاطر محترق جريح... هكذا خيل إليها وهي تقنص تلك النظرة الخاطفة إلى ملامحه... إشارة منه... إيماءة خفيفة يترجمها التبعي بأن عليها الانتظار... تتراجع سليمة سامعة مطيعة، ويستمر السيد في تقبّل قاصداته واحدة بعد أخرى، وهن يغادرن القاعة مباشرة واحدة واحدة عقب ذلك، بإيماءة من التبعي الذي يعرف القصد من كل حركة أو نأمة يأتيها السيد عفواً أو قصداً.

كان بإمكان سليمة وهي تنتظر مع ابنتها أمر السيد، أن تستمع

إليه يتقبل الزيارة في الصحن الخارجي، ثم تتبين حركة عودته إلى الدويرية عبر الصالة الكبرى من حيث خرج أول مرة.

أحست ببعض انفراج من لمحتها للسيد، أو نظرته إليها بعين العطف كما أحست بها، جعلت إحساساً يعتريها بأنّها تتنفس حقاً، صدرها يتسع لهواء لم تتنسمه من قبل؛ تتذوق الآن أنفاس البخور العطرة، أعطاف المكان، أطرافه وحناياه والدنيا تبدو على بعض من بشر غير مألوف لديها، كأنها لم تعرف في حياتها يوماً هادئاً ناعماً...

في شعورها بانفراج خواطرها، استطاعت الآن أن تحس وكأنما لأول مرة بكائن حي مدرك إلى جانبها؛ نجاة، التفتت إليها لمجرد أن تشعر بحالها وتشعر ابنتها بذلك، فسألت إن كان بها شيء أو تحس بشيء !

تدير الفتاة رأسها نفياً لإحساس بشيء، فتضع سليمة يدها على كتف نجاة بحنو خفيف :

ــ ربي يصوّب لنا...

12

جاء التبعي يطل ويشير إلى سليمة بأن تسير خلفه... أحست وهي تلج الدويرية إلى خلوة السيد، أنها تضع قدميها في ملكوت خاص... عالم غارق في السكينة والهدوء والنقاء والبياض.

أرض الدويرية نفسها كانت مطلية بالإسمنت والجير الأبيض بدون زليج ولا فسيفساء... كل شيء بطبيعة النقاء والبساطة والبياض، مسكن صغير متكامل مسقوف إلا في جزء قليل منه تطل منه زيتونة ضخمة عتيدة متطاولة فوق البنيان بجوار الباب المؤدي لدار النساء.

في مقدمة الدويرية، يوجد بهو صغير ينتهي ببضع درجات تؤدي إلى خلوة السيد حيث يقضي جل وقته في القراءة والتعبد والاعتزال، ووراءها مباشرة غرفة نوم واستراحة. في الجزء غير المسقوف قرب الزيتونة يوجد بئر ترتفع فوهته فوق مستوى الأرض قليلا، مجهز بدلو معلق يدار ببكرة بين عمودين من جذع شجرة، وعلى الجانب منه حمام للوضوء والاغتسال...

الحصر تغطي أكبر جزء من مساحة البهو، بينما يبقى جزء منه عند المدخل عارياً ناصح البياض. فوق الحُصُر، تمتد على طول الأضلاع عدة بطانيات مطوية ووسائد مختلفة الألوان والأحجام، على نحو يضاعف من بساطة المكان ونظافته...

وجدت سليمة نفسها مع ابنتها وسط ثلة من نساء ورجال ممن استبقاهم أمر السيد... الكل صامت فيها عدا بعض من قام للوضوء أو يتهيأ للصلاة، ورغم تباعدهم جميعاً واختلاف مشاربهم، كان المجتمعون في البهو يشعرون بوحدة تجمعهم مادام أمر السيد ونظره قد اقتضى بقاءهم، كانوا يسمعون تأوهات وشكاوي بعضهم بعضاً، رغم أنهم سكوت هادئون من روع ومن رهبة المكان وسكينته...

وحده التبعي، كان يتحرك بعفوية ونشاط في هذا الملكوت الساكن في طبيعة النقاء والبياض، يتحرك في خفة الريشة، ويحط في رهافة الفراشة بلا حس ولا صوت، وما يلبث أن يعود إلى مكانه ليتخذ سمته المألوف في هذه البقعة على لبدة متقادمة قرب عتبة الخلوة أو مدخلها المفتوح على شكل باب بدون مصراع...

بعد فترة من سكون، ينهض التبعي صوب دار النساء، ليعود حاملاً صينية الشاي بدون براد، ممتلئة الكؤوس مترعة، يفوح من بخارها الخفيف عبير النعناع يعبق به فضاء المكان، يطوف بصينيته على الحضور، ثم يضعها في منتصف المكان، بما تبقى عليها من كؤوس ملأى كأنه ينتظر آخرين... أو كأنه يترك الحرية لمن يستزيد... ثم يختفي مرة أخرى.

تداخلت حكايات الناس في صمت المنتظرين... تقاطعت قضايا المسجون ظلماً والمقتول غدراً والمعلول بلا أمل إلا في الله وبركة السيد... والعقيم والعاقر والمطلقة والعانس والمهجورة المغدورة المخدوعة... ترابطت بصمت تجارة بارت، وذرية طاشت، وحرفة خابت، ورزق قتر... ملكوت هادىء رهيب صامت...

وأخيراً سُمعت لا إله إلا الله... باسم الله... صدعتْ من عمق

الخلوة، خارج المكان والزمان... وقام التبعي من جلسته يتفقد حاله، ويشير إلى أول الداخلين على السيد...

وجدت سليمة نفسها في المكان المهيب تجلله غُلالة بخور خفيف وطِيب... وجهاً لوجه مع السيد الجالس على لبدة صوفية كثيفة من جلد الغنم، أشار إليها وابنتها بالجلوس أمامه، والتهى عنهما قليلا بالنظر في مجلد متقادم بين يديه.

وضع السيد الكتاب جانباً، ومرّ بيده على لحيته المتوسطة الفاحمة تشع منها خيوط بيضاء قليلة متباعدة، لم يكن قد نظر إليها بعد... أو على الأقل لم تلحظ منه ذلك... كان في انحناءته تلك التي لا تفارقه في قيامه أو قعوده، يبدو غارقاً في بحر من الخجل والتواضع... بدت لها ابتسامته الصغيرة قصيرة العمر، تشجعها على الحديث ولا تضيف أو تنقص شيئاً من إشراق أساريره الدائم...

سمعتْ :

ـــ باسم الله.

يشجعها على الإفْضاء بما عندها، رغم تواضعه الجم، رغم حماستها للحديث فقد حالت البحة دون انطلاق صوتها، بينما الرجل يحرك لها رأسه تأميناً وتطميناً... دون أن ينظر إليها... ظلت تحدق فيه مأخوذة بهدوء أساريره، وتقاطيع ملامحه في وسامتها وإشراقها... قالت إنها تطلب النصح والمشورة والبركة... بنتها مطلوبة للزواج في بلاد الغربة وراء البحر... ومن صديق ابن صديق عزيز... وهي أم مغلوبة مظلومة لا تعرف ما تعمل ولا تجد سنداً لها غير العون الإلهي وبركة هذه الدار وأصحابها... الداء دفين والجرح عميق والحيرة ضالة مضللة... يا بركة سيد السيد...

توقفت وقد شعرت بأنها كشفت مشكلتها وكافة ما بها، وظل الرجل يحرك رأسه لها كما لو كان مايزال يستمع إليها أو هو يستزيد... ومضت فترة قبل أن يوقف حركته تلك ويسألها من خلال انحناءته وزوغان نظرته عنها، عمن تتحدث ؟ تجيب مشيرة إلى نجاة إلى جانبها :

ــ هذي... بنتي...

من يسألها عمن تتحدث ؟ من سألها ؟ خيل إليها وهي تجيب أن السؤال منها، أو أنه من الجدران حولها أو من فضاء الخلوة... لا تدري، ولكنه كان سؤالا قوياً، وجوابها واضح... وربما لم يسأل أحد...

لم تحس بأي حرج في التحديق في تقاسيم الرجل، أو أن الحرج زال من هذه الناحية... على كل لم تكن تملك ألا تحدق فيه... جاذبية ذلك أقوى من أي مقاومة... وهو يعفيها من معاناة الحرج بنظره المصروف عنها، وبصره الذي لا يرتفع تجاهها، وأكدت بصوت أقل ثقة ووضوحاً أنها تتحدث عن... ابنتها...

لأول مرة رفع إليها بصره، لمحت ما يشبه البرق الخاطف يدفعها إلى أن تغض وتخفض... أحست بالسؤال القوي العتيد يتطلب الجواب... سؤال صادر عنه أو عنها أو عن فضاء الخلوة... لكنه لا يحتمل مواربة... أحست باختناق، بأنها توشك أن تجهش بالبكاء... عاجزة عن الكلام على كل حال...

أومأ إليها السيد أن تقترب، أطاعت دون وعي كالمسطولة، وضع يده على رأسها، وطفق يقرأ ويدعو، حتى هدأت من جديد، ثم قال في وداعة وتودد :

ــ يا الله، يا بنتي، فرغي المزيودة...!

وقالت :

ـــ بنتي، آسيد السيد...

أحست به يشهق بذكر الله، ولا يزيد على أن يقول :

ـــ وبشر الصابرين.

أحست بتردد أنفاسها، كما لو أن حملا ثقيلا أزيح عن كاهلها، وبانطلاق حركاتها كما لو أن قيداً كان يشل مفاصلها... الحياة كلها ربما كانت قد توقفت فيها أو تعلقت منذ وطئت هذا المكان... الآن يطلق سراحها، هل أشفق عليها الرجل ؟ أدرك وأشفق ورحم... ومنحها هدية الراحة والهدوء ؟

ـــ وبشر الصابرين...

قالت بعبارة واضحة إنها لا تعرف ماذا تعمل في موضوع ابنتها وخطبتها لما وراء البحر والغربة ؟

سألها ممن ولمن ؟

سؤال أحستْ به أكبر من طلب الجواب، كأنه استنكار.

ماذا فعلت ؟ وماذا أدركت ؟

كررت بوضوح أن ابنتها معروضة للزواج من....

وقبل أن تنهي جملتها وكامل المعلومات، يوقفها سائلا بنفس اللهجة التي يخيل إليها أنها تدركها؛ والتي بدت مع التكرار فوق كل استنكار، كما هي فوق طلب الجواب...

أتدرك ذلك حقّاً أم أنها في وهم الوهم ؟ ممن ؟ ولمن ؟

تحاول مرة أخرى أن تنطلق في الحديث، تفضي بكل ما لديها،

لا يهم إن كان التساؤل منه أو من الجدران أو من داخلها بالذات... تحاول أن تفتح فاها بالتفاصيل بكل التفاصيل، فيقاطعها بإشراقه وهدوئه وتواضعه :

ــ الأمر لله...

تريد أن تلح لتعرف ماذا تعمل... يردد في نفس الهدوء أن الخير فيما اختاره الله...

إنها وحيدة في محنتها ولا معين لها ولا مشير... غير الله وبركة هذه الدار... إنها تخشى الغربة على ابنتها الكبرى وأنيستها في همومها... تخشى على ابنتها من غربة، وتتهيب على نفسها من شدة الوحدة... ثم هي لا تستطيع أن ترفض بدون سبب لأحبة أعزاء... ولا تعرف ما تقول ولا ما تفعل...

يوقفها من جديد بصوت يعيد إليها ذكرى انحباس أنفاسها في بداية الجلسة وسؤال عمن تتحدث ؟

يتوقف انطلاقها وحماستها من جديد، ستبكي مرة أخرى إن حاولت أو جاهدت، يشير الرجل إلى الفتاة أن تتقدم إليه، يضع كفه على جبينها، ويغمض عينيه ويغيب في قراءة ودعاء سري... وعندما يشهق لا إلاه إلا الله، وكأنما يفيق بذلك من غياب أو يوقظ بها ظلال العالم الذي كان نائماً حوله، يبدو لها طيف ابتسامة صافية عميقة، تفتر عنها أساريره... ويقول لها آمراً وكأنه يسألها :

ــ خليها هنا ؟!

دهشت سليمة لما تسمع... هل سمعتْ فعلاً ؟ التفتت حواليها كأنها تريد أن تتأكد... لعلها خجلة من نفسها، أن يصل بها المس في هذا المقام أن تسمع ما لا يقال أو يسمع !

ـــ خليها هنا ؟!

أمر كالسؤال، سؤال كالأمر واضح النبرات واضح المصدر..

ـــ سيد السيد ؟

عبارة حملتها كل ما تستطيع من حيرة واختبال.

يؤكد لها مقالته بهدوء وابتسام، كأنه يرد عن تساؤلات كثيرة في خاطرها :

ـــ ابقيْ معها !؟

ـــ سيد السيد...

يؤكد في لا مبالاة ومودة بالغة وتواضع شديد، يدفع عنها كل إحراج :

ـــ الخير فيما اختاره الله.

لا تملك إلا أن ترتمي على يدي الرجل تقبلهما، تبللهما بالدموع، ترتجف خشية ورجاء، فقدت شعورها بكل شيء حولها... غابت عنها الكلمات وانبلع اللسان، وليس لها إلا غريزتها التي تفهمها وتفهم بها... دموعها وهستيريا الكيان المهتز المرتعد المرتجف، تبين هول ما هي فيه، جاءت بحيرة تعاني حيرة، وها هي ذي في بحر متلاطم العتمات...

يهدهدها الرجل، يدفعها عن يديه بلطف داعياً ذاكراً... لا تملك سليمة أن تتراجع عن تقبيل يدي الرجل وتبليلهما برجائها والدموع.

ـــ سيد السيد، أنا وبنيتي بالله وبالشرع.

يدفع عنه المرأة بلطف ومودة، يرفع رأسها بمودة بالغة، ينظر إليها

نظرة هادئة تسكب على كيانها سكينة وهدوءاً، تستعيد سليمة بذلك بعض سمتها وتعود لنفسها.

تسمعه يردد أكثر من مرة في شبه همس مسموع :

ـــ وبشر الصابرين...

ويختم بالدعاء لها ولابنتها بكل خير...

13

لا تدري كيف عادت... كيف قبلت يديه بحرّى دموعها شاهقة باستجابتها... لا تدري كيف عبرتْ البهو والصالة والصحن لتجد نفسها في الشارع... وماذا أسر لها التبعي وهو يرافقها إلى الباب... كانت تشعر بظله إلى جانبها وأنفاسه حذو أذنها تتردد، يهمس إليها بما لم تعِ أو تفهم... مجرد إحساس كان ذلك، لكنها لم تلتفت أو تحاول التأكد إن كانت مصاحبة التبعي لها حقيقة أم وهما... لعل ذلك من مظاهر اضطرابها يضاف إلى تعثر الخطى وغشاوة الرؤية، وتيه الخاطر... أي شارع سلكت، وأي طريق، بأي اتجاه، وماذا ترى أمامها وحولها ؟

أكثر من مرة وجدت نفسها تتوقف في سيرها تجر نجاة... تجرها جرّاً ربما كان أقوى من وجهتها الأولى لزيارة دار السيد... هذا كان شعور سليمة على الأقل، تجر ابنتها جرا تحس به يثقل خطواتها... لكن ما يثقلها حقاً كان مما يتراءى لها أمامها، حولها... تحس بثقل نجاة إلى جانبها مجرورة متباطئة كأنها تفر بها أو تخشى منها ذلك... يوحي مشهدهما لغير الفاهم وكأن الفتاة تمانع اتجاه والدتها... أحياناً تنحرف بها... تنحرفان عن خط سيرهما لتتحولا يميناً أو شمالاً تحولا مفاجئاً كما لو كانتا على شفا حفرة... كما لو كانت الأرض تفاجىء خطوهما بانبثاق فوهات مبتلعة غير متوقعة، أو أن خطراً يتولد في طريقهما بين

لحظة وأخرى... يهددهما ويتهيأ للقفز عليهما من علو، أو ينفجر بين أقدامهما من عمق !

اندهشت الفتاة نفسها من سلوك أمها؛ من خطوها السريع العنيف ومن وجهتها المضطربة التي لا تنتهي فتنحرف بها ذات اليمين وذات الشمال. لم يكن حال الأم ولا حالها يسمح بالسؤال، كانت نجاة تتبع خطو أمها وقبضتها المحكمة على معصمها في صمت وإجهاد، محنة كانت هذه العودة، محنة هي حال الأم، محنة هي وأي محنة وضع نجاة، حاولت أن ترفع صوتها بسؤال، أو توجه الخطو، أو تتمهل، دون جدوى، محنة لا يمكن أن توحي بغير الخبل.

أخيراً، توقفت سليمة عن السير، بعد إجهاد ومكابرة، توقفت وظلت تعرك عينيها وتعيد، تغمضهما وتفتحهما مراراً تباعاً، تنظر حولها إلى كل جانب كأنها مبهورة أو مندهشة، كأنها في عالم غريب حطت به على غير علم أو سابق معرفة، تفرك عينيها وتجيل الطرف فيها حولها مستعيذة بالله من الشيطان الرجيم، بصوت مسموع يستقر في أذني نجاة كأول ما تتلفظ به أمها طوال طريق العودة الغريبة. تدور سليمة حول نفسها دون أن تفتر عن التعوذ وحركة العينين التعرفية... تدركُ بلاشك الآن أنها ضلت طريقها أو هكذا يبدو عليها ؟ فعلا أدركت الآن أنها تدور وتعود للنقطة نفسها من خط سيرها... كأنها في مركز دائرة !

اتكأت إلى الحائط، تستعيد أنفاسها، تلتقط وعيها وذاكرتها مستعيذة بالله من كل شر... لعلها حالة الغروب الوشيك، وتشتت الفكر وانشغال الخاطر... لعلها علة أخرى غير منظورة في الكيان المحطم المتفكك... علة غير معلومة ولا محسوسة إلى الآن في القلب أو في البصر... أو في كل الكيان... اللهم احفظ ونج من كل شر...

في عمق سمعها، كانت سليمة تتابع مقاطع صوت لا يفارق ولا يتوقف :

ـــ وبشر الصابرين... وبشر...

أحست ببعض راحة تعاودها، نظرت إلى ما حولها، لتتبين أين هي، نظرت إلى موقع قدميها على الأرض، الحمد لله، بدت تستعيد ثقتها بالأرض تحتها، وبالناس والبنيان حولها... كل شيء يبدو في نظرها يعود إلى وضعه الطبيعي؛ والمحنة الغريبة انحصرت عنها أو هكذا يبدو وتشعر، الحمد لله... الحمد لله... ومدت يمناها إلى نجاة الجامدة الصامتة، مدت تستعيد قبضتها على معصمها، لكن في هدوء، واستأنفت بها طريق العودة.

رغم الهدوء والطمأنينة... كانت سليمة بين الحين والآخر تتلفت، تنظر حولها بشيء من الاستطلاع والاندهاش دون أن تنطق بشيء، أو تتحدث بكلمة إلى نجاة الحائرة المتسائلة...

كانت سليمة في خط سيرها، ماتزال تنحرف قليلا حيناً بعد آخر، وعلى نحو مفاجيء... لكن بقصد واضح وباطمئنان...

14

بونا آدم... بونا آدم... بونا... آدم...

خطوات الهبطي تضرب الأرض بإيقاع شبه عسكري مرددة ترنيمته الدائمة... بونا آدم... بونا...

صفحتا قدميه المعروقتان الحافيتان تصفعان سطح الأرض بحس يتقوى مع الإسفلت، ويخمد مع المماشي المتربة... يتغير الصدى دون أن يتغير الإيقاع أو تفتر الحماسة أو العزيمة... بونا آدم... بونا آدم... بونا...

تحمر الدنيا احمرار المعدن المحمي في أتون الحدّاد... تحمرّ وتحْترُّ... كلها... الدنيا قطعة معدن محمية حامية في أتون حدّاد... السعيد الوحيد في هذا الكون الملتهب، هو مزندُ الأتون، نافخ اللهب والجحيم، محرك النافوخ الناري... سعيد بالتهابه وسريان اللهب في كل هذه الدنيا... حماة لهيب أحمر... في أحمر... في أحمر... لوحة نموذجية لا امتياز فيها ولا تمييز إلا في درجة الاحمرار... والاحترار... وكله، كله درجة واحدة، اللهب الحارق المحرق درجة واحدة واللون، والخلائق تتحرك بلهيبها وحمآتها هانئة راضية... غاضبة ساخطة، لا تدري أنها محمرة محترة، وأن ذلك بسبب ذلك... وبونا آدم... بونا آدم... بونا...

ما يكاد الهبطي يبدو من بعيد، حتى يتعالى الهمس والنداء، ويخلي الصغار له الفضاء والنساء... والرجال بدرجة أقل... إذا دعت الضرورة أن يصادفوه فهم لا يتحرجون... أما الباقي من الخلائق فتملؤهم منه خشية ورهبة من بعيد، ولا يغريهم إيقاع الترنيمة العتيدة التي لا يعرفون كنهها إن كانت تمجيداً أو تحقيراً لأبي البشرية... أو تسبيحاً...

لا يدرون إن كانت ألفاظها تنتمي إلى عالم خفي أو منظور... من كون إنْسي أو جني... يغريهم شيء آخر خفي ظاهر في مشهد الهبطي وموكبه : طفولته الدائمة... براءته العادية... إنسانيته الطبيعية أو حيوانيته العفوية أو إنسانيته على النحو الذي هي عليه... عريه... عريه الطفولي ونظرته الطفولية وملامحه... لا مبال بنفسه ولا بما حوله إلا على النحو الذي يريده أو يحسه... هل يحس بشيء ؟ عري شبه كامل في حرّ الصيف وقر الشتاء... ستر عورة لا يكاد، من فعل فاعلي خير، ما يفتأ يتكرر والهبطي لا عابىء ولا مهتم بذلك... بماذا يحس ؟ يغضون عنه أبصارهم أو يتطلعون خفية أو تهز بعضهم أريحية يلوون بها، أي شيء على وسطه، أو يرمون شيئاً على كتفه لحمايته وستره، غير عابىء يمضي... غير عابىء يقف... غير عابىء يستسلم أو يسلم نفسه لحركات فاعلي خير... لا ينم عن شيء ويمضي... سرعان ما يعود حاله إلى حاله فيما عدا أقل الستر... أقله الأقل...

بونا آدم... بونا... آدم...

مضحكة ألسنة الخلق في احمرارها اللاهب الملتهب ذاك، وجميلة هي بما تثيره من ضحك مضحك... حمراء في احمرار في أحمر في أحمر... وفي تقافزها الأحمر وأصواتها الحمراء... جميلة هي، هذه الدنيا... هذا اللون الخالد... مشهد مترامي الأطراف في احمراره

وحمآنه... أشباح تتحرك محمرة في احترارها... تتحرك على أطراف أو دوائر، تحمل أو تدفع أو تمسك أو تلتهم... تصوت أو تزفر... أو تشهق أو تصفر... كله... الكون كله أحمر في أحمر في أحمر...

دكة تحت قوس درب الأحباس من رأسه أو مدخله العلوي، شكلت مستقر الهبطي... مستقر عريه الطفولي... في الليالي القارسة والقائظة على السواء... ليسلمه الصبح الملون بلون واحد شامل كامل إلى سعيه المعهود، يتملى مشاهد الدنيا والخلائق في ألوانها الرهيبة الخالدة البدالة...

كثيرة هي الأيدي، قبل الألسن أو بعدها التي امتدت بحركة مخطوفة سريعة باتجاهه، في انتباه منه أو غفلة، لترمي على كتفه معطفاً أو مئزراً، ستراً ما، أي ستر ساتر... وسرعان ما تلتهب ذاته، تحترق تحت حمأة الساتر، مهما كان لون اليوم أو لون الصباح... كل لون رغم مظهره، يكون في جوهره حارقاً محرقاً بمجرد ما يلمس جلده ستر ما... كل شيء يتحول إلى اللاهب الملتهب على جسده، فينفضه عنه... يرميه مكتفياً باحمراره واحتراره الذاتي الأصيل... تاركاً بقية الخلائق إلى ستائرها وسواترها، محمرة محترة بما يحتويها وتحتويه... احمرار في احترار في احمرار... رعب حقيقي والتهاب حقيقي يصيبه، يحيل لونه، طبعه من مجرد لمس الستر أو الغطاء... لا يفهم ولا يدري لماذا لا يدرك الخلق حوله ذلك... لا يدري إن كانوا في غفلة أو يقظة أو حلم... لا يدري ـــ وهو بالذات الذي يريد أن يفهم ـــ سبب احمرار الخلق فوق احمرارهم العادي، وفوق عدم شعورهم بذلك، أو قدرتهم على تحمل ذلك إن كانوا حقاً يشعرون... لا يدري كيف يفهم حرصهم على إضافة أحمر إلى أحمر... ولهيب إلى لهيب... نار إلى نار...!

أيدي كثيرة امتدت إليه كما امتدت إلى دكته ومستقر طفولته الخالدة البريئة، عشه ومسكنه تحت قوس الأحباس العُلْوي... أيدي معتنية كثيرة نظفت وفرشت... ووضعت أغطية... عجيب... كل ذلك كان يلهبه، يثير حساسية كيانه كله... كل ذلك يحرق جلده حتى العظم، يثير طبعه، يثير لونه، يحيله إلى لون لا يعرفه ولا يتعرف عليه من ألوان نهاره التي يعرف جيداً، يعرفه وتعرفه، لا تتزاحم ألوانه، ولا تتداخل، وإنما تتبادل الأدوار، لكل لون واحد منها يومه أو أيامه... لكنه يأتي لوناً واحداً شاملا كاملا... وألوان ليله الذي يراه دائماً بلون مختلف عديم الانتساب... لا لون... هكذا لا يطيق الحركة في الليل... الألوان... هكذا تتبادل ألوانه دون أن تتداخل مطلقاً... هكذا يحترُّ ويحترق تحت كل ما يلمس جلده، هكذا تمتد أيدي الخير... يحس بها، بلونها القوي لترمي على كيانه ما لا يحتمل أو يثبت فلا يتبقى غالبا إلا أقل ما يلف على وسطه لفّاً... هكذا تمتد أيدي الخير، يعرفها بلونها القوي إلى مستقره، تنظف وتفرش وتغطي... لكنه سرعان ما ينفض عنه وعن مستقره كل ذلك بمجرد حصوله... ولا يملك إلا أن يتألم ألماً أحمر يُبكي ويضحك... وكله أحمر في أحمر...

الأطفال، أولئك المتعالمون، يشرحون للأجهل منهم والأصغر خبايا الطبيعة وأسرار الكون والقيم، من مشهد الهبطي وسلوكه، بعض ذلك زُودوا به صدفة أو قصداً، وبعضه الآخر زوّدوا به أنفسهم وغيرهم عن صدفة أو قصد كذلك... وهو يمر تحت مجاهرهم الدقيقة الرقيقة... من بعيد ما دام أغلبهم يفر من طريقه... شرح ينبهر به السذج الأصغر، ويبالغ به الشطار الأكبر في كشوفاتهم في مجاهيل الكون الهبطي المتحرك أمامهم في كامل طفولته البريئة الخالدة...

بونا آدم... بونا .... آدم...

تتحرك الأقدام منه على الإيقاع الرتيب في ترنيمته الحازمة، مارش عسكري على طريقة الهبطي، واجب وأمر بالحركة ونوعية الخطو، أو هو تمرين واجب مفروض يؤديه الهبطي طول نهاره، مهما كان لون النهار، لا يتوقف عنه إلا عند ضرورة ما، وليبدأهُ من جديد...

بونا آدم... بونا... آدم... بونا...

في زحمة السوق، يُخلّى على الدوام ممر أحمر، أو بأي لون آخر كامل شامل من ألوان الكون اليومية لخطوات الهبطي، لا أحد يزاحمه أو يحتك به.. مواقع قدميه، ترسم طريقها المعتاد بوضوح، هي أيضاً لا تكاد تنحرف عنه... لا تستطيع... ممر اللون كما تراه واضح مستمر، يقودها وتتمسك به باستمرار واستقرار... هكذا كل يوم تسير به الخطوات يسير بها، بمنعرجات ومحطات وقوفها..

خبز أحمر يلتقطه من بائعه بكل تهيب واحتياط من مزيد احمرار واحترار... مهما كان حبه للون اليوم الشامل الكامل، مهما يكن إدمانه للون الممر المرسوم بترنيمته وحزم إيقاعه... مهما يكن لون اليوم الذي يعشقه ويهواه ويراه دون غيره أو مع غيره، مهما يكن من ذلك، فهو أبعد ما يكون عن زيادة اللون... زيادة احمرار في احترار... إنما يلتقط الخبز من بائعه دون زيادة أو نقصان...

البائع نفسه بألوان حمراء ملتهبة فيه ومنه... ألوان اطمئنان واعتياد وخير وإيثار... يضيف إلى ما يلتقطه الهبطي شيئاً آخر... لكن هذا يخشى كل مزيد من هذا اللون الحارق الملتهب الجميل في كماله وشموله، فيما يعرف فيه كل شيء من ضاحك مضحك... فلا يأخذ إلا ما يأخذ...

تتتابع خطوات الهبطي في طريقها المرسوم مخترقة السوق إلى طرفه،

متوقفة بتردد بين نظره إلى قطع السمك الحمراء في مقلاة مولاي البهجة، وبين الأدخنة الحمراء المتصاعدة إلى عنان السماء من أسياخ دسمة لدى محبوب الشواي... حمرة البهجة أم لهيب محبوب ؟ لهيب محبوب أم حمرة البهجة ؟ كله أحمر في أحمر في احترار مُحترّ... كله يلون يومه الشامل الكامل...

بونا... آدم... بونا... آدم... بونا...

ترسم القدمان طريق طفولتهما المعتاد، بكامل لونه ومحطاته... الوقوف أمام مولاي البهجة ومحبوب الشواي وسي عبد الله الخباز... كل يفهم واجبه بعقل أحمر، وبابتسامة وقابلية وترحاب باللون نفسه...

وتمضي الخطوات في طريقها محافظة على إيقاعها بعزيمة وانضباط...

بونا... آدم... بونا... آدم... بونا...

15

أزاح العسلي طربوشه الطاسة عن رأسه إلى الوراء، ومسح جبهته ومقدم رأسه بمنديل... متحاشياً أن يتعرى كل رأسه مرة واحدة، فتثور حساسيته القوية للصداع، تعتريه كلما عرق وتعرض للبرد... ولا برد في هذا الجو الحار إلا حساسيته تلك...

كان حر ما بعد الزوال، يلجئه دائماً إلى ترك الدكان والالتجاء إلى الجدار المقابل، حيث يستطيل الظل، ومن هناك يظل في الفيء، يرنو إلى دكانه، ويسرع إليه كلما أقبل زبون...

مرة أخرى، أزاح الطربوش إلى الأمام هذه المرة، حتى أصبحت حافته حذو حاجبيه، ليمسح مؤخر رأسه متأوّهاً متأوحاً... حر شديد، وحساسية الرأس أشد... ودكانه في ضيقه وانعدام نوافذه، وقابليته للم حر آخر النهار، تجعله حماماً حقيقياً... جهنم ! أعوذ بالله. والمشكلة في الرأس وحده، أما ماعدا ذلك فهو يستطيع أن يتحمل ما يتحمله الناس... يحكون أنه أصيب في مناسبة ما، بكسر في الجمجمة... وهذا هو السبب... يذهبون إلى أنه أصيب في الحرب... حرب الهند الصينية... أو العالمية... أو... وأن جزءاً من جمجمته... عظم الجمجمة هو من زجاج أو من معدن ما... يذكرون ذلك ويتحدثون به... منهم من يذكر أنه رأى ذلك الجزء لماعاً تحت أشعة الشمس، في غفلة أزاح فيها العسلي طربوشه كاملا... لمحة كانت كافية لذلك

فيما يذكر من يذكر... رأى ذلك الجزء لماعاً، ويؤكد أن ذلك ما يزعج العسلي في الحر، وفي أنه لا يحتمل أن يعري رأسه أبداً !

يعرف العسلي بعض ما يتحدثون به عنه، في هذه النقطة بالذات، على الأقل. يعرف عن نفسه مثل هذه الحكايات، يروجونها في حق وباطل... تستفزه غالباً... وتضحكه أحياناً... فعلا يضحك لذلك أحياناً فيما بينه وبين نفسه... تستفزه الحكايات... لكن لابأس بها، يمكنه أن يحتملها على غيرها من أوصاف أخرى وحكايات عن رأسه وغير رأسه... مهما يكن فالقول في رأسه سيكون أكثر وأوفر، فيما لو ترك رأسه عارية، يصطاد فيها القوالون تلك الحفريات العديدة الملساء، وما تناثر حولها من شعيرات متجمعة متباعدة على أقرع شديد التقبب في قنته، قوي الانحدار الأملس... لا يثبت ولا ينبت عليه شيء.

بحركة آلية سريعة، أزاح الطربوش كله عن رأسه، وأعاده في لمح البصر، مما كان كافياً لتمر يده بمنديله على كامل قنة رأسه... بل ولتضغط عليها برهة في الوقت نفسه... في سرعة البرق... ارتاح، تأوه وتأوح كما شاءت له حساسيته وعاداته، وهو يتلفت بطريقة آلية حواليه، حيث لا شاهد ولا ناقل.. لم يره أحد ولن... وليتركهم يقولون ما يشاءون عن غير علم... قاتلهم الله، الفضوليون اللسانون...

آه، ليته يستطيع أن يعيد الكرة والأخرى في غفلة حقيقية عن الأعين والألسن... ليته يستطيع ذلك ويستمر فيه... فرغم الألم الضمني في حركته وحساسيته، فالهدوء الحاصل من حكه وضغطه ممتع لذيذ، يكاد يشبه في تصوره لسعة خفيفة محدودة بحذق ماهر من

فلفل الطعام... أو أي شيء شبيه يحمل لذة ومتعة مع ألم خفيف بعيد... هو عينه إحساس اللذة والمتعبة... يا ليته يستطيع أن يعيد الكرة ويعيد حركته في أمن واطمئنان إلى نفسه، فمع هذا الحر والعرق تشتد شهيته لحك رأسه... أو... للمسح عليه مع ضغط معهود مدروس بالمنديل.. هنا وهناك...

ارتاح العسلي بفعل الفيء... يرنو إلى الدكان المقابل.. على أتم الاستعداد لقطع الخطوات الفاصلة عند إقبال زبون... وإن كان يتمنى في سره ألا يقبل الآن، مع فترة اشتداد الحساسية في قنته...

رفع جلابته القماشية الخفيفة إلى ما فوق الركبتين، وجلس كالمقرفص دون أن تلمس مؤخرته الأرض متكئاً بكل ظهره إلى الحائط... تواجهه في قعر الدكان رسوم يدوية حائطية، تمثل رؤوساً رجالية مرتبة الشعر دلالة على حسن الحلاقة لدى مزين الرجال... شعار الدكان ومهنة صاحبه السابق، قبل أن يستلمه العسلي... شعار ورسوم تردد كثيراً قبل أن يمحو كل ذلك مغطياً إياه بطبقة من الجير الأصفر ظلت بقعة معزولة مستطيلة فوق بياض الحائط، تشي بما تحته من معالم شعار قديم، كما لو كانت في رقتها ودلالتها عنه غطاء شفافاً له.

كان لتردد العسلي في أن يمحو كل آثار سابقه أكثر من سبب... ثم جاءت المحاولة أكثر من دالة على تردده... كان بإمكانه أن يترك الشعار كله قائماً كما كان... واضحاً كما كان... إذ ما الفرق بين حلاق وسمسار وخباز في عرفه إذا أُخذ بالجوهر في هذه الأمور ؟ ليس هناك فرق كبير ولا كثير...

الجوهر في الموضوع، أن تكون لك نقطة لقاء، مكان محدد لزائريك

ليتبضعوا مما عندك، إذا كانت لديك بضاعة، أو بنصحك إن كنت ناصحاً مرشداً...

كان بإمكانه أن يعايش الشعار السابق... بل كان بإمكانه أن يعايش الحلاق نفسه في الدكان... يشتركان في المحل... لم لا ؟! لا مانع أبداً عنده في ذلك... بل قد يكون أفيد له ولغيره وعلى أكثر من وجه... إنما ذلك كله، كان بالإمكان حدوثه لو تصافت القلوب والنيات وأعلن الكل عن حسابه وهدفه ومقصوده... لم لا ؟! هو بالذات لا يحتاج لأكثر من كرسي إذا جلس في الدكان، بينما يغلب عليه أن يحادث زبائنه وقوفاً لفترة لا تطول أكثر من دقائق... هو بطبعه لا يحتمل إطالة الحديث بلا فائدة، إلا إذا اقتضى الحال ذلك، وقلما يقتضي... وهو غالباً ما ينهي موضوعاته مع الزبناء خارج الدكان إلا إذا اقتضت الضرورة غير ذلك، وقلما تقتضي... لكن... لكن... ذلك لا يتم أبداً...

لا تصفو النيات ولا الحسابات ؛ ودواعي الشغب كثيرة والبشر... البشر غابة كثيفة لا يعرف داخلها إن كانت له رجعة أم ضيعة وضلال..!

هكذا لم يكن ممكنا أن يشترك مع أحد، ولم يكن لأحد أن يقبل الفكرة لو سمعها منه، فكان تردده الواضح إزاء الشعار.

وزاد معه التردد أكثر، حين عول على وضع شعار له خاص به كما فعل الحلاق قبله وكما يفعل الكثير غيره... كان عليه على الأقل إلغاء الشعار السابق، ووضع شعار مكانه على واجهة الدكان، فوق مصراع الباب من الخارج : «سمسار الهناء للأملاك العقارية»، شعار طويل عريض... صالح لكي يشتغل تحته بهناء حقيقي، لكن هناك خطر

الإعلان على هذا النحو من تحصيل الضرائب التي تكاذ تحصل الأنفاس... وهي بالفعل تحصل الطاقات المفتوحة على الهواء مهما كانت سعتها أو درجتها القصوى في الضيق... بل في الإغلاق والانغلاق ذاته.... إنها جميعا بالنسبة للمحصل إمكان أو قابلية للانفتاح على الهواء الخارجي... ثم الإعلان... الإعلان العريض الفسيح الفصيح له ثمنه... الأهم في كل هذا : لماذا كل هذه الإثارة ؟ لماذا لفت الانتباه إلى هذا الحد كمن يعلم المكفوف رمي الحجارة !؟

المهم في كل هذا، أن يفهم الناس بأقل إثارة ممكنة، أن هنا نقطة لقاء حول موضوع أو بضاعة أو حرفة... فقط لا غير... والعادة هي التي تخلق المعرفة... عادة اللقاء هي التي تعرف وتعلن وتُعلم... دون إثارة مستفزة ودون فضائح... المهم... المهم أن يفهم الناس في الجِوار القريب أن هنا سمسار... والباقي يأتي... العادة تخلق الحركة والمتحرك... لذلك كله كان يكفي... وقد كفى فعلاً... كتابة كلمة واحدة : «سمسار» وبخط رقيق بالطباشير على لوحة مصراع الباب من الداخل فقط... خط أبيض على لوحة الباب الزرقاء... بوضوح يظهر الأبيض على الأزرق كلما كان الباب مفتوحاً... وبوضوح أيضاً يغيب الأبيض على الأزرق كلما كان الباب مغلقاً... فقط... لا غير... والسلام... ولا داعي للضجة والفضائح والإثارة والإعلانات الصاخبة... سمسار الهناء للأملاك العقارية ؟! يا أخي سمسار وكفى... سمسار والسلام... كلمة واحدة : سمسار... سمسار وأنت واقف... وأنت جالس... قائم أو نائم... سمسار يا أخي كما تشاء وفي أي وضع مريح لك... وبهدوء وهناء حقيقي...

16

أوشك أن يستجيب لحساسية رأسه، لداعيها الملح على يده... حين تجمدت حركته وهو ينظر ظهر امرأة تقف بمواجهة الدكان، تتطلع إلى داخله بحثاً عن صاحبه في أركانه... تحفز العسلي للوقوف، فقام وأرخى تلابيب جلابته مثبتاً قدميه في فردتي بلغته...

استقام وخطا خفيفاً نحو المرأة متهللا، أجفلت المرأة وهي تفاجأ به من ورائها. لابأس، الحر. لابأس، تفهم الوضع وهو بدوره يعمل على أن تفهم، لابأس، يرحب بها ويسأل، الدنيا حر شديد في المحل داخل الدكان. سألته المرأة عن سكن من غرفتين، مستقل أو مشترك في مدخله، لا يهم.

كان ينظر إليها متطلعاً إلى سحنتها، مستقرئاً ملامحها وهي تسهب في وصف الطلب والمطلوب، تبدو في ذلك مستعجلة أو تشعر بذلك كأنها مطرودة أو مطاردة... امرأة نَصَف... أرملة تكون أم مطلقة أم ؟ علامات عناية لا تخفى عليه... عناية بمظهرها على هذا النحو لا تعزى للمجانية... تبدو قصيرة بالنسبة إلى قامته الفارعة المديدة... إنها من هذه الناحية ككل الناس أو كالكثير منهم بالنسبة إلى امتداده العمودي في الفضاء، كأنه يهم بأن يجني نجمة... لعله إلى العمالقة أنسب... لا يهم... هي إذن امرأة متوسطة، وإن بدت قصيرة. لم يرها من قبل ولا هي تعرفه، لكن من يدري ؟ قد تعرف ولا يعرف !

تسأل المرأة، بل تؤكد على الغرفتين، أن تكونا مشمستين ولا مانع

إذا كانتا مشتركتين في مدخل واحد مع الجيران أو... حتى في صحن واحد مع الغير إذا دعت الضرورة و لم يكن ثم بديل أو اختيار ! الحرّ ألهبها بلاشك كما ألهبه، ويبدو أنها سارت كثيراً في هذا الجحيم قبل أن تصل إليه... تُلوح بيدها حذو وجهها جلباً لحركة هواء منعشة في هذا الركود الساخن... لتدخل، إذ يمكنه أن يقدم لها ماء بارداً من الخابية الطينية الوفية في الداخل... ولو أن الدكان اللعين جماع للحر لمام خانق... خاصة... خاصة بعد الزوال، لتدخلْ، لم لا ؟ نعم، الغرفتان، هناك إمكانات عديدة، الاختيارات وفيرة في دروب قريبة إلا إذا كانت تفضل درباً معيناً... متأكد هو من أنها تظهر الجدية. يقرأ ذلك في حركتها وهجتها... ربما تبالغ في الجدية...؟ بعض المبالغة فيما يبدو، وعليه أن يفهم لماذا كل ذلك... مهمته دائماً أن يفهم قصد زبونه أو محدثه، قصده بالضبط لا مجرد ما يظهره فحسب... هل هي تتصنع ؟ ما المقصود إذن ؟ عليه أن يفهم، وقبل ذلك سواء معها أو مع غيرها، لا يمكنه أن يفيد أحداً حتى ولا نفسه... تتصنع عليه الآن ؟ وعليه هو بالذات ! مع من هي ؟ جادة فعلا، هذا واضح، لكن أهو السطح أم جوهره ؟ تسأل عن الثمن ؟ الثمن... الثمن ياللاّ... يا مولاتي ياللاّ... ما يكون إلا ما يرضي الخاطر !

كان يبتسم بصدق وبدافع مهنته... مهنة إذا كانت تتطلب زبوناً، فهي تتطلب المرح والابتسام والترحاب، وزبون جديد يكون دائماً أدعى إلى مثل ذلك... الجديد جديد على كل حال، لأنه لا يعرفك... فمرحباً والغالي يرخص وما يكون إلا ما يرضي خاطر للاّ..!

لابأس، لابأس، وحتى لو كانت المرأة دون ما يريد، فهي زبون جديد، وطريق إلى مثله... هذا هو الإعلان كما يفهمه ويحذقه، ليته يعرف بالتأكيد اتجاه الرياح الحقيقي... رياحها... وإلى أي حد هي

صادقة كل الصدق في إلحاحها الظاهر على الغرفتين بدون غمز ولا لمز أو رمز... وعلى الثمن ومطلع الشمس من النافذة والموقع والجار... أم أنه متخلف إلى هذا الحد... وأكثر من هذا الحد دون أن يدري ؟! ربما... من يدري ؟ عالم جديد... برموز وألغاز جديدة..؟

ظلت تبدو جادة مبالغة في اتجاهها، متجاهلة أو لاواعية باستفساراته العديدة الملتوية بعض الشيء... بعض الشيء... هو من هو وهي امرأة مهما كانت وعليها أن تظهر باطنها الحق حتى لا يخطو خطوة في الفراغ... على كل حال... لا تخفى عليه ولا عليها طبعاً عنايتها الواضحة بنفسها، عناية معقولة بنفسها... بالمظهر... عناية خفية خفيفة لا تستفز ولا تخفى كلياً... هذه العناية بالذات تحتاج إلى متعهد... أي أن لها متعهداً يكون بالفعل حياً ظاهراً أو مستتراً... لا يخفى عليه ذلك ولو أن خروجها في هذا الحر، بهذه اللهفة... وحدها... أمر محيِّر... مع ذلك... لكل جديد جديد ! وارتواء الحياة يبدو واضحاً من عينيها الهانئتين... الباحثتين عن هناء غرفتين... والثمن ؟ الثمن مناسب، الغرفتان الهانئتان بثمن مناسب... وحسب مواصفات الطلب... والغالي يرخص !

بدأ يحس بأنه يجب أن يحسم الأمر، ويمارس دوره الخبير، رغم أنه غير متأكد تماماً من موقع قدميه كل التأكد، وضع قلما ارتضاه أو يرضاه لنفسه، ومغامرة قد تكون غير محسوبة أو أن حسابها غير مكتمل ولا مريح لحد الآن؛ إذ لا يستطيع أن يفرض شروطه وظروفه... تضعه في وضع الطالب، ويفضل أن يكون في وضع المطلوب... مخاطر المهنة هي هي في كل مهنة تتعلق بزبون، وترتبط بظروف... وحسب الظروف...

ويقف بجانبها رجل ! يصل لتوه، كأنما أنزل إنزالا أو انشقت عنه

الأرض... يقف إلى جانبها هانئاً مستأنساً بحاله... كأنما... كأنه كان يرافقها وتخلى عنها... تخلف أو اختلفا في الاتجاه... وتأخر عنها بعض الشيء، لشيء ما، بشيء ما، سبب عارض... أو طارىء... أو... السؤال نفسه يبدأ من جديد. الاهتمام نفسه والجدية الكاملة، الرجل بالإلحاح نفسه عما ألحت عليه المرأة قبله... يبدو أقصر منها بعض الشيء ولا حاجة إلى أن يقارنه العسلي بقامته... أقصر وتبدو له عليها دالة واضحة... دالة العشرة في كل الأحوال... نبرات ذلك ونظراته لا تخفى على أحد... وعلى العسلي بالذات... من يكون ؟ من يكونان ؟ السؤال عن الغرفتين المستقلتين وعن الشمس كيف تطل ومتى تغيب... وعن الثمن وأين ؟

انبرت المرأة تشرح للرجل ما اكتسبته من معلومات قبله، تشرح له ذلك مرحة كأنها تعلن تفوقاً أو سبقاً، تؤكد له وجود الغرفتين بالشروط المطلوبة... والغالي يرخص ! والله العظيم !

ظل العسلي مقطباً مطبقاً... واجهت ملامحه الجامدة المتزمتة الرجلَ أمام ما تقدمه المرأة من مشجعات مغريات عن الغرفتين والثمن والموقع... وكل شيء... كل شيء... تساءل الرجل إن كان من الممكن زيارة المسكن والمعاينة لإنهاء الموضوع مرة واحدة... ليكن الأقرب إلى هذه النقطة... لابأس مادام الخيار ممكناً أو إن كان هناك خيار، فالأفضل أقرب غرفتين بالمواصفات المطلوبة إلى هذه النقطة... هذه النقطة مركز... لم لا ؟

ظل العسلي مقطباً في جموده، المرأة ماتزال تسهب في الوصف والتشجيع، والعسلي في صمته وجموده، ثم أدار رأسه في رصانة مبالغ فيها أو مدروسة منه، ليقول إن موقع المسكن بجوار من لا يحتمل نأمة من ضجة... أبداً... أبداً...

ابتسم الرجل ابتسامة رضى واطمئنان، ويبدو أن الكلام صادف هواه. هو بالفعل يبحث عن هذا، وهو المطلوب، من يحدث نأمة أو ضجة ؟! هو وزوجه ليس لهما ذرية، لحد الآن... ومعهما أمه الكفيفة وهي لا تثير ضجة ولا تحتملها، ومن أجلها بالذات إحدى الغرفتين... تماماً... هذا مناسب وهو المطلوب لدرجة أن الرجل كان سيشترطه بنفسه لو لم يسمعه، ولو لم يظن أن زوجته قبله ربما تكون قد اشترطته أو تأكدت من وجوده... والثمن ؟ تبقى المعاينة والثمن... وهيا...

ظل العسلي في جموده وهدوئه المقطبين... فالمسكن لا يصلح لأم مكفوفة أو غير مكفوفة... ثم إن ثمنه فوق كل احتمال، وصاحبه لا يريد كراءه !

بهتت المرأة وهي تنظر إلى برود العسلي وقامته تزداد استطالة أمامها، ويده تترنح في حركة غريبة حول طربوشه دون أن تنجز شيئاً !

ألم يقل لها ؟ بلى. هل قال لها فعلا ؟ ربما، ويكون بذلك قد نسي توصية صاحب المسكن... ألم يقل لها ذلك حقيقة ؟ كان إذن قد نسي، والآن يتذكر... أي والله... سبحان من لا ينسى، الآن فقط يتذكر ذلك... والكلام كثير في هذه المهنة، والناس يقولون ثم يتراجعون، ولا يعرف المرء من الباحث بصدق عن كراء حقيقي، ومن هو مجرد مستطلع لاهٍ يضيع وقته ووقتك ! وأرباب الأملاك أنفسهم لا يعرف المرء أيهم يعرض ملكه للكراء، وأيهم يستطلع السوق أو يزايد على ورثته أو شركائه ! الكلام كثير في هذه المهنة المتعبة... ألم يقل لها كل ذلك... سبحان من لا ينسى !

— يعني ؟

هو ما قال العسلي، سبحان من لا ينسى !

ظلت المرأة مبهوتة... مشدوهة أمام طلاقة الرجل وبيان لسانه...

ظلت مبهوتة أمام ما ترى من موقف، وما هي فيه من موقف، وقد تركز بصرها ببلاهة وفضول على حركات العسلي الطائشة من يده حذو طربوشه... دون شيء... حتى جرها زوجها جرّاً فانسحبت وراءه ووجهها مايزال يتلفت مستطلعاً في فضول باتجاه العسلي !

رنا العسلي إلى الاثنين يغادرانه. المرأة كالمجرورة جنب زوجها، حركاتها تدل على أنها لا تطاوع في السير، لا تفهم ما حصل، وأكثر من ذلك غير مصدقة لفرصة تفلت منها بهذه السهولة والغباء... رنا إليهما، يتابعهما يبدو من حركاتهما نشوب معركة كلامية... قد تلوم زوجها على أنه لم يعرف كيف يقتنص الفرصة التي كانت مواتية لمسكن مواتٍ، لاشك أنه كذلك سبّبَ أو فعل ما أفسد تدبيرها، لعل الرجل بدوره يلوم المرأة على غبائها، لم تفهم الكلام، وكلام السمسار دائماً واضح : تلك مهنته ومهمته. ألم يكن كذلك فيما فهم هو منه ؟ إذن العيب في فهمها... يتابع العسلي من موقفه بغير قليل من الغيظ... لتكن معركتهما ما تكن... هو الذي أضاع وقتاً وجهداً... بدت له المرأة غير مفهومة تماماً، وكان عليه أن يناور ليجس نبضها جساً حقيقياً... أما الرجل، بهيئته المنفرة فلا يترك فرصة لأي خيار... فيم يمكن أن تفيده ملامح الرجل المتوترة ؟ أيصلح لنقل حديث أو تبليغ أمر أو ربط علاقة ؟ لا، بعيد... بعيد... سحنته لا تعطيه نصيباً ولا دوراً لذلك، للمرأة بدونه ربما كانت فيها بعض ملامح... لا يهم... لا يهم...

ويتأوح العسلي مُزيحاً طربوشه مائلا على حافة رأسه بنظرة احتياط حوله ويتخذ مجلسه بالداخل مطمئناً على نفسه.

17

أخخ... أخيراً تأوه العسلي وتأوح... تروّح وهو يجد الفرصة... كل الفرصة، يزحزَح فيها الطربوش مجرد زحزحة يمرر بها منديله على رأسه بحركته الضاغطة على قنته، غير مكترث بمن يمكن أن يراقب من عيون فضولية، وهو في قعر دكانه... حركة سريعة منه على كل حال... وهو مطمئن هانىء.

نصف ساعة... بمثابة قرن كامل من معاناة حساسية مقيتة تَخِزُ كالإبر تحت حزام الطربوش... لينبت بجانبها زوج...! غرائب... غرائب يا أخي والله، غرائب وعجائب... يا أخي خذ بيدها... خذها من يدها... حاذِها... ماشِها..! عجائب الزمان والله ! عجائب : إما بهرجة رجال ونساء في الأسواق أمام الأنظار، وإما تفريط كامل بتركهن يتسكعن في الأزقة، أو يتسكعون وراءهن.

أخخ، يا أخي اتركها لحالها، وسر في حالك... والتقيا معاً في المنزل ليلا، أو كما يحلو لكما وحيثما تحددان ! هذه أو تلك... غرائب... يقول أو تقول هي : أم ضريرة... وبلا أطفال... وهو المطلوب... تماماً هو ما يطلبان... والثمن يرخص... الغالي يرخص... أم عمياء وهو... هو العمِي الأكبر !

أخخ... كان العسلي فعلا يغلي... كان ثائراً حقاً لما وقع، ولما يعاني

من حساسية. وتحول إلى الفيء من جديد، مرة أخرى يجمع تلابيب جلابته، ليقعد شبه مقرفص يضغط بظهره على الحائط، بما يجعل عضلات ساقيه النحيفتين تستعرضان وتظهران أشد اكتنازاً وصلابة على حافتي كمي سرواله القندريسي... يرتاح إلى حين...

ويملأ عليه فتحة الباب شبح صديق زبون... أهلا... أهلا بالأخ العزيز... زارتنا البركة... تفضل... الدنيا بردت ولله الحمد...

يسوي طربوشه من جديد، لابأس فالزائر مألوف ولا كلفة بينهما، يسأل صاحبه إن كان يرغب في شرب شيء بارد عدا الماء... مونادا من المقهى القريب... الجيارة وإن كان لا يحبها ولا أصحابها. لابأس، الماء، الماء، هذا يكفي وخير ما يشرب ويطفىء العطش والحر... هل يطفأ الحريق بالمونادا الملونة المحلاة أم بالماء الخالص ؟ كله نار وحرارة، حرارة بني آدم في القيظ يطفئها الماء والماء وحده.

يناول العسلي صاحبه غراف ماء من الخابية الطينية، ويقبل عليه متهللا غامزاً بطرف عينه :

ـــ إيوه، أش عندك ؟

18

عندما بدأت الحركة تدب في الدار، دار المخلوفي المعروفة، توقع الناس أن تدب الحركة في الزنقة بكاملها، كالعهد السابق منذ قرابة عقدين من السنوات، إذ كان المخلوفي مقصد أطراف لا يدري أحد من أين تأتي، وإن كان العارفون بأرقام السيارات خصوصاً، ينظرون إلى لوحاتها وهي متراصة متزاحمة على منعرجات الأزقة المجاورة، لينسبوها إلى مدن كثيرة منتشرة عبر البلد، وخارج البلد من أقاصي العالم... حركة ما كان أحد يظن إذ ذاك أنها ستتوقف... وكانوا يعلقون بأن مكانة الرجل الراسخة في ميادين عدة، تجعله مطلوباً لكل استشارة... الرجل كان له مكان في السياسة والمقاومة والوطنية والعسكرية والمال... يقال إنه كان برتبة ونيشان في معارك نابولي في الحرب العالمية، وأن أمواله صفيت بطريقة أو أخرى من قبل المستعمر، وبسبب مساعداته للوطنيين... سُجن إذ ذاك وفقد إحدى ساقيه أثناء ذلك أو إبان الحرب... المعلومات متداخلة وبعيدة عن الدقة، ويقال إنه فضل الهناء والقناعة على النحو التي يريد هنا في الدرب والدار البسيطة العائدة لجدوده... لا يبغي من دنياه شيئاً مكتفياً بإيراد منتظم بسيط، يؤول إليه من نشاط ما، لا يؤكده أحد، رضياً بحاله.

بعضهم كان يقول إن ثروته، أو بعضها المتبقي، يوجد خارج البلد،

في أوربا مما بعد الحرب... يذهب البعض إلى أنه كنز من كنوز الحرب تركه هناك لدى امرأة تزوجها وأولاد، وهو من هناك يغرفُ بين الحين والآخر، أو تأتيه إرساليات منتظمة... بعض آخر يقول إن الكنز ليس كذلك حقيقة... بل هو أنقذ شخصية عالمية من موت محقق إبان الحرب مما تسبب في فقد ساقه، وعن طريق مكافأته الكبرى والمستمرة بوصية قانونية، يستطيع أن يعيش عيشة الأغنياء هو وذريته إن كانت له ذرية... لولا أن الرجل متعفف زاهد قنوع يكتفي بالستر وبالقليل.

وعندما كان مخاطب المخلوفي ينظر إلى قدمه المبتورة إلى ما فوق الركبة متسائلا، أو غاضاً في حركة أفصح من كل سؤال، كان الرجل بلا مبالاة يقول ضاحكاً رافعاً إحدى عكازتيه إلى السماء : إنه في الجنة إن شاء الله، يبعث قويماً وسيماً بقدمين سليمتين... وفيما عدا ذلك لا يهمه سقَط الدنيا من مال أو جاه لا يعيد إليه ظُفْراً... قلامة ظفر مما فقد... ولو أن السائل ألح وحدد في السؤال وكان له من المكانة ما يسمح له بذلك، لو ألح وحدد سؤاله عن طبيعة إصابته وفقده ما فقد، لما ظفر بأكثر من ابتسامة هناء عريضة وتكرار عام لقول يحمل كل شيء : الكلام كثير والسكوت أحسن... ثم ينهي بآية أو حديث أو حكمة : «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا...» «لا تسألوا عن أشياء...».

في غمرة أحداث كثيرة متداخلة ملتبسة في الأذهان، كان الزوار يزدادون على دار المخلوفي... وكان كثيراً ما يشاهد مع بعض زائريه أمام الباب، أو عند مطلع الزنقة، يودع أو يستقبل... أو يكمل ما لم يكتمل من حديث داخل الدار... الدار، هي نفسها دار الإرث والجدود، لم يتغير فيها إلا تحويلات بسيطة أدمجت بعض الغرف في بعض لتصلح وتتلاءم مع نشاطه وزواره، ولا يملك الناس إلا أن

يتحدثوا عن الرجل من خلال ما يرون، من أنه عائد لا محالة إلى واحد من اثنين؛ مجاله السياسي العتيد، أو عودته إلى ما يزعم من أملاكه وذريته خارج الوطن...

كان الناس في الدرب مشغولين بدار المخلوفي، كما هم مشغولون بملامح كثيرة حولهم، يمضون بها وقتهم في السمر بين الجيران أو على طاولات اللعب والاستئناس... لذلك سرعان ما تهامسوا بأن ما قدروه كان حقاً صدقاً في مآل المخلوفي...

الناس رغم كل تقولاتهم فوجئوا فعلا، بعد أن بلغوا حدّ اليأس في أن يحصل تغيير في دار المخلوفي، بعد أن ظل الرجل محافظاً على سلوكه وحركته وسكونه ومكانته... لا يزيد على وقفته المعهودة مع زواره المقبلين والمرتحلين، أو على جولته القصيرة في الدرب وفي الأزقة المجاورة، والتي كانت تنتهي به دائماً إلى مقهى الجيارة، حيث يحلو له أن يناوش بعض الجالسين بكلمات ضاحكة عابرة مع التحية وهو واقف على ثلاث... وقلما يقبل الدعوة لتناول شيء... ثم ما يلبث أن يتحرك حيث تطول وقفته حقاً، وبعض الشيء أمام دكان المعلم حمو الجزار، يوصي بشيء لداره، يحمله صبي الجزار أو يحتفظ به هناك لحين قدوم «البنت» من أجله... بنت المخلوفي الذي لم يكن له عقب من زوجته الصالحة خضرة، وإنما هي بنتهما بالتربية والتنشئة، ربياها كغيرها فهي تخدمهما وتعتني بهما، بقدر ما هما أيضاً يرعيانها ويفرغان عليها من حبهما ويمحضانها كغيرها فيض حنانهما، حتى يكتب لها أن تخطب أو تخطف منهما على الأصح بزواج يجهزانها له كما جهزا غيرها... لتخلفها أخرى في مكانها ومكانتها... وكانت الصالحة خضرة مثلها مثل المخلوفي زوجها، قد اطمأنت إلى سير حياتها على هذا النحو، بعد أن أمضت فترة هامة من عمرها متلهفة على الولد

والإنجاب... لم تترك ولياً ولا ضريحاً طلباً لذلك دون جدوى،... فلم تجد إلا البنات على هذا النحو من الاحتضان، يمتصصن وافر ما يختلج بين جوانحها من رفق حنو وحنان...

أما المعلم حمو الجزار، فكان معتزاً كل الاعتزاز بحظوته لدى المخلوفي... المخلوفي علم الدرب، وعلامة عليه... ومع طبيعة المعلم حمو الميالة للحديث، كان يجدها فرصة ليسأل عن التباسات كثيرة تحيط بكل ما يقال عن المخلوفي... ثم يروي له ما يروج من أجوبة على كل الأسئلة... أجوبة مضخمة أو مغلطة أو متخيلة... بعيدة عن الصدق والحقيقة في جميع الأحوال... بيد أن ما كان يسمعه المعلم حمو من صاحبه، لم يكن يشفي غليلا، بل ربما كان يزيد الفضول والتطلع، وإن كان المعلم حمو يتظاهر للغير بأنه يفهم الكثير من أمور المخلوفي ولا يبوح...

هكذا... ويأتي الغياب المفاجىء للمخلوفي بدون إعلان سابق أو وداع لأحد... مما بدا وكأن الالتباس انْقشع عن موضوع الرجل... وكأن بعض التوقعات قد صدقت... تأكد ذلك عندما غابت الصالحة خضرة ومعها البنت بعد أيام معدودة، من غياب المخلوفي... غابت في سيارة فخمة نقلتها إلى حيث لا يدري أحد. وقال البعض، إن الرجل اقتنع أخيراً بأن يعود إلى سالف نشاطه الذي هجره منذ ربع قرن وأنه الآن في مكانة رفيعة... وكان المعلم حمو آخر من يتحدث ويُستمع إليه في هذا الموضوع، وقد أضحى دكانه مركز حلقة المتسائلين المستطلعين، بل وأصبح المعلم حكماً فيما يختلف فيه القوم من استنتاجات...

وقال المعلم حمو منذ بداية الغياب غير المبرر : إن الرجل كان

متضايقاً بالفعل من ضيق الأزقة هنا على زواره وقاصديه... وحين يعترض معترض على هذه الفكرة، بأن هذا لم يكن من طبع الرجل وقد اختار العيش في دربه الأصيل عن عقيدة واقتناع، وعن طبع سمح متواضع، كان يرد بثقة ربما لا يدري هو نفسه مصدرها ولا مبررها قائلا : إن الرجل أسندت إليه مهام كبيرة... ثم يتساءل مستنكراً بما يراه الوسيلة الوحيدة لإسكاتهم وإخراس فضولهم :

ــ ماذا ؟ ألا ينعم الرجل بما تبقى من عمره ؟ بما أضاع من عمره ؟

فعلا يخرس القوم، ولكن لهيب الفضول لا ينطفىء من ذواتهم، إنهم يسكنون لمجرد أن المعلم حمو طرح سؤالا يعني أنه لن يزيد معلومة واحدة في الموضوع... يعني أن ينهي الموضوع... فقط... لا غير... لا غير...

صحيح... صحيح... لكن لماذا يتم كل شيء الآن بالذات ؟ وبدون وداع أو إخبار سابق ؟

حقا إن الناس لأمر عجب... من أعطاهم هذا الحق في حياة الرجل ؟ ومن هم منه أو هو منهم عدا كونه ابن دربهم ؟

في خضم هذا... وهكذا، كانت الحياة قد دبت في دار المخلوفي، وكأنها زفرة احتضار أخيرة. دبت الحركة لا كما توقع الناس من أنها تجدد وانبعاث... بل إنها أغلقت نهائيا، تماماً، بعد مغادرة الصالحة خضرة... وبيد الصالحة خضرة أدير المفتاح... وعم ذلك الركن من الدرب، كما عم الزنقة بالذات هدوء شامل.

لا أحد يفهم، ولا مجيب من أحد، المعلم حمو وحده ظل يتلقى أسئلة الناس، أسئلة سرعان ما تباعدت وتراخت فتراتها، فلا أحد يحل

لغز الرحيل المفاجىء أو يريح نفسه من موضوعه... وسرعان ما ترامت الإشاعات متقاطعة ومتعارضة فيما آل إليه الرجل، أحياناً ترقى به الصورة إلى أعلى حال، وأخرى تنزل به إلى أسفل الدرك... هنا لم يعد المعلم حمو مصدراً لجواب ولا مقصداً بسؤال... كل يجيب نفسه ويسأل ذاته... وحدها جدران الدار فيما يبدو، تكون قد التقطت حقيقة الأمر، ووحدها لن تبوح به.

19

في مقهى الجيارة، تهب نسائم الأخبار، لا أحد يعرف مصدرها أو يبذل جهداً للتحقق منها... المخلوفي شوهد بسيارة فارهة فخمة وسائق... البعض زاره في قصره، في إقامة هي أكبر من قصر ! ويؤكد البعض أنه طلق الصالحة خضرة... وتزوج وأنجب... لا بل إنه هاجر إلى أوربا حيث أمواله وأولاده، هناك تزوج من جديد ! لا، لا، تزوج هنا في إقامة كالقصر وظل محتفظاً بالصالحة خضرة، زوجة وعشرة... تزوجٍ لمجرد الإنجاب... والصالحة خضرة في مكانها ومكانتها كما كانت دائماً.

يظل الحاج صامتاً... يستمع إلى ما يدور صامتاً في حيرة، فهو أقرب جار إلى دار المخلوفي... لا يعرف شيئاً عن حقيقة رحيله، ومآله، وحتى الصالحة خضرة، عندما التقى بها، وسألها قبل أن ترحل، لم تزد على أن اغرورقت عيناها بالدموع معبرة عن أنها لا تطيق فراق الدرب والأحبة والجيرة... بل لا تطيق أن تودع أحداً...

عيادي بدوره يتابع ما يسمع... ينتبه إلى ملامح صديقه الحاج التي لا تضيف شيئاً إلى كلام المعلم حمو، ولا إلى رقعة الدومينو، مأخوذاً بشروده...

يبدأ الوقت في مجاوزة العصر، ليقوم المعلم حمو لدكانه، ولكنه قبل

أن يستوي قائماً ينظر في عيون المحيطين به مؤكداً حكمته... أن المخلوفي معدن حقيقي... معدن نفيس... من أولاد الدرب المتواضعين الأصلاء، لن ينسى، ولن يطيب له مقام أو عيش إلا هنا... لا في قصر ولا في خيمة خارج هذه البقعة... وهنا بالذات... كلهم يرجعون... كلهم يضيقون بالسكن هنا وبالصحبة والجيرة، لكنهم سرعان ما يعودون... ألم يعد المخلوفي نفسه بعد غيبة سابقة، أم أنهم لا يعتبرون تلك عودة أصلا ؟!

كان ينطق بثقة واضحة المصدر هذه المرة، فهو نفسه، كان من أوائل من غادروا الدرب إلى فساحة الفضاء فيما بين المدن... ثم إلى رحابة الطبيعة بإزاء كاليفورنيا... لم يعرف كيف ينظم وقته ولا نظره ولا حركته هناك، رغم الفضاء والخضرة وزرقة السماء... ومالبث أن عاد إلى شريكه في الدكان القديم... ومكانه الحالي يراجع الشركة ويستأنف مهنته وسكنه كما كان... أم نسي القوم منه ذلك، ولم يعودوا يعتبرونه عائداً ؟!

ظل الحاج ساهماً... وقد تجاوزه الدور في رقعة الدومينو، وحل محله غيره دون أن يعير ذلك اهتماماً... ظل ساهماً شاعراً بهول الفراغ حوله... بل حولهم جميعاً، فالمخلوفي كان حقا يملأ الدرب، يمنحه ثقلا ووزناً ومذاقاً... كان يملأ فراغاً... لا لم يكن ثم فراغ معه إطلاقاً... شعوراً بالأمن كان... وبالحماية... ثم ها هو الفراغ بعده... وقبله كان مثيله أحمد رقيبة مع الفارق... رقيبة الحميم... لن يكون صحيحاً أبداً أنهم يعيشون بعد اليوم على أمل... إنهم يعيشون، تضيق بهم سعة الفراغ حولهم... تغمرهم... تخنقهم أو تكاد... أحياناً كان يبدو مبرراً وإن كان غير مقبول، أن يغادر محتاج لشغل، وطالب رزق، يغادر دون أن يقطع بهم صلة... ها هي ذي الجيارة تغص ببعض ممن غادروا

من أجل ذلك يؤوب بهم المساء... كل المساء تقريباً... يحدثون، يلعبون ويشاغبون ولا ينفضون إلا للنوم... بعضهم ممن يتعذر عليه ذلك كل مساء أو أي مساء في الأسبوع، موعده المحتوم نهاية الأسبوع، مساء السبت وبعض نهاره... قولتهم فيما بينهم، من لم يظهر في الدرب أو في الجيارة بالذات طيلة أسبوع فقد مات... مات حقّاً أو مجازاً...

لا، الأمر الآن يختلف لم يمت أحمد رقيبة... لم يمت المخلوفي... واللائحة تطول... بدأت تطول والأعمار تقصر والأفهام تعجز... ومع كل دار تغلق... مع كل جار يغادر، يتكاثف الفراغ، وسعة الفضاء تضغط على الأنفاس والقلوب...

20

كالمعلقة كان إحساسها... فقدت كل شعور بوجودها طوال زيارة السيد تلك، لم تفهم لها معنى من قبل، ولا فهمت لها معنى من بعده بالتأكيد، سمعت بملء ما يمكن من سمع، أمها تتحدث عنها، عن خطبتها مباشرة ومواجهة... عرفت وسمعت أنها تبحث عن مشير وناصح وموجه... وسمعت اسمها بكل وضوح في سياق واضح، بالتأكيد سمعت كل ذلك، لكن ماذا تم من ذلك ؟ وماذا لم يتم ؟ وكيف فهمت أمها الاستشارة إن كانت حصلت فعلا، وماذا تنوي أخيراً ؟ لماذا لا تكلمها مباشرة، وهي المعنية أولا وأخيراً ؟ وماذا لو استشيرت هي بالذات، نجاة... تسعد، أم ترفض ؟ تقبل في صمت أم تعارض ؟ ترفض حمادي ؟ ولماذا ؟

بعد الزيارة أغلق باب الموضوع... كان قبل ذلك مغلقاً إلا عليها هي صاحبة الأمر، أما بعد الزيارة، فلم تعد ترى أو تسمع تلميحاً أو عبارة أو إشارة على شدة يقظتها وتفتحها لالتقاط أية نأمة دالة، هل معناه أن القرار تم إيجاباً... قرار أمها على الأقل، يضاف إليه قرار الحاج والد حمادي وحمادي نفسه... ويضاف آخر الأمر قرار الوالد الغائب، أحمد رقيبة الذي لن يكون مؤثراً في حاله وابتعاده ولا مبالاته...؟

الحركة الوحيدة التي لاحظتها نجاة، ولا يمكن ألا تنتبه إليها هي زيارة والدة حمادي، أمي السعدية... زيارة كانت مرتقبة جداً بعد زيارة عمي الحاج، وبعد استشارة سيد السيد، ولد السيد، زيارة جاءت بعد ارتقاب طويل بل بعد قطيعة غير معهودة بين الأسرتين، أو هكذا أحست نجاة. بدت لها الفترة أشبه ما تكون بالقطيعة هي التي كانت تتوقع حركة وزيارات وتقارباً... على دفعات متتابعة ومتصلة منذ افتتاح الموضوع من قبل عمها الحاج، حاولت نجاة أن تسترق السمع والبصر، بيد أن المرأتين كانتا بطريقة عفوية وجد طبيعية فيما يبدو، تحسنان المسارة والتهامس في موضوع حيوي، جد حيوي، تكاد نجاة تجزم بأنها تدفع حياتها ثمناً لمعلومات مؤكدة عنه... محاولات نجاة وهي تقوم بالخدمة، تختلق الأعذار لاقتحام خلوة المرأتين ذهبت أدراج الرياح، لم تكن المرأتان تغيران من وتيرة حديثهما الهامس الدامس، لكنهما لم تكونا تبينان عن مخارج ولا مقاطع... كأنهما تتحدثان بضغط باطني متجه إلى الداخل كمن يتحدث مصراً على أسنانه... وربما تكملان بحركة العين وإيماءة الملامح... أية شفرة عصية ؟ ولماذا ؟

حديث المودة لا يخفى بين المرأتين، والعلاقة بنت زمان، والصداقة منذ عهد بعيد، وجوار الدرب... إنهما صديقتان زوجتا صديقين... صداقة زمان، ولا يقلل منها شيء مهما كان... الصداقة... الوفاء... ليستا ثوباً ينضوه الناس بيسر عن جلودهم... إنها الجلد ذاته وما تحت البشرة ذاتها... وأكثر من ذلك... أكثر...

مهما يكن فلا بصيص مما ترجوه نجاة، مما تسترق له وتحتال... لاشيء يند عن صوتي المرأتين... لا حس ولا نأمة تصدر عن صوان معدنهما البارد الصامت، لاشيء يند حتى عن سعدية حماة المستقبل،

وهي تقبل مودعة خطيبة ابنها المفترضة، عروستها وعروسة ابنها العزيز الأعز كما تقضي الأصول، وقبل كل شيء، أين هي الهدايا والتفكرات التي طالما قرعت سمعها وخيالها عن هذه الفترة السعيدة، فترة ما بين الخطبة والروحة... فترة انتظار سعيد من قبل العروس، ملأى بهدايا أهل العريس، فترة تنتقل فيها الفتاة من حيز التهميش إلى أن تصبح مركز اهتمام ومحور كل حركة أو حديث... لماذا إذن هذا الغموض يضاف إليه التجاهل... يضاف إليه الكثير الكثير مما تشعر به نجاة ولا تجد الفرصة للتعبير عنه ؟ أتكون في هذا مجرد ساذجة متحركة مستعجلة ؟ إذن ينقصها الكثير من الخبرة بالناس والسلوك، وتمنت لو أن زيارة من عمها الحاج تتكرر، فهو على الأقل، جدير بأن يرفع صوته بشيء ما، ثم إن زيارته إن حدثت مرة ثانية فلن تكون زيارة غموض أو فراغ... تتمنى ذلك بحرقة... فصوت أمها نفسه لابد أن يرتفع في شأن ما لتفهم منه نجاة ما يهمها... ما تريد...

راودتها أحلام المتعة والفرحة متعة فترة الانتظار والاستعداد، تلك التي ماتزال تتشوق إلى معالمها... تراءت خيالات اليقظة والمنام، تلك الخيالات التي ظلت ملجأها من حرقة الغموض والتجاهل... أحلام بهيجة سارة منعشة تناقضها صورة أحلام مضادة... وطيف حمادي ذاته، طيفُهُ الذي تشعر أنه كان مألوفاً في خاطرها وناظرها قبل ما يجري، أصبح بدوره عصياً على الوجدان، لا تلتقط له ملامح في الغمام الغائم الكثيف، لا يحل ولا يرتحل... وتعمل نجاة جاهدة لاستحضاره عله يؤنس، بل يمكنه أن يؤنس فعلا ويحادث ويحدث، لكنه يأبى إلا أن يتمرد عن إرادتها ورغبتها... تحاول أن تستبعده موضوعاً مادام لا يتمثل صورة ولا يمثل... علها بذلك تريح أو تستريح، فيأبى إلا أن يملأ عليها السمع... لماذا لا يزور فعلا وعملا... زيارة حق حقيقية

على قدمين ؟ لماذا يرفض أن يحل... يرفض أن يرتحل ؟ أي محنة وإلى متى ؟

أحياناً تشعر من شدة الضيق أنها يجب أن تفجر هذه الرمانة لتعرف ماذا يجري وماذا يدور حولها ؟ لو فعلت ذلك ماذا تقول الوالدة سليمة ؟ وكيف تستقبل هذا الموقف من نجاة العاقلة المتعقلة ؟ نجاة الأنثى الوحيدة في الكون التي تجد الفرصة لمعاينة لحظات وحالات ضعف الوالدة في معاناتها من عقوق الزوج (الوالد)... فرصة المعاينة تلك، تحس نجاة دائماً أن أمها تتركها لها عمداً، ولا تحدث صدفة... لتتدخل نجاة بعد ذلك مخففة عن والدتها مواسية بغير توضيح للموضوع والقصد طبعاً... نجاة هذه تتعرى مرة واحدة لتشكو أو تظهر التحرق والاحتراق على خبر الزواج...؟! وإزاء من...؟ إزاء سليمة التي لا تشكو أبداً، ولا تفصح أو تتبرم في الظاهر على الأقل... والظاهر هنا هو الأهم والجوهر في الحال والوضع على ما هو عليه. سليمة هذه، لا يمكن أن تقبل من ابنتها، أو لها أن تتهاوى إلى هذا الدرك، متلهفة على العرس والعريس كائناً من كان، مهما كانت الظروف.

في خضم ما هي فيه، لم تكن نجاة تجد لها ملجأ ولا أنيساً... سميرة لا تعيرها سمعاً، أبداً... أبداً... وهل تفهم لو حدثتها ؟ هل تمسك لسانها ؟ وقبل ذلك أين هي وهي المشغولة زعماً بدروسها، بينما هي في انصراف تام إلى أمور أخرى، لو كان لنجاة مزاج لعرفت كيف تعاملها عن صبيانياتها... عزيز... ذاك الذي لا يلمح له ظل... فعلا لا ظل له، تفكر نجاة في ذلك... ليس له ظل في الدار على الأقل، لأنه لا يتحرك بها نهاراً... النّهار... بطوله مغلق على عزيز النائم الغائب عن عالمه بما فيه وما عليه...

لا يبقى أحد إلا الجدران وسليمة... من إذن يستجيب ويجيب ؟ لا الجدران ولا سليمة... ومع ذلك من حق نجاة أن تتحدث ومن واجبها ألا تفتح الموضوع مع أحد !

وتبدو الفتاة مرتبكة الحال في حركتها في الدار في شغلها المعتاد، تشعر بذلك من نفسها، وتشعرها به والدتها سليمة... لم تعد في مزاجها المعتاد ولا في طبعها المألوف ولا تملك ما تفعل، إلا أن تظل مستسلمة غائبة في انتظار شيء... شيء لابد من حدوثه... شيء تشعر به يقترب دون أن تعرف كنهه، ودون أن تتحمل مجاراة التفكير فيه... من يدري ؟ قد يحصل الحدث السعيد ؟ من يدري ؟ قد ينزل الخبر البهيج.

من... يدري ؟

21

جاءت يلفها الغموض وعادت يلفها الغموض. ماذا يريد السيد أن يقول ؟ بل ماذا يعني بما قال ؟ وأكثر من ذلك، هل كانت الزيارة من أجل ابنتها أم من أجلها هي ؟ هذا السؤال لم يكن ليلح مرة أخرى، ويظل ملء الخاطر... شغل البال، لولا أسئلة السيد... وأسئلة اللحظة والجلسة والزيارة والطريق ذاته !

لو كانت الزيارة من أجلها هي، ولنفسها بالذات، لما تأخرت عن موعدها كل تلك السنوات... بل إن رفضها الباطني لأن تعرض حالها على السيد هو ما جعلها تقطع زياراتها التي كانت مألوفة إلى ذلك المقام، دار السيد. الزيارة إذن كانت من أجل نجاة، حاضرها ومستقبلها، ولا يمكن لأحد أن يشككها في ذلك...

صحيح أن في حالها ما يلتقي بحال نجاة ووضعها مع الفارق... على الأقل يلتقيان في حالهما، من حيث ما تبدو عليه نجاة، مثل أمها في قابلية التحمل وهي المتعقلة المؤنسة في الوحشة أمام طيش عزيز وغرة سميرة ! ولعل خوفها من أن توافق فتسلم ابنتها إلى غربة، ليس إلا خوفها الحقيقي الباطني من أن تبقى وحيدة تغرق في الوحشة والظلمة...! هو ذا... قد يكون سر إلحاح الزيارة، وسر توقيتها، والسرعة التي أنجزت بها، أم لا ؟ ماذا إذن ؟

وهكذا يكون لحاجتها وذاتها دخل وأي دخل في الموضوع... مهما يكن فهذا ليس كل شيء في الموضوع ولا في الحال على عمومه، والسيد عندما يلمح إلى أحوال أخرى وحالات وراء القصد غير نجاة، وعدا موضوع نجاة كما عرضته سليمة، فهو يعني الكثير الكثير، سواء فهمته سليمة أم لم تفهمه، هكذا يتراءى لها كل شيء وهي تستحضر وتتابع...

إن السيد عندما يشير ويلمح إنما يعني حال الزوج الغائب، ذاك الموضوع الذي لم تفتح سليمة به شفتيها لأحد، ولا للسيد... إلا أن يكون قد أدرك من حالها واستبطان لسانها ودموعها... وكل حركتها... إنه كان يقصد إهمال زوج ومعاناة زوجة مستضعفة وحيدة في محنتها... وإنه كان يرمي إلهام سليمة رباطة الجأش والصبر والاحتمال... وإذا كان السيد يفهم ما وراء الإشارة والعبارة، وهو لاشك فاهم مدرك، وهو مطلع كما كان والده وأسلافه قبله، فإنه منذ أول لقاء علم بكل السر وجماع الأسرار والأسباب... كل المحنة مختصرة ومفصلة... قرأ ذلك في صمتها ومن نحيبها... من منطوق كلامها وما سكتت عنه بإرادة فأفصحت عنه بدونها، أعربت عنه بالإشارة وبالإيماءة وما في عمق الملامح، أبلغت عنه بتلعثم العبارة وزوغان النظرة... وأحاط بكل شيء علمه وإدراكه...

ذاك هو السيد... ذاك موقفه وقدرته كما تحس بها وتعرفها قبل أن تزوره وبعدما زارته... أما وهي أمامه، فكانت بعيدة جدّاً، مطوح بها حيث لا تدري، فدلفت إلى خلوة السيد يلفها الغموض، وخرجت منها عائدة أدراجها يلفها الغموض وأشد، لماذا لم تفهم الرسالة ؟ وكيف تفهم ؟ لاشيء لها ؟!

التوقع، التطلع لوعة في عيني نجاة، حيرة وقلق ثم لهيب يحرق قلب الأم بالذات... الأم التي كان دورها أكبر من مجرد إفشاء السر قبل نضوجه، قبل كل شيء وفوقه، كانت أحداث زيارة السيد أغرق في الغموض مما حدث أثناءها.

إذا كانت سليمة لم تفهم شيئاً من استشارة السيد أو استخارته... فهي لم تفهم شيئاً مما جرى لدى مغادرته... وفي طريق عودتها... ما تراءى لها وما عانت منه، ما شاهدت وتراقص واقعاً أمام خطواتها وصوب عينيها حيثما وُجهت وتوجهت... شيء يفوق الوصف والتعبير، ولم تعتده في حياتها من قبل... لا في حلم أو يقظة... إلا أن يكون جنوناً... وقد كان كذلك... كذلك حسبته قبل أن تتداركها قدرة ما تردها إلى الصواب، لتدرك من جديد، حيث هي وما حولها كما كانت تدركه من قبل... أمام ذلك، عندما تستعيده سليمة وتحاول أن تفهم، لا تملك إلا أن تقول إن الدافع إلى الزيارة نفسها كان أغرب، دون أن تشعر به على حقيقته أو تملك القدرة على الكشف عنه لنفسها أو لغيرها.

دوامة أفكار وخواطر متضاربة، في مثل هذه الحال، كانت نجاة، طوق نجاة فعلا من بعض الهموم التي تسمح كرامة الأمومة كما تفهمها سليمة، بالكشف عنها والحديث؛ أما والحال كما هو الآن، فذلك مطمح بعيد، ولا مشارك في الآخِر أي غير الوحدة والانكبات، ولمّ ذات الصدر حتى تفرج من ذاتها الأقدار، أو يطويها الزمان... والنسيان !

22

يا أمة ضحكت...!

يسير وباطنه يلهج... البيت الشهير والمثل السائر الدال على الحال والمآل... ناس تبدو له تائهة ضائعة فاتنة مفتونة... والثالوث الفتاك، عدو الأمة الأكبر والمجتمع... فقر وجهل ومرض، يعيث فساداً في الجسد المنخور، كأنهم أعجاز نخل خاوية، لا ترى لهم من باقية... أي قوم هؤلاء... ورثة من ؟ وإلى من ينتسبون ؟

يسير وباطنه يضج بالقضايا والمتعارضات، يحمل على كاهله عبء الكون كله ملخصاً في أمة العرب وأمة الإسلام... والثالوث الفتاك جهل وجهل وجهل... يعيث ويعشش ويبيض ويفرخ... والناس... الناس الحقيقيون يغزون الأفلاك والأعماق والأجواء... ورثة من نحن ؟ وإلى من ننتسب ؟

يسير، باطنه يضج، وخاطره يموج، يذكر تلك العهود الخوالي على فقرها وضنكها وحرقتها... يذكر والله تلك العهود... وهل تمحى ؟ كيف ؟ يذكرها... أياماً كانت وعهوداً زاهية... العرب كانوا عرباً والإسلام إسلاماً والدنيا دنيا حقيقية... كان الظلم ظلماً، الاستعمار استعماراً وكان الإيمان والنضال والتضحية... كان المتوقع والمعول أن الأمة بعد ذلك... عرباً وإسلاماً تقفز قفزتها تمحو الفارق، وتعبر إلى

ضفة التقدم والتصنيع والعدالة والازدهار... انظر ما حدث من شرق لغرب ومن أقصى غرب لأقصى شرق !

أياماً وعهوداً كانت زاهرة... صرخة ظفر الله المدوية في العالم من أعلى منبر الأمم المتحدة... والجمالي، وعزام... كانت قنابل ومدافع لا... بل صواريخ بلغة اليوم... العالم كله كان يهتز والقلوب، قلوب الأمة لخطاب حق غاضب من هؤلاء وغيرهم، فيحصل العجب العجاب، والناس إذ ذاك مستضعفون إلا من إيمانهم، مستعبدون مستعمرون إلا في عقيدتهم وتصميمهم... انظر إليهم الآن... انظر إلى أمة العرب والإسلام... انظر وقل لي ورثة من وإلى من ينتسبون ؟ كلهم طوائف متناحرة، دول متنافرة، نوايا ونيات فقدت طهارتها والنّقاء... أغنياء... أعيان... مذاهب شتى وألوان بلا طعم ولا لون... أتباع وأشياع... والعدو الأكبر تخلف وتخلف وتخلف... انظر وقل لي إلى من ينتسبون ؟ ومن هم ؟

خواء... خَوَر... وخوار !

يسير يضج بالهموم الكبيرة والمطامح الكسيرة... يسير وحسرتَه ومرارتَه، متأبطاً رزمة جرائده العربية والأجنبية يقرؤها ويفهمها على طريقته ليعيدها إلى صاحبها بعد ذلك... ماذا يقرأ ؟ ماذا يفهم ؟ ترهات خزعبلات... تكرار... لا. أكاذيب ودعايات باهتة صفراء بدون ملح... الصحافة يعرفها... لها كذبها ذلك الكذب الذي هو صدق الصدق لما يراد به من خير عام... من يصرف هذه الغمة اليوم ؟ من يفهم منه هذا الكلام ؟ صحافة بدون ملح... حتى الأعجمية منها رغم ضخامة المؤسسة والشعار... كل شيء تغير إلى ما لم يكن متوقعاً بعد القفزة التي صنعت درجاتها من نسيج عقول ووجدان جيل كامل من أقصى شرق لأقصى غرب... ذهبت حدة

الحرف ووهنت حرارة الكلمة... ماتت ومات فيها الموت... كانت كلمة يطلقها اللسان، تنشرها شفتان... هكذا شفوية... مجرد شفوية فقط، تذيع في الآفاق تضرب النفوس في الأعماق... تسري من سمع لقلب ومن قلب لوعي ليد وساعد وإنسان... هكذا كانت الكلمة، بلا وسيط ولا متوصل عدا الإنسان... كانت تحفز وتحرك، تبني وتهدم، تحيي وتميت، تفعل العجب العجاب...

كلمة شفوية كانت...

أما إذا كُتبت، التهبت نوراً وناراً، ذاكية مذكية لكل شيء في كل شيء، لا تبقي ولا تذر على عدو ومن عدو وخائن... لتنزل برداً وسلاماً على المخلصين الصابرين المكتوين بحرارة إيمانها والمحترقين بالوفاء لمثالها... الكلمة كانت... والحرف كان... بعض أولاد اليوم بذاكرة الماضي قالوها، تغنوا بها، دون أن يعوا مغزاها ومعناها كما يجب، وكما هو في الأصل... وهم إن كانوا وعوا شيئاً فغيرهم عنه لاهٍ غافل... رغم الترديد والتفكير تغنوا بها وعبروا عنها بحق : الحرف البراق... فقد الحدة !

يا أمة ضحكت من جهلها الأمم ! يسير سي إدريس متأبطاً جرائده، صاخبة أفكاره، متضاربة خواطره وحواراته... ماراً على كل ما يعيب : آباء شاردون حائرون غائبون وأمهات، وأطفال بلا رقيب ولا حسيب، «أولاد الشوارع» رحم الله أيامك يا يوسف بك... تلك الأيام المجيدة العظيمة... كان كل حرف فيها... كل حركة وتوجه، رسالة استنهاض لأمة العرب والإسلام، أمة التاريخ وأمه... أين جلال الصوت وصفاء الكلمة يا يوسف بك ؟ أين أولياء الجيل، الآباء المربون وأين الدروس العظيمة والأخلاق ؟ انظر واسمع... ألفاظ يندى لها الجبين وحركات والأدهى... الأمرُّ والأدهى أن تتدخل لتوجيه

صبي أو نهي صبية، ليبصق في وجهك إن لم... أو يسمعك العجب العجاب من قاموس غريب فاحش... أهذه أمة العرب والإسلام والتاريخ... أم التاريخ ؟!

انظر بالله... فتيان وفتيات في الضياع ونساء ورجال في جهل مركب وغفلة... آه... هذا بحر آخر... حريرة أخرى مخلوطة بالعسرية والعياذ بالله ! كل ما استوعبوا من العالم، ميني جوب... ميني شورت... ميني قفطان... ميني تعليم سريع معلب... قل ميني بشر على ميني ثقافة وميني أخلاق ! والفتيان، آه يا شباب العرب والإسلام... الفتيان آفة الآفات... كارثة الكوارث، إلا من رحم ربك... وقليل ما هم... أين هم ؟ وآباء في ذهول وشغل فارغ وانشغال بال وهناء حال !

توقع إذن أن يلحقوا بغزاة الأفلاك، انظر وتوقع...

يا أمة ضحكت...

يتوقف سي إدريس أمام المقهى، يلحظ الخواء والخلاء والخَور والخوار، كما يتراءى له. الفراغ والهول كل ما يلحظ حوله في كل مكان وحيثما اتجه... وهو في همه وغمه... ينظر حوله متحسراً يجول بطرفه في المقهى يرى ما يرى كل يوم... معارك وهمية، انتصارات أمجاد وهزائم صبيانية... لا، لا، أولى به أن يقول قردية ! له أن يقول ذلك، هو الذي عايش جيلا بصوت ظفر الله وقوة يوسف بك ! ماذا يقول مما يرى... هو الذي جاء بيوسف بك من أقصى مشرق لأقصى مغرب... هو الذي جعل الفرجة رسالة وطاف بيوسف بك أرجاء، وخالط أوساطاً، رغم أنف المستعمر وجبروته... كل نأمة كانت رسالة وتضحية ونضالا... انظر ماذا حل اليوم بالفُرجة واللعبة...!

يأخذ مكانه المعتاد، أو بجوار مكانه المعتاد، لا مانع من مجالسة هؤلاء، أو هو مضطر إلى ذلك... فهم قومه على كل حال، والدرب دربه، والحال حاله مهما يكن، يجالسهم ولكنه ليس منهم، ليس من مستوى وعيهم، يخوضون معاركهم الوهمية على رقعة الضامة والدمينو والورق... على التجاري والقماري والخواري... وهلم جراً !

أخذ مقعده في الزحمة المحيطة بالطاولات ما بين لاعبين، ومتفرجين... في النهاية لكل نصيبه؛ فكل جولة تنتهي بفريق رابح وآخر خاسر، فريق يؤدي المتراهن عليه، وفريق يستهلكه بنشوة انتصار... وهناك المتحلقون المتفرجون المتحمسون المحمسون على أطراف المعركة... هؤلاء تكون طلباتهم على حساب المنتصر المنتشي...

طبيعي ! لِلْعظمة الفارغة ثمن.

طبيعي ! لِلنَّصْر الوهمي ثمن.

في الغالب، يتعالى الفريق المنتصر عن الإفصاح عن طلباته للنادل، قبل إرضاء المتحلقين والمتحذلقين، فهم جمهور الفرجة ومنشطوها، في الغالب، حسب العرف، يتعالى الفريق المنهزم بدوره عن أن يكون بخيلا عن جمهور عاشق مفتون أيضاً...

في الغالب، وحسب العرف... الكل يستفيد... الكل ينتصر وينهزم...!

يا أمة ضحكت...!

لابد من فترة، يمر فيها سي إدريس على المشهد كله، مشهد القهوة بمن فيها وما فيها، نظرة متمعنة فاحصة، لا يفوتها من التغيير شيء، إن كان هناك تغيير في الوجوه أوالكراسي والطاولات، أو المطلوبات

أيضاً وحركة المناول والنادل والشحاذ... لا تغيير أبداً ولن يكون... حتى الوجوه التي يمكن أن تفتقد لحظة ما تلبث أن تظهر وافرة، تحركها حسرة لا مبرر لها عن التأخر وما يكون قد فات ! وجوه وملامح، ما تكاد تستقر قيعانها على رقعة مقاعد منهكة حتى تنطلق بلسان اللهفة تسأل عن الوضع كيف هو ؟ من ومن ؟

يتخذ سي إدريس جلسته المعهودة إلى الطاولة التي اختارها بالقصد أو بالصدفة، فالأمر سيان، ومهما كانت اللعبة الجارية على طاولته، فهي لعبة وهمية وهمية... وإن كان يجد نفسه في الغالب أقرب ما يكون إلى طاولة التجاري... يهمه هذا الحساب والضجة المرتفعة، وربما اعترف لنفسه، أنه لو وجد الفرصة لكان وهْمُ التجاري أقرب إلى دغدغته، لكنه في النهاية ليس إلاّ وهماً كبقية الأوهام، بينما الحياة تجري... العمر يجري... الكون يدور ويتغير... والناس حولنا غزوا عوالم أخرى وأفلاكاً...

يجلس وما يكاد يستوي حتى يفتح صفحة إحدى جرائده متعمداً ألا يسلم، فهو لا يعتبر نفسه مشاركاً لهم، هذا إذا كانوا يستحقون التحية والسلام كما يفهم هو ذلك... السلام إسلام وتحية وإيمان وعزيمة والتزام... أين هم من ذلك ؟

وتوافق جلوسه مع جولة ناجحة لفريق ومع إقبال النادل يسأله عن رغبته التي يعرفها جيداً، تتراوح بين قهوة معصرة وقهوة باللبن حسب الظروف، وحسب الوقت بالذات... الوقت كان مناسباً لفنجان قهوة سريعة معصرة... المهم الفنجان الفخاري القصير الصغير، فهو لا يطيقها في الكؤوس الزجاجية العادية، خلاف القهوة باللبن... والأهم ألا يكون الفنجان مشقوقاً أو مفروماً، لا. لا... أبداً،

فهو لم يتساهل أبداً في ذلك ولن... وكأس الماء طبعاً... هكذا هي رغبته البسيطة المضبوطة المنضبطة... ألْف... وعرف... وأخلاق ودقة... كلها تجمعت لتجعل من هذا السلوك شخصاً وعادة وحكماً... النادل يعرف ذلك، ويحفظه عن ظهر قلب... إنما هو يستشير زبونه تأدباً ومجاملة وبفعل عادة... في الواقع ومهما كان الظرف الذي يحل فيه سي إديس على المقهى، فالنادل يستجيب للطلب مسبقاً قبل انتهاء أية جولة لمنتصر أو منهزم... والحساب يأتي بعد ذلك عند انتهاء الجولة التي لابد لها من نهاية... وهل يتحمل النادل أن يرى سي إدريس جالساً إلى الطاولة بدون شيء أمامه يشربه...؟ وهل ينتظر منه أن يؤدي ثمن مطلوبه إن كان له ما يؤدي به ؟

يفتح جريدته، ينتقل بين أعمدتها، يرشف بين الحين والآخر؛ يعلق بآهة أو تنهيدة أو شتيمة أو دعاء... كأي متتبع متعصب في مباراة أو معركة حية... بل كأي متخلق من المتابعين لما يجري في سوق التجاري أو دوامة الشطرنج والضامة. يعيش ما يقرأ، يحياه بكل جوارحه، أو هو يبعث فيه الحياة، ويندمج في مشاهده مضيفاً إليها من خلق خياله ورغباته...

تطغى الضجة حول الرقعة أحياناً، فتخرج الرجل من عالمه، ليتابع شغب المتبارين، وربما انتشى بعض الشيء إلا أنه لا يلبث أن يعيد نفسه كالمستنكر يرشف من قهوته، حتى ولو كان الفنجان فارغاً...

تنتهي جولة، ترتفع موجة صخب، يتخلف الفريق الخاسر، يتخلى عن موقعه لفريق آخر، تكون الفرصة مواتية ليثير الفريق الخاسر زوبعة من الاحتجاج والاستنكار على طريقة الخصم في اللعب، وعلى ما ارتكب من تجاوزات... واللعنة... اللعنة على الحظ... زوبعة جدل

تتداخل فيها الأصوات متباينة الاتجاه، تغطي على افتتاح جولة المتنافسين الجدد في بدايتها، ثم ماتلبث أن تهمد شيئا فشيئاً، ويتركز الاهتمام على ما يجري في الساحة... الرقعة. هه ؟ أيام غريبة وزمن عجيب... عجيب أعجب ! من كان يتصور، مجرد تصور أن تؤول الأحوال إلى أن يكون سي إدريس في مجلسه هذا بجرائده ومقالاته، أو أفكاره عن مقالاته على الأصح، وعن السياسة الدولية والمحلية، والناس عنه لاهون منصرفون... وإلى ماذا هم منصرفون ؟ وبماذا هم لاهون ؟..

هه ؟ يا أمة ضحكت !

أيام... أيام عز وأمجاد ذهبت، كان مجرد ذكر سي إدريس أو ظهوره وحده في المشهد يقطع كل ما عداه... أهلا بالزعيم ! مرحبا بالأستاذ...! تفضل هنا سي إدريس... لا. لا. بل هناك في الصدارة !

سي إدريس، مول المقال؛ وما أدراك ما العَلَم والاسم واللّقب والشرف الكبير..! أيام : نعم، كانوا يسمونه مول المقال وإدريس المقالات... مولاي المقالات... وما شئت من ذلك... لقب وألقاب كان يحملها وما يزال، وما تزال بدورها عبقة الذكرى ندية في السمع والوجدان، كلما نودي بها... لكنها في تلك الأيام... كانت تحمل الكثير الكثير... ومازال يفضلها على غيرها من مناداة التشريف حتى وإن أبدى استهانة بمحتواها... يشعر حقيقة أنها الآن تسميات فقدت حرارتها على الأقل دون الحديث عن محتواها، أية مقالات ؟ مقالات ماذا ؟ وعلى من تقرأ زبورك يا داوود ! مضى زمن المقالات عندما كانت كلمة الصحافة كلمة... والعمود فيها عمود... والمقال يهز الدنيا، الآن لا مقالات ولاشيء... لاشيء... إلا المعارك الوهمية والناس تضحك... أمة تضحك، بكاملها تضحك على من ؟ الكل يضحك.. على من ؟

همدت ضجة الفرقاء... والمتفرجين... أنفاس المتحمسين مشدودة... ولا يجد مول المقال متفهماً منصتاً لزوبعته الباطنية... كالعادة...

آه، المقالات، مقالاته، ماتزال نسخ منها في جيبه إلى اليوم وعلى الدوام، وهو مستعد ليقرأها على مستمع واع... وهو مازال يبعثها وسيظل على ذلك بالحماسة نفسها المعهودة، وبالبريد المسجل المضمون كالعادة... يبعثها إلى الجرائد... دون أن تجد طريقها إلى النشر... بعض الجرائد لا يملك حتى شجاعة الرد في شأنها، عجيب ! وكأن أحداً لا يقرأ ما يتلقى، وكأن أحداً لا يتلقاها على الإطلاق، رغم أنها لا ترجع إليه بالبريد نفسه، ورغم احتياطاته التي يتخذها أغلب الأحيان حيث يرسلها مع الإشعار بالتوصل... بذلك أو بدونه لا حركة ولا سكون، ولا حياة لمن تنادي من جرائد !

مرة واحدة يذكر مول المقال، واحدة فقط، تساءل أحدهم حول لغة المقال... قال في جملة غامضة سرعان ما مزق سي إدريس خطابها شذر مذر... جملة غامضة ركيكة مبعككة عن لغة المقال وأسلوبه. وقاحة وخبث رد لا يستحق أن يعتبر رداً.. الوقح الخبيث يتساءل حول اللغة والأسلوب... كأنما هو في مستوى من اللغة والأسلوب ! عجيب ! وسيأتي يوم تنشر مقالات سي إدريس تباعاً في سلسلة تهز الدنيا.. بل الأمل أكبر... أكبر بكثير في أن تقوم مؤسسة نشر تامة كاملة... مؤسسة صحافة ونشر... مشروعها جاهز في أوراق سي إدريس أو هو جاهز في ذهنه على الأقل ومنذ عهد بعيد...

كالعادة، لابد أن ينتهي مول المقال، سي إدريس إلى أن يجد مستمعاً ما يجره جرّاً إلى الإصغاء... يجب خلق الاهتمام في المستمع... هه ؟

فريق رابح وآخر خاسر ؟! رابح وخاسر ؟! ما معنى ذلك بالله والناس وصلوا للقمر فاتوا القمر ! ما معنى ذلك ؟!

كان سي إدريس، أيام العز السالفة، يضطر إلى أن يضيف من خياله وبنات خواطره وأمانيه إلى ما عنده من أخبار حتى يغذي تطلع المستمعين، والمستفسرين المتحلقين : ألا يعلمون اليوم ما جرى في مجلس الأمن والأمم المتحدة ؟ كان سي إدريس ينظر إلى المتحلقين حوله المحملقين فيما يبدو لهم أنه يقرأه، ينظر ملياً وهو يلقي إليهم سؤاله ذاك، حتى إذا بلغ الاهتمام منهم غايته يلقى بما عنده، ظفر الله خان، يوجه المسدس إلى صدر شويمين... أي نعم، يهدده ويقول له : إما استقلال المغرب وإما الموت ؟! نعم يهدده إما بن يوسف إلى عرشه وإما الموت الأزرق من مسدس لا يرحم ؟! نعم بن يوسف ! من علق صورة بن يوسف في القمر، من رسم وجه السلطان في القمر ؟ من دور وجه القمر للناس لوحة مرسومة منقوشة بصورة الملك المنفي ؟ من جعل الناس يرون سلطانهم في القمر ؟ أيام العز تلك كانت وكل شيء فيها كان رسالة بهدف محدد. من فعل تلك الأعاجيب ؟ هو وجماعته هو بكلمته الشفوية وبما يقرأه على الناس من جرائده ومناشيره، كان يشد انتباه الناس بقوة كان يتعجب لها من نفسه... ولم يكن إذذاك في حالات كثيرة، يدرك الحقيقة والواقع من غيره... هو نفسه لم يكن ليستطيع التمييز بين ما يخلقه وما يقرأه أو يستقيه من واقع... وإذا حدث أن نط متنطع يشكك، فما أسهل أن يسفهه مول المقال — إن لم يستطع استمالته — ببديهة حاضرة : كلمة ظفر الله أقوى من مسدس لمن يفهم الكلام ويعقل.. كلمة الحق مدفع لا مرد له إلا أن يستقر في صدر الأعداء والخونة والمترددين المنافقين !

لم يكن حرج يخالجه. صحيح، في البداية، كان لديه بعض تردد فيما يضيفه لأخبار يلتقطها من الجرائد وإذاعة صوت العرب ولندن، لكن النتيجة الإيجابية لإعلامه، وخبره في الجمهور شجعته... جمهور يريد أكثر من الخبز الحافي، يريده مغموساً بالأمنية والأمل والرجاء يريده مشحوناً بقوة الفعل والحفز، لخطوة مباشرة... أما الآن، فهاهي ذي جرائد من أركان العالم تقريباً، بأردة باهتة، تشتري اهتمام الناس بأرخص وسيلة، إشهارات استهلاكية وإشارة سطحية وديماغوجيا... هذا هو الفرق... ملح صحافته إذ ذاك بما فيها من شفوي مكتوب... ملحها وملاحتها أنها كانت تخاطب في الناس مثالاً وقيمة وفعلاً... لون صحافة اليوم ومنطقها، منطق عالم تساوت فيه — عن وهم — كل القضايا كما ارتفعت أو برزت في المقدمة قضايا الاستهلاك المكرر... يتعجب كيف لا تعتري الدوخة من يفتح صحيفة فضاءاتها طيلة السنة والسنوات إشهار على امتداد الصفحات وأي امتداد... أحياناً يفتح الصحيفة فإذا جاره أو مقابله يترك ما بيده، أي والله، حتى ولو كان ما بيده سلاح قوي في معركة التجاري والخواري، وينصرف في ذلك لحظة يتأمل بل يقرأ صفحة الجريدة الموالية، أي عنوان يقرأ ؟ وأية قضية هاته التي استطاعت أن تقتنص انتباهه واهتمامه ؟ إشهار على امتداد الصفحة !

أي والله، هكذا... وما يلبث المقتَنَص أن ينتشل نفسه ليعود في لمح البرق إلى معاركه !

فتحاً... مجداً كانت تلك الأيام العزيزة... عندما اكتشف مول المقال أنه أكثر من لسان.. أكثر من جريدة... وأكثر بكثير من بائع جرائد متنقل، كان في الواقع، وكما فهم ذلك سريعاً، وكالة أخبار متنقلة ساعية بقدمين إلى مستهلك الخبر... ثم هو كان مذياعاً وصحفياً معلقاً

على ما ينقل وخطيباً... كان صاحب قضية... صاحب حق... وهذا يملؤه شعوراً بالاعتزاز والانتماء... أصبح بحق يجد نفسه صانع خبر ومنبعه وموزعه... هو نفسه لم يعد يهتم بأن يميز بين حدود الخبر والإضافة... لا يهم، الهدف واحد من كل ذلك، الهدف سامٍ والغاية نبيلة شريفة، يجب خلق الوعي ونشره... والناس تفتتن بالخبر المغموس في الأمل والتحدي... تتغذى به وتتنفس... هكذا فهِم... هكذا كرر في نفسه على الدوام، ومايزال على ذلك...

وهناك بالطبع مقالاته... تلك التي يلقب بها... مول المقال... مقالات لم يقيض لها أن تنشر لا في مرحلة الاستعمار ولا في مرحلة الاستقلال... إلى اليوم... لكنه فخور بذلك، ومايزال ينتظر اليوم الموعود... يوم النشر... قالوا أسلوب الكتابة...! لغة المقال...! كلام خبيث... يتجرأ منهم من يقول شيئاً عن لغته وأسلوبه ؟! أيهم يستطيع كتابة ما يكتب... وفي رأيه الصريح، وهو المحترف لمهنة الخبر، هل تقف لغة أو أسلوب مهما كان، وكيفما كان ــ على فرض أنه يناقض سيبويه ويجافي الجاحظ ــ أمام محتوى جيد، أمام خبر وتحليل، أمام تحليل واقع !؟

ومايزال عنوان المقال والمقالات هو نفسه العنوان العتيد الأثير لديه؛ وقائع وحقائق ! الفكرة الدقيقة اهتدى إليها من زعيم وطني كتب في مقال له يفند أكاذيب الاستعمار، وفي تحليله كان يؤكد على التمييز بين واقع وحقيقة ! من يستطيع أن ينفذ إلى مثل هذه الدقة اليوم... ومنذ ذلك الحين أصبح هذا التمييز شعاراً له فيما كتب ويكتب... وينتظر يوم النشر، لتهز مقالاته الدنيا، يعري ويشرِّح ويلتمع حد حرفه لمعان السيف ويمضي مضاءه...

مايزال العنوان العتيد الأثير صالحاً وهو يمارس بين الحين والآخر تعديلات وإضافات جزئية على النصوص، يساير بها المستجدات لكن الجوهر والمحتوى يظل هو هو !

وهذا يشجعه كثيراً... يعرف بحدس الصحافي وخبرة السياسي أنه على صواب، وأن ما يقال... قيل مرة واحدة في الواقع، مرة واحدة تعتبر استثناء مقصوداً، قيل شيء عن لغة المقال وأسلوبه... كلام... تهرب... تسايس وكيد وخبث... ذلك لا يوئسه، بل يدفعه إلى إصرار...

يتذكر مول المقال، ظروفاً مر بها، أيام الاستعمار، هذه الأيام التي كانت معلمه الوحيد ومنشئه وستظل... يتذكر كثيراً من اليائسين الموئسين... بعضهم شكك في قدرته ــ وقدرة الوطنيين ــ على قلب الموازين... بعضهم كان يستهزىء : آأنت.. أنت منهم... وقائدهم ؟ ازّانت للا وزادها نور الحمام ! والله هكذا سمعها بأذنيه... نور الحمام وزين للا...

لم يكن قد أصبح بعد معروفاً بمقالاته... كان في بداية الطريق الطويل الشاق... الطريق السعيد بمفاجآته وأحلامه... في كل وقت تنتظر مفاجأة تسعد بها وتحفزك إلى الفعل ! من يفهم هذا اليوم ؟

لم يأت شيء عفواً... أبداً... أبداً... ولن يأتي، هكذا تعلم هكذا يريد أن يعلم لو أتيحت له الفرصة، لكن من يريد ذلك اليوم ؟ من يريد أن يتعلم أو يشعر بأنه في حاجة إلى ذلك ؟!

أبداً... أبداً... لا يأتي شيء عفواً... أيام العز تلك لم تأت عفواً؛ كما لم يأت هو نفسه... هو أيضا عفواً أو طوعاً على الإطلاق... أيام صنعها الناس ــ نستغفر الله ــ بأيديهم وأسنانهم، بالأظافر والأنياب

ومول المقال بالذات، سي إدريس العتيد، صنعها بكل جارحة ونبض وعرق فيه... صنعها صنعاً، من كان يصدق أن المتشرد الطفل الممزق يصبح فعلا ما أصبح في أيام العز تلك وإلى اليوم...؟ مشرد تائه، دفعته الظروف ذات يوم... ذات صباح ليتأمل المتهافتين على الجرائد في شارع المحطة... أطفال يتجاذبون الرزم وينطلقون بها كالخطاطيف صائحين متسابقين... ظل المتشرد اليافع الضائع، يتأمل المشهد بنفس نزاعة إلى المغامرة فزعة منها... أي والله كانت تبدو مغامرة.

وامتدت يده مع الأيدي المتخاطفة... لكن الموزع توقف عند ملامحه ليسأله من هو... ورقمه... وجه جديد، صوت جديد ويد... خطاف جديد... لابأس... سأله عن اسمه وأجاب بلسان لا يدري كيف تلوى في حلقه قائلا إن اسمه إدريس... لم كذب ؟ وبسهولة وبداهة كأنه يتخفى على مجرم أو يتستر عن نسب مجيد ؟! سجل الرجل ما سمع ونطق برقم وأشار إلى الصبي ليتناول رزمة الجرائد وينطلق بها في الشوارع كالخطاف صائحاً : لافيجي... ماروك بريس... من كان يصدق أنه ولد فعلا من تلك اللحظة ليصبح إدريس ومول المقال... أي والله، من تلك اللحظة بالذات... ولد نفسه بنفسه وأعطى لنفسه اسماً وحرفة وحاضراً ومستقبلا...

لحظة هي، تلك التي ولدت به وولد بها، مرة أخرى على نفس الطريق... لا... بل على طريق آخر ينتهي بغيره.. كان يقفز بحاسة الخطاف ولم يبق تحت إبطه إلا نسخ معدودات من جرائده... حين اصطدم في الركن بكيان مندفع بقوة ريح عاتية، فتناثرت الجرائد... جرائد الشاب المندفع الذي مالبث أن تمالك نفسه ما بين الجري والسقوط، تتنازعه النَّفْسُ ما بين التقاط الصحف المنتشرة أرضاً

والإفلات بجلده من مطارده... نظرات حادة تشع بريقاً لا ينسى... ينظر الشاب إلى الأرض والسماء، ويشع من كيان الشاب آمر قوي : اجمع الجرائد، اخزنها، خبئها. وصِّلها للفقيه في جامع الشلوح... جامع الشلوح... لا تنس...

تلفت الشاب مرتين بين الأمر والرجاء في شبه أمر، في شبه رجاء... قبل أن يسلم نفسه لقوة كالريح تطير به مرة ثانية... لم يضع إدريس لحظة... كانت جرائد غريبة في رسمها وخطها عما ألف أن يبيع... دسها مطوية بين مطويات جرائده المعتادة... ولم تمض لحظة حتى مرت بجانبه زوبعة من رجال الشرطة تطارد الهارب، وتقتفي أثره... ولم تمض لحظة أخرى حتى كانت كوكبة ثانية من الاتجاه المعاكس، تعود به مغلول اليدين إلى الخلف بعد أن اعترضته، ويقاد بوحشية يتعالى معها لُهاثهم من أثر ما تكبدوه من جهد المطاردة، مروا به قرب إدريس، فرفع الشاب بصره نحوه... عيناه براقتان حادتا النظرة، تحيط بهما أثار اللكمات ملؤهما الأمر والرجاء... الفقيه... جامع الشلوح...

لحظة خلق جديد وميلاد كانت، عرف فيها إدريس الجرائد الوطنية، ومعنى أن يكون لك دور وقضية، وأن تحمل أسراراً بثقل الجبال.

من تلك اللحظة، اقترن إدريس بالمقالات الوطنية... تربى فيها وترعرع، يطوف بالجرائد في سرعة الخطاف بأرجاء المدينة وبين محطة وأخرى، يستمع إلى قارىء أو يطلب من يقرأ له عموداً هنا وهناك... فقيه جامع الشلوح تطوع بتعليمه سحر الحرف ورمز الخط... كل مساء؛ وبسرعة الخطاف يتعلم القراءة والكتابة والحساب... بجهد خارق وحذق استطاع أن يتقدم في اقتناص الرموز وأسرارها... تسع

سنوات استوى فيها إدريس شاباً متمرساً عرف السجن وازرقت دائرتا عينيه بآثار اللكم والرفس والثبات على العهد وحفظ السر...

وحذق أكثر ما حذق، قراءة الأخبار للناس وعلى الناس... وقائع وعجائب، كانت أولى مقالاته ضد الظلم، صححها معه الفقيه رحمه الله، وشجعه على نشرها باسم مستعار، لم يطق إدريس ذلك، لكن الفقيه أصر، ولم يفد في إقناعه أن اسم إدريس أيضاً غير حقيقي بدوره... وعندما قرأ إدريس مقاله منشوراً على عمود ونصف أبيض مع عبارة حذفته الرقابة... لم يصدِّق عينيه ولا عقله... لم يصدق أنه يقف على رجلين ويقرأ بعينين ولسان وشفتين ! تحسر فقط على أنه لم يوقع بأي اسم من أسمائه، رغم أن كلمة لم تنشر مما كتب، ولا أشير إلى الكاتب... لكنه يقرأ بوضوح وفهم وإدراك ما يكفي : «مقال بعنوان وقائع وحقائق؛ حذفته الرقابة!» ويمر بعينيه على العمود الأبيض ونصف العمود بعد ذلك وهو يتهجى البياض المنظم، يقرأ عباراته النارية ويرى نقطها وتعريجاتها ألسنة لاهبة ملتهبة. لحظة نشوة وامتلاء وميلاد كانت، وظل فقط يحمل حسرة التغييب لاسم ومضمون مقالاته إلى عتبة الشيخوخة المداهمة في زمن عجيب عجيب.. لم تعد معه المقالات تنشر جزئياً أو كلياً أو يشار إلى عنوانها وحذف الرقابة لها مع بياض يزين عموداً ونصف عمود، ويفسح الخيال والوعي لتركيب ما حذف، وتقدير قمته وصاحبه... كان زمنا حقّاً، وكانت أياماً... لا زمن أمة ضحـ[illegible]... تضحك وتلعب وتنتصر وتنهزم على رقعة وهمية... وهماً في وهم... وهو هنا... تحت إبطه جرائده... هامدة باردة... لم يعد خطافاً ولم تعد تستحق الاختطاف... باردة هامدة يقرؤها بفعل العادة، تثير فيه قشعريرة تستدعي العطاس... ينشر الصفحات أمام عينيه ويقرأ لنفسه، فلا يجد

روحاً لما يقرأ ولا يشعر بإلهام لحركة أو سلوك، ولا تحفيزاً أو إثارة، ولا فكرة مبتدعة من معاناة، مستخلصة من حمأة الواقع وحرارة الحقيقة... عصر الذّهب كان، ولى، وفات... ولم يبق منه إلا ذكر وذكرى باهتة من سي إدريس ومول المقالات، ومول المقال وسي بومقال بامقال... عصر تعددت فيه صفحات وسمات وأبعاد... والناس الآن تقضي واقفة على السطح تولد وتمضي بلا أثر... راغبة في ذلك راضية به، هانئة...!

وهنيئاً.

23

كالعادة، لابد أن يجد سي إدريس مستمعاً... يخلقه خلقاً، يخلق الاهتمام في الناس، كيف تخاطب من لا يهتم ؟ تكون كمن يرمي في البحر أو في الفضاء. لابد قبل البذر والحرث من تهييء التربة... هكذا تعلم... والصبْر... الصبر... الصبر.

مهمته كما يشعر بها أبدية، نذر لها نفسه لأنه في الحقيقة، لم يكن ينتظر أن تنتهي مرحلة الوطنية والنضال ضد الاستعمار... كأنه في الواقع شعر بفراغ بعد ذلك... لا، الواقع أن جيل اليوم والآن هو ما يشعر بالفراغ... فراغ من ؟ فراغهم هم بالذات وقبل كل شيء.

وما معنى أن يمر سي مول المقال على كشك الجرائد ـــ تصورْ أن الجرائد أصبحت تباع في أكشاك ومكاتب قارة و لم تعد تخطف حارة دافئة من ينبوع الفرن أو جوف البركان، إلى قلب القارىء يحملها خطاف يكتوي بها لسانه ويده وجوانحه ـــ ليأخذ زاده من الصحف ينتقي منها ويختار من بينها ما يروقه، مهمهماً معلقاً، منتقداً لاعناً... ثم ينظر إلى البائع الذي يدرك بذلك أن بامقال قد تزود بما يرضيه، وأن جرائده ستُعاد إليه نظيفة مصونة نالت شرف قراءتها ورفقتها لمن يعرف حقّاً حدة الحرف، وشرف الكلمة... ما معنى ذلك كله، إن لم يكن من أجل إيقاظ العالم الناعس ؟

وشرف أي كشك... أي بائع صحف أن ينتصب مول المقال، سي إدريس العتيد بالزيارة المعتادة، وبالمعاملة تلك ! من يتحدث عن دفع مقدم أو مؤخر ؟! الصحافة رسالة قبل كل شيء، حتى ولو كانت مجرد بيع للصحف، خاصة عندما يتعلق الأمر بزبون متميز... ممتاز... زبون ؟ لا، بل هو معلمهم جميعاً وقيدومهم جميعاً...

تشتد همهمة سي إدريس، وهو يتابع ما يقرأ، مثيراً حركات بملامح الوجه وبالكتفين... بل إنه كان يصيب بحركة كتفيه جاره عن قصد... يعرف أنه خارج لتوه من هزيمة الساحة التجارية... هزيمة وهمية طبعاً، كالانتصار، هزة الكتفين وحركات المرفقين تصيب الجار المقصود، بعفوية مقصودة مدروسة...! ها هو ذا الجار ونظرته تتحول عن رقعة الورق إلى متابعة سي إدريس الذي يجود بنظرة... نصف نظرة على صاحبه غامزاً له أن رأيت ؟!.. ثم يتابع قراءة جريدته أو النظر فيها على الأصح... ليعاود الكرة... والآن يبدأ التوضيح والتفصيح. وتتلاقى ما بين الهمس والتصنت، همس القارىء وتصنت المستمع أحداث وأحداث في المشارق والمغارب، وما بين الكواكب والمجرات... مشاريع ومؤامرات... حكومة تذهب وأخرى تجيء... هنا وهناك... والناس غزوا الكون من أقصاه إلى أقصاه... وأمة العرب والإسلام كأنها بنت كون آخر، لا يعنيها أمر ولا غيره... ليتقدم وليتأخر من يشاء. انظر حولك وانتبه. لست بحاجة إلى بذل مجهود كبير لترى ما يجب أن ترى... وترتقي من الواقع إلى الحقيقة... هذا كل شيء... وهنا الفارق... خلق يعيش في الوقائع وقائع لا يتحكم فيها وإنما تدور به كما تشاء... وخلق آخر... خلق التقدم والاكتشاف والاختراع يعيش الحقائق... يصنعها صنعاً... فلا شيء... لا شيء أبداً يأتي عفواً... أبداً.

مرة بعد أخرى، يتوقف سي إدريس، متأففاً مما يقول، من محتوى ما يقول، كأنه يقوله وهو كاره، عيناه تحررتا من سطور الجريدة وباله، فالفكرة الآن أسلست له القياد، ووجدانه وخياله يعملان بلسان فصيح... وهنا حقّاً تكون قد حلت تلك الدرجة من الوجد والوجدان التي لا يعود فيها بامقال يميز بين ما يقرأ الآن، وما قرأ منذ عقد أو عُقود وما سمع أو اخترع...

مرة بعد أخرى، في توقفاته وتأففاته، يجود سي إدريس على مستمعه ــ أو ضحيته ــ بجملة أو عبارة مشجعة تنسب إليه خصلة رفيعة أو سمة مميزة ممتازة، يستثني بها سامعه مما ينطبق على الآخرين... إنه معلم قبل كل شيء، وخبير يعرف أن الاحتفاظ بالاهتمام أصعب من خلقه في الشخص، لذلك فالرش بالمديح مرة بعد أخرى يجدد النشاط، يساعد ويسعف المستمع، فإذا هو مؤيد بحركة الرأس وربما يصبح مبادراً مسابقاً إلى الفكرة يتلقفها من ذهن بامقال قبل أن ينطق بها ؟

هو ذا شغل الخبر والإخبار، والعلم والإعلام !

هي ذي حرارة الحرف التي تحرق منطوقة أو مكتوبة أو مضمرة في حلق أو على بياض منعت سواده الرقابة... من يستطيع اليوم أن يقرأ بياضاً بتلك الروح... والكلمة روح... بل من يستطيع أن يكتب البياض ؟!

بين الحين والآخر، لابد أن تصدر عن بؤبؤ السامع غيبوبة شرود في متاهات سي إدريس المقالات، الذي يحسن قراءة كل شيء ويحس بكل شيء، ولا فكاك لأسيره فهو يمكن في اللحظة المناسبة أن يستعين بيده، يجذب سامعه إلى المتابعة، ويجدد نشاطه بعبارة مادحة.

هكذا يجر المستمع بفيض التحليل والاستطراد إلى ساحة قيم رحيبة

فسيحة، وينهمك مع محدثه في معارك محلية وحروب دولية وكونية، ومرة بعد أخرى أيضاً، يطلق بامقال سؤالا قصيراً مفاجئاً على محدثه كأنه يقرص به ذهنه، ثم يمضي يجيب بنفسه على ما سأل عنه...

ينظر مول المقال حواليه في هيئة متأفف مما حوله، حركة تدل على أن ما يجري من ضجة لا يسمح بحديث جدي مسؤول... أو أن موضوع الحديث أهم وأسمى من أن يتحدث فيه على هذا النحو، في هذا الجو المزعج... هنا يومىء سي إدريس إلى صاحبه، لينتقلا إلى ركن آخر... يومىء ويقوم ليتبعه صاحبه كالمنوَّم؛ ويد تمسك بمعصمه خشية الإفلات.

ينتحي مول المقال ركناً قصياً بقدر الإمكان، مقدماً له كرسياً بجانبه، إنّها الآن حظوة الرفقة والصحبة والامتياز. تحضر القهوة وأي مطلوب آخر، بإيماءة معروفة آمرة يتلقاها نادل عجوز نشيط...

الآن في عبارة سلسة سائغة، وبرائق بال، ينعم سي إدريس المقال بصاحبه أو صيده... ربما الآخر كذلك سعيد هانىء حسب درجة النضج والإنضاج، وربما يكون مجرد محتمل صبور... وتنساب الأخبار والتعاليق من أقصى الكون إلى أقصاه... بعضها مكرر وبعضها تجود به القريحة بنت اللحظة... عالم يبدو منخوراً خاوياً...

انظر حولك... اسمع وانظر واقرأ... وتساءل : أين الضمير ؟

24

تربعت الرحمونية وأمامها الصحون والصواني، وبدأت الفتيات تقبلن الواحدة تلو الأخرى... بهيجة... سعاد... آمال... ينفضن عنهُن تعب الليلة، يسرحن شعورهن بأصابعهن، نديات الوجنات بما داعبن من ماء الصباح فاتراً أو بارداً... قبل حمامهن الكامل مع زينة الخروج لمن يقتضي منها الحال ذلك منهن.

كالأم الرؤوم، كانت المرأة توزع على فتياتها من خيرات الصحون والموائد كل حسب هواها... تشجعهن على المزيد... تسألهن عن ليلتهن السابقة وما عندهن من جديد... كانت ليلة عرض للملابس أغلبها من صنع أيديهن، عرض مشترك مع آخرين وأخريات... لابأس. هذه طريقة جديدة بالنسبة لما كانت تعهده الرحمونية سابقاً... كل زمان له حاله ومقاله، كل زمان له نساؤه ورجاله... الفكرة كلها منهن... ترددت الرحمونية في البداية... لكنها الآن أدركت أهمية ذلك دون أن يمس ذلك بطريقتها المعروفة في التعامل مع القماشين والخياطين وباعة الملابس الأهلية النسوية... تسألهن فتتسابق الفتيات في الحديث والوصف الشيق، في انتظار الصور... والأهم الأهم السلامة... تحمد الله على سلامتهن، فرغم جرأتها وخبرتها، ماتزال تتخوف على الفتاة ـــ أي فتاة ـــ من أن تغشى مكاناً عامّاً... بل خاصاً في عموميته : فتيات في سن الزهور يعرضن ما عليهن من تحف القفاطين

والجلابات... في أتم زينة بين رجال شباب ونساء ! تحمد الله على سلامتهن... المرأة — كما ترى — خيرها في أن تعود إلى بيتها سالمة... تنصحهن وتعيد أن يتجنبن الشغب وأهله من أي طرف كان... ذكراً أو أنثى... الخسارة مع السلامة ربح وأي ربح... والوجه الوجه... على الفتاة منهن أن تحمي وجهها أولا وقبل كل شيء... أولاً وأخيراً. الوجه... الوجه ! والهرب تمام المروءة والعقل في الأوقات الحرجة والمنذرة... الوجه رأس مال الفتاة، رغم إيمانها العميق بأن كل زرع له كياله..! وجوه كثيرة صبوحة وأخرى أقل بكثير، تعلمت الصناعة على يد الرحمونية، وخدمت هنا حتى تزوجت... عشرات منهن زوجات وأمهات في درب السلطان والمدينة القديمة وفي مدن أخرى... مع ذلك الوجه رأس مال... رغم أنها فوجئت أحياناً بمن يتزوجن قبل من هي أجمل منهن... ولها تفسير وفهم لذلك... ليت الفتيات تدركن حكمة ذلك !

إذن كان العرض جيداً والطلبات أيضاً... سترى المبيعات... كل فتاة تعرف قيمة ما قدمت من قطع، وإن كانت المعلمة الدلالة العارضة ستهاود في الأثمان... رغم كل شيء تفضل الرحمونية طريقتها في التعامل مع الأسواق مباشرة، مع دكاكين الخياطين والقماشين... ربح قد يكون أقل، لكنه مستور وهو الأهم... لكن ما العمل ؟ الفتيات تفضلن الظهور والفضائح... لابأس من تجربة كل شيء والمهم الأهم أن الطريقة المعهودة هي الأساس...

كانت فترة الإفطار الأخيرة هذه، فترة حديث وتوجيه واستعلام، تقول بهيجة إن أحدهم طرح عليها العمل معه، بل ضايقها وأنهى إليها أنه مبعوث من طرف العسلي... ويبدو لها أنه ملح وأنها ستصل معه إلى مشكلة... حتى في السوق، تابعها أكثر من مرة وهي تنصرف

من عند الخياط... واضطرت إلى أن ترجع أدراجها إلى حيث كانت كي تبحث عن نصير قبل أن يتركها..! والواقع أنها أحست بخطواتها تتعثر في العرض، عندما التقت بنظراته الوقحة المستفزة... لولا لطف الله... كانت ستسقط أمام الأنظار... يعرض العمل مع العسلي... يغريها بأجر مضاعف !.. عن عمل مجز وشريف نظيف !

كانت الرحمونية تتابع وتستوعب الموقف، تعرف كيف تتصل بصاحبه، تكنيه القطراني لا العسلي... ذاك النذل الكبير... ومن أعاجيب الزمان أن ينافس الرجال النساء... إذا عد العسلي منهم... نذل وجبان... كله رذائل متراكمة متجمعة متحركة على قدمين... إنه في الواقع، تعجز الكلمات... ولا داعي للاشتغال بموضوعه فهو دنس ويدنس كل مقترب منه. عمل شريف نظيف معه ؟ إنه ينبش في أسرار الناس وخباياهم... وأكثر... مثله لا يستحق... ستتولى موضوعه... لديها من يتولى موضوعه، وإذا كان له من شغل، فليتجنب بناتها... لابد من إيقافه عند حده.

لا تملك المرأة المجربة إلا أن تتحسر على أنها لا تستطيع أن تكون مكان كل فتاة من فتياتها... هي واثقة من نجاعة ردها على من يتجاسر عليها، لكن الحاضر أن البنات في سنهن، كل ضجة حولهن تجعلهن ظالمات، رغم أن الجاني والجناية في وضح النهار... والقطراني لها معه شأن، تعرف مقصوده من العمل الشريف المزعوم... يتاجر في فضائح الناس... يبيع فضائح بعض لبعض... وأكثر...

المهم أن تكون الفتيات جميعاً يقظات متضافرات. مظهر القصد والجدية هو أحسن حماية للفتاة... العرض الحي كما تقول لهن فضيحة فوق اللازم، وسوق الدلالة وهو أسبوعي أهم في مردوده، وبدون تماطل أو تراخ...

تقول آمال وكأنها أدركت حكمة هامة من خبرتها القصيرة بالمعارض، إن أغلب من يتقدمون للفتاة عن طريق المعارض، لا يطلبون زواجاً حقيقياً... فهم إما باحثون عن فتيات لعروض مماثلة... أو أنهم مدفوعون بدافع لهو... تعرف صديقات استجبن لأول دعوة، فخاب أملهن... أمل كان حلماً عريضاً في الشهرة السريعة والمال الوفير.

نظرت الرحمونية نظرة استحسان إلى آمال، وأكدت لهن أن الزواج يجب أن يكون هدف الفتاة... شريطة ألا تسقط الفتاة على صفحة وجهها من أول إشارة... لابد من التمهل والاستشارة ولابد من الممانعة... في هذا الموضوع بالذات، يجب أن تكون المعنية بالأمر، الفتاة، حاسمة؛ لا مترددة ولا متخوفة... لهجة الممانعة المطلقة مع الاعتداد ورفع الهامة، وإظهار أن أمرها يرتبط بأهلها وأوليائها... هذا وحده ما يجعل المتقدم الخاطب جديًا فيما يريد وأشد رغبة، إن كان صادقاً، وإلا...

تؤكد لهن أنها ولية أمرهن، وعندما يؤول الأمر إليها، عندما تصل الأمور إلى هذه النقطة، فنظرتها إلى الرجال صائبة... وهي إلى اليوم لم تخب في زواج واحد مما تم على يدها منذ ربع قرن ويزيد... عشرات العشرات وفدن عليها لا يعرفن كيف يقعدن... منهن من خطبتهن بيدها بعد أن أكملت رضاعهن... هن الآن أمهات مستقرات هانئات... حديثها إليهن شبه معاد، لكن دورها كما تراه يقتضي ذلك... ليتها تستطيع أن تنقل إليهن خبرتها الطويلة بالأسواق والرجال وسائر البشر... باب الرزق المحدود... باب الكفاف والعفاف مايزال مفتوحاً ويظل دائماً كذلك... وأمهن الرحمونية لا تبخل عليهن بشيء... على العاقلة أن تزن الأمور، وكلهن عاقلات ويجب أن يكن

كذلك... آمال بالخصوص يابنتي، تمسكي بما قلتِ وبما هو فيك معهود، أنت بالذات... السعي وراء ضربة الحظ السحرية التي تغني مرة واحدة... بعيد جداً، أقرب إلى الحلم... بل هو حلم كبير... وقليل دائم خير من كثير وفير مقطوع أو محفوف بالمخاطر.

سعاد تبدو محظوظة، وراءها خاطب يبدو جادّاً، والرحمونية في طريقها لمعرفة كل شيء عنه... إنما على الفتاة أن تلتزم الحكمة والنصيحة. عملها وشغلها صناعة يديها يجب ألا تذهب هدراً، كل شيء يجب أن يرتب ويُوضَّح منذ البداية... أمها الرحمونية ستوضح ذلك عندما يستقر رأيها، سعاد أنامل الذهب... أكرمها الله بأنامل ساحرة بأصابع من ذهب... كل ما تطرزه أو تخرمه ذهب في ذهب... هل يضيع ذلك كله بين جدران أربعة وتحت سلطة رجل ؟ كل شيء سيتضح ويتوضح في حينه... إنما على الفتاة ألا تظهر التعلق الصبياني قبل الأوان... من يدري، قد تكتشف خُلّة ما أو شيئاً مما لا يرضي في الطالب الراغب الخاطب... حينئذ يصعب التراجع... يا ابنتي لا تعوّدي أحداً على مرافقة ولو لدكان الخياط أو سوق الدلالة... لا تعوّدي أحداً على موقف مستمر، بدون مبرر من بيع وشراء أو ارتباط حقيقي كامل... كل رفقة بدون مبرر مع أحد، مهما كان، تنقص ولا تزيد أبداً من الرغبة فيها... من المرافق نفسه وبالأخص من غيره إذا تبين أن الأول كان عابثاً أو قاصداً للعبث... هل تستعملين بعد ذلك براحاً، يصم آذان الناس بأنك شريفة، وأن شيئاً لم يكن بينك وبين أحد ؟ من يسمع ؟ ومن يصدق ؟ وما الفائدة ؟

تؤكد الرحمونية وتعيد. كلامها موجه إلى سعاد بالذات، تدل على ذلك حركة عينيها التي تجول ثم تعود للتركيز على وجه الفتاة. تؤكد أن لا مرافقة ولا صداقة... الحذر كل الحذر من أكاذيب الحب وحبائله

في هذا السن في هذه الفترة والعنفوان... الحذر كل الحذر من معسول الكلام، معسول المشاعر، كلماته، حركاته خفقاته، ومشاعره... إنه سرعان ما يتبخر !

كانت المرأة توزع نظراتها في نهاية الحديث، وقد اكتست لهجتها غنة حنان خاصة، كأنها تتذكر بها أشياء وأشياء... لا تخفي عنهم ولا عن نفسها أنها كانت ذات شأن في عالم الحب والحنان... لم يكن لها مثل ما لهن الآن، من يرشد ويساند ويوجه... الآن تتحدث عن ميدان الحب كأنها تخطط لمعركة... بشرى الصغيرة، محدقة، تكاد تلتهم الكلمات والملامح والحركات... فضولها حاد يستوعب كل ما حوله أو يعمل جاهداً لذلك...

انتبهت الرحمونية للصبية المشرئبة فنهرتها... هذه الماكرة الصغيرة سيكون لها شأن... وأي شأن !

25

في دنيا القنوط وقساوة السؤال، وحرقة انتظار ما ينتظر وما لا ينتظر... تبدو معالم ظليلة هانئة كواحة في بيداء تلك الجلسة في خلوة السيد... ألوان وسماوات وبحارٌ ينتفي فيها ومعها كل إحساس أرضي... بأي شيء مهما كان... إلا هذا الإحساس بأنك محمول على أجنحة الراحة، تحوم في عوالم زاهية لا تثير فيك إلا ارتياحاً ومزيداً من ارتياح... بعيداً... بعيداً عن كل متعة مألوفة... إحساس بنعيم، وشعور سعيد لا يبعث فضولاً، ولا سؤالاً، ولا صدمة اكتشاف أو توقع... عوالم تثير غاية العجب والغرابة.. بعيداً عن كل اهتزاز أو انفعال مهما كان، وكيفما كانت طبيعته... تموج النفس في هدوئها، تهدهدها دفقات السكينة عميقة من كلمات السيد، حروفه، ألفاظه... من أين مصدرها ؟ أحقاً كان يتلفظ أو يشير أو يتحرك ؟... ونظراته التي لا تَرى ولا تُرى ولا يغيب عنها شيء... أحقاً كان ينظر ؟

تستعيد نجاة تفاصيل تلك الخلوة...ما يحضرها من تفاصيل وما يستعصي... فلا تتبين إلا أثراً لم يقاومها لحظة منذ ذلك الحين : إحساسها الغريب الممتع بأنها احتمت بفيء من حر هاجرة جهنمية لا ترحم، أو أنها الصادي يطفىء لوعة الحلق والخوف في رحيق سائغ أو رائق من سلسبيل أو... أنها قطعة المعدن الحامي حتى درجة الاحمرار والانصهار يهمد سعيرها في ثليج مذاب... منذ عودتها إلى

جانب أمها متخلفة عنها ببضعة أمتار إلى الوراء كأنما يشد خطوها قيد أو يثقلها حمل رصاص... لم تحد عن ناظرها معالم الوجه المشرق الملتحي متورد الوجنتين والشفتين كملامح الوليد... لم يكن ذلك لأنها وقحة النظرة ولكن لأن رؤيتها علقت بمهابة المحيا وجلاله... علقة لم تستطع منها فكاكاً... لم تكن شاردة عن ذلك ولا مواجهة أو تائهة، بل أدركت حرج موقفها فيما لو انتبه إليها ورفع نظرته الخفيضة... والتقى بنظرتها العالقة... حرج الفراشة ومحنتها في انجذابها للنور واحتراقها بلهيبه... لكنها في الواقع لم تكن تعاني، بإحساس من احتراق، أو بأي ألم مهما كان في درجته ونوعه... إنما كانت منجذبة فعلا... مشدودة إلى النظر حتى التحديق في ملامحه... رغما عن كل جهد منها للتحرر من ذلك... لم تكن تستطيع فكاكاً من مبعث النور والنار...

لفتها طوال الجلسة سكينة، لم تستوعب منها شيئاً عدا تردد اسمها على لسان أمها، تردداً لعله كان يكون مفاجئاً وأكثر صدماً لها في غير هذه الجلسة... ربما... وربما كان لها أن تبتهج في هذه الجلسة لمجرد أن الوالدة سليمة ذكرت اسمها بالواضح المتضح، رددته في خوف عليها، وفي لهفة لم تعهدها نجاة أبداً من أمها... والسياق كله يفهمها أنها مطلوبة لزواج، ذاك الذي كانت تتلهف على سماعه... لعلها كانت تسعد أكثر لو كانت في غير هذه الحال... لكن الأمر يمر عليها فيما تسمع وترى، وكأنه يعني كائناً آخر ! لعل لحال أمها دخلا في الموضوع، ربما... فأمها في انفعالها وبكائها طغت بحالها على كل ما هممت به وهمت به... تلتقط نجاة من بعيد... من بين النحيب وبما يلزم من وضوح أن الوالدة تقصد السيد، تستشيره في أمر يهم ابنتها... تلتقط الفتاة ذلك، كأنه يهم غيرها... تشعر أنها في حال أخرى، ولو

طالت الجلسة ما طالت، ما كانت لتتحرك بأي إحساس أرضي، عدا شعورها بهذا الخدر اللذيذ، والغياب الخفيف كأنه بداية نوم سعيد أو مدخل حلمِ ممتع... شيء لا عهد لها بمثله.

لفتها طوال الجلسة سكينة حال، وانجذاب نظرة إلى محيا الرجل، أحست بانجذابها المخجل ولكن نظرتها مسمرة مجمدة، وما كانت لتنقطع عن النظر والتحديق بإرادة منها...

لا تدري الآن إن كان الرجل شعر بذلك، وما هي متأكدة منه هو أنه لم يفاجئها تنظر إليه على ذلك النحو... لو فعل... لأحست بذلك بقوة مهما كان طعم نظرته، لكنه لم يفعل، ربما تعففاً منه... أكان لينهرها لو فعل ؟! أكانت إلا أن تبتلعها الأرض خجلا من نفسها ؟! أحست والجلسة تنتهي، لا تدري إذا كانت أُمُّها المبادِرة بِالخروج أو أن الإشارة منه، أنها تقتلع اقتلاعاً، وتستيقظ بفجائية وعنف من غيابها الممتع الخفيف... لكن الصورة ارتسخت، لا ينسخها شيء... ارتسمت بعمق في ناظرها والوجدان، معيناً للمشاعر الهانئة السعيدة، والتذكار الودود الجميل...

26

لم تكن الزيارة واردة على الأقل في مثل ما كان يجري في خاطر سليمة من تصورات... لم تكن الظروف لتسمح بها؛ ولا يليق منها وهي من هي، والدة الخطيبة... أم العروس المنتظرة أن تزور بيت الخاطب العريس وأهله، قبل أن تعطي الجواب... والقبول... أو حتى بالرفض المؤدب المجامل في عبارة التأجيل قصد الاستشارة... وزواج ليلة تدبيره عام...

وهل ينتظر منها أحد أن ترفض..؟ هي نفسها لم تكن تنتظر ذلك من نفسها... متأكدة كانت من أنها بعد المهلة المطلوبة ستجيب بالقبول والترحيب، بمجرد أن انفرجت شفتا الحاج يطلب القرب لحمادي من نجاة... أية كرامة إذن تسمح لسليمة بأن تزور بيت الخاطبين ؟! مؤكد أن ما بين الأسرتين أقوى وأعرق من كل شيء آخر... لكن سليمة لا يمكنها أن تنظر لنفسها إلا كأم العروس... ولو كانت هي الخاطبة من دار السعدية، لابنها عزيز مثلا... عوض ما هو عليه الحال؛ لما حظيت لدى صديقتها إلا بمثل ما يراود خاطرها الآن... القبول ممكن متوقع ومطلوب، لكن بعد التريث والاستشارة... عرس ليلة تدبيره عام... حكمة الأولين.

كانت سليمة تخطو نحو دار الأحبة في غير رغبة منها، لكن لم يكن لها خيار، وهل تتجاهل ما تناهى إليها، وتنتظر حتى تفاتحها السعدية

أو ينقل إليها الخبر من قبل زوجها الحاج أو من قبل الآخرين الأبعدين ؟ أبداً... لا يجوز، ما بين الأسرتين لا يسمح بذلك، ومكانة الخبر نفسه بالنسبة للجميع، وبالنسبة لها هي سليمة بالذات : عودة حمادي المفاجئة إلى أرض الغربة !.. وقبل أن يتلقى الجواب أو يلتقي بخطيبته، وقبل أن يمضي عشر المدة المقدرة لعطلته التي كانت تقدر ببضعة شهور كما أخبرها الحاج والد الفتى نفسه !

لم تكن سليمة مرتاحة... فهي لا تدري بأي أسلوب تتحدث : تواسي أم تظهر الابتهاج ؟ كانت قلقة في أعماقها أشد ما يكون القلق. إذا كانت لم تعط بعد جواباً، فلم تمض بعد إلا أيام معدودات... فما معناه ؟ من حقها أن تقلق إلا أنها تحب ألا يظهر عليها شيء من ذلك... الأصول تقتضي منها ألا تظهر... أو تتلهف... إنما هي في زيارة عادية لدار أحبة تعرفها وتحبها كما تحب أهلها... وعليها ألا تتحسس من زيارة عادية كهذه في مظهرها... وعليها أن تنتظر الباقي، أن يخبرها أهل الدار بالخبر اليقين... إذذاك يتبين لها رأس الخيط، وتعرف ماذا تقول، وما تقدم أو تؤخر... المتوقع خير... خير إن شاء الله... الحاصل خير على كل حال... وإن كانت رجفة القلب، وخفقة العين تومىء بغير ذلك والعياذ بالله من الخواطر السود... خير... خير... إن شاء الله.

رغم الحفاوة التي لم تكن كما تعهد سليمة من صديقتها... رغم مظهر الهدوء الذي تبدو به سعدية... فلم تكن سليمة بالتي تخفى عليها الدلالات... هي المجربة لما تخفيه القلوب، تغْتل به الصدور، ولا يجري به اللسان... إلا غفلة أو انفلاتاً... وهيهات...

قالت السعدية إنه كالبرق طار منها... طار من بينهم جميعاً... هكذا

كالبرق الخاطف... قالت ذلك وزمت شفتيها في شبه إصرار على مقاومة البوح... تبينت سليمة ذلك من شبه الصفير المنطلق من بين إصرار السعدية والمتضافر مع حركة غير ضرورية، لحك الرأس بطرف الوسطى، للإيحاء بحركة البرق الخاطف... والزائر المنفلت انفلات الوهم... حركة انفلات مماثل لسرعة البرق أيضاً... التقطتها حواس سليمة في أوج تيقظها صادرة عن السعدية في أوج مقاومة البوح لإظهار ما بها من ضيق على غياب حمادي المفاجىء، وعودته الخاطفة إلى أرض الغربة...

وصمتت المرأة فترة كأنّها تتابع أثر انفلاتها في سليمة، ثم أخذت وجهتها في حديث طبيعي خال من كل تكلف... ما حدث قد حدث، وهذه ليست أي امرأة كأي امرأة بالنسبة للسعدية... إنها الحبيبة اللبيبة، والصديقة الحميمة سليمة... وكان من المتوقع أن تصبح النسيبة القريبة... لولا هذه المباغتة من غياب حمادي في لمح البرق بدون تدبير ولا استئذان... لا... لا... المباغتة جاءت من أصحابه هناك وراء البحر... جاءت عن مشغليه... وردتْ عليه برقية عاجلة تدعوه لأمر هام... يتعلق بشغله... تقتضي الحضور على وجه السرعة، بسرعة البرق الوارد الهارب... هكذا قال لهم وهو يجمع حوائجه بعجلة ويغادر...

انخفضت لهجة السعدية، وهي تكرر جملتها الأخيرة ساهمة في حركة توحي بأنها غير مطمئنة للرواية... أي شغل هذا الذي يختصر شهور عطلة محددة مسبقاً، مدروسة ؛ نظير سنوات غياب لتصبح أياماً معدودة... ثم لحظة خاطفة... بلا أجل ولا ميعاد..؟! ثم كيف تنسى وهي الأم العليمة بقلبها، كيف تنسى ارتباك حمادي عندما سألته عن البرقية المدعاة، أو على الأصح عندما سأله والده الحاج عن ذلك،

وأكدت هي سؤاله... كان ارتباك حمادي واضحاً، والبرقية على كل حال زعم من حمادي، لم ترد على عنوان الأسرة، ولا رآها أو اطلع عليها أحد... قال إن البرقية وردت على عنوان صديق له... قول لا يخلو من غرابة، وهو الذي ظل يراسل والديه على عنوانهما بانتظام... ولم يطلع عليها ولا رآها أحد... كان مرتبكاً، أظهر لحظة أنه يبحث عنها في جيوبه... ثم قال إنه لاشك قد تركها لدى صديقه... ثم ارتحل !

كالبرق انفلت، خوف السعدية من أن تطول غيبته كما طالت من قبل سنوات عديدة... ومن يدري، متى يجود عليهم بخبر عنه... كانت تقدر أن زواجه ببنت البلد... بنت الدرب يجعله وثيق القلب والخاطر بهم... وها هو ذا يطير كالبرق... هارباً.

قلب الأم تعرفه سليمة، ومن غيرها يعرف كمده العميق، عندما ينطوي على ما به من حسرات وجراح..؟ شعور حاد بأن الدار في مأتم أو أشبه بذلك... على الأقل قلب صاحبتها السعدية ولسان حالها المعبر في ملامحها وثنايا الحديث...

سارعت سليمة تواسي وتصبر... تحاول أن تنظر إلى الموضوع من جهة متفائلة... كل غيبة إلى حد، وكل مسافر وله أوبة... الطائر مهما يحلق ويجوب... فإلى عشه يؤوب ! وحجة الغائب معه... الله يكون في العون، يحفظ ويرعى في الغيب... ومع ذلك فهو كان خاطب ابنتها، وكانت مطالبة بجواب في فترة انتظار مصطنعة، يعرف الجميع معناها... ماذا بقي الآن من ذلك الموضوع ؟ وهل يخفى عليها ما بقي منه ؟ هذه المرأة الآن لا تملك شيئاً من موضوع، لا وعداً ولا قطعاً، لا تأجيلاً ولا تعجيلاً، ألم تقل إنه طار كالبرق بلا تدبير أو

استئذان ؟ أليست متخوفة من طول غيابه... وربما من انقطاع أخباره ؟ ماذا تملك إذن من موضوع خطبة وزواج ؟!

انقضت فترة الزيارة، وخيط أمل بعيد... بعيد، بعيد، كان مايزال يراود خاطر سليمة في أن تفاتحها صديقتها في شيء بينهما، يربطهما، ويربط قريبين منهما... لم تسمع شيئاً مما تريد، عما تريد، ولا سألت بدورها عن شيء من ذلك.

عودة أخرى غريبة تعاني منها سليمة في طريقها من دار صديقتها السعدية جارتها في الدرب وزوجة صديق عزيز لزوجها؛ طريق غريب، تقطعه في العودة وهي أشد اضطراباً، يكاد يغشاها شيء مما غشيها أثناء عودتها من زيارة السيد.

غريب حالها، تشعر بذلك من ذاتها ولا حاجة بأحد لتنبيهها لو اطلع على مشاعرها الحقيقية، ألم تكن حائرة خائفة على ابنتها من غربة ؟ إذن الآن هي في سعة من أمرها وفي حل من كل ذلك.

كانت حكيمة إذن عندما أحجمت عن مخاطبة ابنتها في الموضوع، هداية خفية كانت، والآن هل انتهى فعلا كل شيء في شأن زواج نجاة من حمادي ؟ وهل تنتظر بعد شيئاً في هذا الموضوع ؟ ماذا تنتظر ؟

كانت تهذي حقاً، فهي حتى وإن لم تكن قد أعطت جواباً بالقبول، فشعورها اليوم بالمهانة والضيم قوي عميق... لو كانت العروس مرغوب فيها إلى الحد المطلوب... ألم يكن ذلك أدعى إلى إلحاح أكثر من الخاطب وأهله ؟ إلحاح وطلب تعجيل وإسراع... صحيح، في رواية السعدية وفي علم سليمة الأكيد، أن زيارة حمادي كانت طويلة، ولم يُمض إلا أياماً، أسبوعين أو أقل... معناه أن الإلحاح

لم يكن وارداً ولا طلب التعجيل في الجواب، بعد أيام قلائل من المفاتحة...

كانت تهذي، تموج بها التيارات، ترتفع بها المشاعر وتنخفض، تشرّق بها وتغرب... طريقها معتم غائم مظلم... ثم ماذا تقول لنجاة في انتظارها الصامت ؟ إذا كانت لم تفاتحها من قبل، معتبرة من الحكمة أن تختزن لها الخبر السعيد، حتى تلقيه إليها كاملاً تاماً، فما العمل الآن ؟ أتسرع الآن، والآن فقط، لتقول لها إنها أخفت عليها ما كان يجب أن تعلن في حينه، والآن تعلن إليها ما ربما يجب أن تخفي ؟

طريق عودة... طريق عذاب...!

27

لم يكن مألوفاً أن تنفتح هذه الثغرة التي تمثل باباً في جدار متداع بالزنقة 14 من درب اليهودي، فقد أزَّ منذ الصباح الباكر ذلك المصراع المتآكل لباب صدئت مزاليجه ومساميره... وقوة لا تقل عنه تآكلا ووهنا تجاهد لتحريكه وفتحه... تحرك أخيراً بأناة وزأر، منفتحاً عن هذه الثغرة الفوهة التي لا تبين عما وراءها... أما القوة المتآكلة التي جاهدت لفتحه بعد طول إيصاد، بل بعد إيصاد شبه دائم، فكانت للخالة الستاتية التي ما كادت تفتحه... حتى أتمت بغاية الحذر صعود الدرجات الترابية المتبقية لتطل برأسها على فضاء الزنقة، تطيل التأمل والنظر إلى اليمين ثم إلى الشمال... ويهتز لذلك كيانها الضخم المترهل، يزداد انتفاخا وتكوراً، وكأنّها تشهق الهواء والفضاء، تتزود بما يكفيها منه شهوراً أخرى تغيب فيها عن الأنظار...

لم يكن مألوفاً أن تفتح الستاتية هذا الباب حتى في خرجاتها المعدودة طوال السنة والسنين، فمخرجها المعتاد كان بجانب الباب مباشرة، باب المتجر الكبير العميق الطول، المخصص لتخزين وتلميع المصنوعات الخشبية من خزانات وأسِرَّة ورفوف غرف النّوم، وغيرها من المرافع، وأطر الأسرة وملحقاتها... كان باب المتجر يفتح صباحاً ويغلق مساء، لكن الستاتية كانت تملك دائماً حق الدخول والخروج، متى شاءت سواء كان الوقت فتحاً أو إغلاقاً، مخترقة صفوف

المعروضات المتراصة، تزاحمها بهيكلها الضخم وهي تمرره بينها بصعوبة بالغة... كانت وحدها ــ وصاحب المتجر طبعاً ــ تملك المفتاح بحكم العادة والقانون... تم كل ذلك في حكاية يطول سردها عندما أراد المالك اقتطاع مساحة المتجر من الدار وتوسيع بابها الأصلي ليلائم المتجر... إذ ذاك اشترطت الستاتية الاحتفاظ بحقها في الدخول والخروج، بالإضافة إلى تلك الثغرة التي فتحتها بعد ذلك في الجدار كمدخل خاص مستقل بحكم العادة والقانون...

كانت في خرجاتها المعدودة تدب في المسارب والمسارات بين مصفوفات المصنوعات الخشبية، وأكوامها المركومة والمرفوعة بعضها فوق بعض، فتنعكس لذلك صورتها على سطوح المرايا المختلفة الأحجام والأشكال، بأحجام وأشكال أشد غرابة واختلافاً... كانت تدب متكورة في كيانها المتكتل المترهل، يتحرك في الظلام الدامس أو شبه الظلام، كأنها شبح يتحرك بين التوابيت والقبور، مسارات ضيقة كأنفاق في متاهة حقيقية تتقن وجهتها، حتى تدفع مصراعاً لا يكاد يلحظ، تنشق فتحته الصغيرة الضيقة القابلة وحدها للانفتاح ــ بحكم العادة والقانون ــ لتمرر المرأة كيانها من خلالها ببالغ الصعوبة المألوفة لديها، وهي تهمهم كالمعتاد بما يشبه الشتائم واللعنات على «من ضيقها عليها» لتنفلت إلى الخارج أو تغيب في ملكوتها إلى الداخل...

كان عليها ــ بحكم العادة والقانون ــ أن تبحث لنفسها عن مخرج خاص مستقل غير باب المتجر المخزن، فيما زاد عن خرجاتها المعتادة، ولحركة من يكون معها على الدوام؛ فكانت لها هذه الثغرة في الجدار رغم أنف المالك، ومقابل حق مكتسب من مكتري المتجر نفسه.

تزودت الستاتية من الهواء والنّور بقدر ما كانت تحتاج، أو بما

يكفي فيما يبدو، وتراجعت دون أن تستدير عائدة أدراجها بأناة تهبط الدرجات الترابية المحفورة... تاركة الباب الثغرة مشرعاً في انتظار حركة للزائرين والزائرات للتهنئة والاحتفاء، في يوم كبير غير مألوف من أيامها... في انتظار الغائب الحبيب العزيز العائد...

واقعاً وأسطورة كانت... الستاتية قلما تُرى، وبقدر غيابها بقدر ما كان الحديث عنها غامضاً... وحيدة في مسكن غامض مظلم، أشبه بقبو تحت الأرض حيث لا قبو، وإنما حفير طبيعي، يبدو أن البناء أقيم عليه وحوله دون أن يغيره، وربما يكون حكم العادة والقانون، هو الذي جعل ربّ الملك يبْني حول وفوق ما تحوزه الستاتية تاركاً ما به على ما فيه... حق أو حقوق استخلصتها لنفسها عنوة، وبحكم الواقع الذي أصبح في قوة العادة والقانون... وحيدة في مسكن غامض لا يؤنسها أو يتحرك معها فيه إلا الدلو المربوط إلى حبله الطويل الملتوي على نفسه قرب فوهته، والذي ترمي به إلى العمق لتجذب به الماء... وحينئذ ترى أو يخيل إليها، أن صفحة الماء تلمع مظلمة في ظلام أشد...

واقعاً وأسطورة كانت تملأ أرجاء الدرب، وما حول الدرب، بما يحكى عنها... فهي لم تكن وحيدة بالمرة، لا لأن ابن أختها ومؤنسها البشري الوحيد، يقيم معها كلما لم يكن متغيباً... بل لأن الناس يذكرون أنها تعاشر حية البئر... أفعى منحدرة من القرون الخالية، لا مثيل لخلقتها بين الأفاعي والحيات، نبت على قشرتها الشعر الغزير، يُسمع لها فحيح يتردد أحياناً في سمع الزنقة بكاملها، يتبينه الجيران وكأنه يصدر من أعماق جدران بيوتهم ذاتها...

واقعاً وأسطورة... كانت؛ يروي المتسمعون أحاديث تناهتْ إليهم،

تتبادلها المرأة العجوز والحية التليدة... طبعاً صوت المرأة البشرية العجوز، لا يختلط بصوت الحية الفحيحي الأشبه بمرور تيار هواء في قصبة ضيقة جوفاء متعرجة... تغير نبرة الحديث وتعرجات موجاته تدل على أنها تحاور... تحاور من ؟ وتتلقى السؤال والجواب... حوار حقيقي وكلام واضح في ظاهره يطرق آذان المتسمعين الفضوليين... وهي هي الحية الأفعوانية المنحدرة من قرون خلت... هي التي تخبر العجوز بكل ما يحدث في الزنقة والدرب وتزودها بالأخبار... فالمرأة لا تتخلف عن أية مناسبة من فرح أو قرح، دون أن يدعوها أو يخبرها أحد... وهي إذا زارت لا تطيل المكوت أكثر ما يتطلبه الواجب بل أقل مما يتطلبه... دون أن تكف لحظة عن الحديث الهامس لنفسها أو لحيتها على البعد، وإجالة النظر في الوجوه... مثيرة حولها مشاعر متناقضة من الخوف، والرهبة، ومن احترام وتقديس... ثم سرعان ما تقوم مودعة يتبعها من يحمل إليها نصيباً وافياً من خيرات المناسبة... لها ولمن تعاشرها، تلك المعلومة...

تراجعت الستاتية منحدرة متأنية إلى الوراء دون أن تدور أو تلتفت، كانت تتلمس بقدميها موقعها على الدرجات الترابية المعدودة، حتى تصيبها بصفحة قدميها أرضية المسكن التي تسرب إليها الضوء متسللاً من فتحة الباب...

تظل المرأة برهة متوقفة جامدة برهة، وجهها إلى فوهة الباب على أرضية المسكن الواضح، بعد آخر درجة هبوط، وظهرها إلى صدره... تظل واقفة جامدة، يعلو صدرها وكتفاها، ويتلاحق تنفسها بما بذلت من جهد في حركاتها البسيطة... تلتقط أنفاسها، تستعيدها واحداً واحداً كأنها تتصيدها من حولها قبل أن تتحرك في ملكوتها، حركة بطيئة بسيطة.

تبدأ الستاتية في شبه تجول دائري، لا يفهم له أول ولا آخر، ولا يبدو له هدف، تتجه نحو البئر تنظر إليه في عمق، ترفع وتعيد النظر كأنها تبحث عن شيء، تحدق في الأعماق المظلمة لتبينه، ثم تدور حول الصحن مرات، وتغيب في غرفة... تغيب تحت السرير ذاته، تبدو كمن يفتش عن شيء ضائع... شيء محدد وضروري ثم تخرج خاوية الوفاض، تبدأ كل حركة ببطء معهود ولسانها لا يفتر عن همهمة مسموعة لكنها غير مفهومة أبداً.

لاشك أن حركتها اليوم غير عادية، ومشاعرها أيضاً، لكنها لا تعرب... أو هي تعرب على طريقتها... وها هي ذي، بعد جمود موقف بين الغرف، في وسط الصحن، تنفر فجأة، كأنها تريد أو توشك أن تطير، بحركة كتفها... شيء ما، كأن قضيباً سحرياً لمس كيانها الضخم المترهل، فاهتزت تنشد الخفة... تتحرك بقدمين دقيقتين تحت جسمها الكبير في قبقاب خشبي... تبدو ملامح تعبير ما على محياها، ترتفع همهمتها، تصبح أقرب إلى دندنة أو تتحول إليها... إنها مرحة ما في ذلك شك.. كأن وقوفها وجمودها لم يكن إلا تهيئاً وتحضيراً للذات لتستقبل الفرح وخفة النفس... أيبدو نشازاً حقّاً، ألا تنقلب النفس فجأة من حال إلى ضده ؟ ما القاعدة إذن ؟

تخطو الستاتية نحو مسقط الضوء من الباب الثغرة المفتوحة على مقدم الصحن، تقف بمواجهته، كأنها تحتضنه... تحتضن ما وراءه من عزيز منتظر...

28

طافت الرحمونية بأطراف المنزل تتفقد ما أنجز من أشغال الصباح، وعرجت على المطبخ. بشرى تدب كالنملة في نشاط... صباح الخير أمي للا... أزاحت غطاء الطنجرة تري أمها للاها، خالتها، عزيزتها،... حريرة الصباح. نظرت الرحمونية ملياً، ثم غرفت لها بشرى بالمغرفة الخشبية تتذوق الطعم، تنسمت الرحمونية النكهة، قبل أن تمتص قليلا بأطراف الشفتين، سكتت وأظهرت علامة الحياد، نصف استحسان، تعرف بشرى معناه، نجحت إذن، ولا يمكن لعزيزتها أن تسمعها المديح على ما أنجزت أو تظهر الإعجاب، تلك قواعد التنشئة، وهي تكفي، وعلى الفتاة أن تنشد التقدم باستمرار...

في الواقع، كانت الرحمونية أكثر من معجبة بهذه الشيطانة الصغيرة، ستكون ربة بيت، زوجة ناجحة في كل شيء من أشغال الدار، أما الباقي فالرجال نزوات... موهوبة هذه الشيطانة الصغيرة، في خلق أذواق الطعام وتشكيل النكهة... يمكنها أن ترضي أذواق الرجال بذلك... أكيد، ذاك الطريق إلى قلب الرجل... لكن عليها أن تعرف كيف تحتفظ به بعد ذلك... كلهم يعجبون بالمرأة الحاذقة الصناع والجميلة طبعاً ومع ذلك... إنما للنزوات الرجالية قانونها الذي لا يغيب إلا مع ذوات الشأن... وقليل ما هن... قليل ما هم... المسألة في الدوام، كم يدوم الحب وهل... ؟ هذه الشيطانة الصغيرة قد تكون

موهوبة، عيناها، نظرتها، خفة حركاتها ونضارة ملامحها وإشراق محياها، وابتسامتها التي لا تغيب... كل ذلك يعشقه النساء قبل الرجال، وإذن يمكنها على الأقل أن تحتفظ بزوجها أطول مدة ممكنة... أما الدوام... الدوام لله وحده...

لم يكن فيض الخواطر ليمنع الرحمونية في شيء عن إتمام جولتها أو يقلل من يقظتها لما تراقب أو ينقص من همتها لذلك... الدافع يتعدى حسّ ربة البيت إلى أشغالها وواجبات دارها... إنه دور المعلمة المربية والمنشئة... كانت قد مرت على رقائق الرغيف المسمن والبغرير... وأواني القهوة والحليب جاهزة والزبدة والمربى وبراد الشاي منتصب في صينيته على حدة، مغطى وكؤوسه بقماش مخرم... تتملى الرحمونية ما أمامها وحولها، راضية عميق الرضى... تملؤها هذه الصغيرة بشرى بشطارتها وحذقها الفائق... فائق جداً... لم تر له الرحمونية مثيلا في مثيلها ومثل سنها هذا... الشيطانة أكثر من امرأة قبل الأوان، وأكثر من صبية في عمرها؛ امرأة في إهاب صبية... ترى ماذا يكون منها عندما تبلغ مبلغ النساء ؟! شيطانة بشرية صغيرة، ألطف من أن تكون من طينة بشر أو نطفة عادية... تنبىء عن ملامح جمال أخاذ وجاذبية في طريق النضوج... لا ألطف... لا أخف وأظرف !

تتابع الرحمونية حركات الصبية بحب وإشفاق... لن تظهر لها الكثير مما تضمر لها من استحسان... هذا واجبها كأم معلمة ومنشئة... إنما لا تستطيع نظرتها إليها أن تخفي إعجابها... سيسعد حقّاً من ينعم بها في بيته... ليتها تسعد به أيضاً... المسألة في العشرة والدوام لا في مجرد اللقاء والاتفاق... تعرف ذلك بالخبرة... يابنتي الزواق يطير ولو كان من قصدير... زواق الفرح والأيام الملاح... الأيام الأولى... الأيام لحظات تمر كالشهور والأعوام في عشرة الرجال ورباط الزواج...

والدوام... الأصعب المحال... قلوب الرجال كقلوب الزمان متقلبة... مهما تكن حدة الحب وقوته، ذاك الذي يذبجه لسان الرجال حبائل من حرير للإيقاع بالمرأة... الزمان كفيل بكسر شوكته... والزواق يطير... والنفاق...

اقتطفت برأس السبابة والإبهام قرصة من البغرير الذي تحذقه الصغيرة أيما حذق، تذكرها بمهارتها فيه أيام شبابها وفتوتها في زمانها، الآن أصبحت هي المعلمة الكبيرة عاجزة عن إبداعه؛ وها هي ذي الصغيرة وحدها من دون الأخريات تجيده على النحو الذي كانت تحذقه الرحمونية بامتلائه المضبوط لا أقل ولا أكثر، وبنخاربيه العميقة المنتظمة... يجب الكثير الكثير لتحضيره... الكثير من اليقظة والحنكة في الصب على السطح الخزفي الساخن على النار المدروسة المحكومة المقدار، والمسح الحاذق بالخرقة المطلية بالبيض ما بين وحدة وأخرى...

أف. الأيام بدالة... تلبس الحرير والدربالة...

تكرر الرحمونية تأوهاتها، وتغيب في ذكرياتها متابعة ومستحضرة ما ترى وما مر بها... وكل شيء... كل شيء من الخاطر الصافي والرأس... البغرير مربوط بقلب صاحبته... تقرأ على أديمه ما في ضميرها... هكذا تعرف الرحمونية وهي بالذات ضاعت منها جودة البغرير عندما ضاع منها الهناء وصفاء الخاطر والبال... فراغ الرأس... هذه الشيطانة الباسمة المشرقة على الدوام... بشرى... حالها على حال ما تأتي به أناملها الصناع من أيّ شيء تضع يدها فيه... وتحذق البغرير بالذات... تحذقه مشرقاً ناضراً مبتسماً كقلبها، فخوراً بانتفاخه المضبوط ونخاربيه المتراصة المنتظمة كشهدة نحل شهية... نحلة شهية بشرى هذه، الله يحفظها من عين الحسود ومن كل شيء.

تذوقت قطعة البغرير، وربتت هذه المرة ولو بحركة مقتضبة على كتف الصبية باستحسان، لابأس، فهي تستحق التشجيع بين الحين والآخر... تتابع حركات الصبية في رشاقتها وثقتها بما تفعل وهي مستغرقة في عمل التعسيل والتسوية للبغرير... تنظر إليها وقد طفحت ذاكرتها بعبير الحب والشباب... عندما كانت لا ترضى للحبيب بغير إفطار البغرير من يديها الحاذقتين... هي أيضاً وهي بالذات الرحمونية في أيام فتوتها، كانت تعرف كيف تصنع الأحلى والأعجب بيديها... إنّما هناء الخاطر كان المساعد وبدونه لاشيء... إلا الهم... لاشيء يبقى إلا الذكريات... شيء واحد يبقى مع الذكريات كيفما كانت... شيء فرطت فيه ولا سبيل للندم... الذرية !

آه... تتأوه وتتحسر على أنها فرطت في أن تنجب إذن... ربما كانت الآن تكون شيئاً آخر مع ابن يقف إلى جانبها أو ابنة... البنات إلى حد ما وهن محيطات بها... نجمات زاهرات كأنهن ولدتهن من صلبها... ذلك يطفىء بعض اللهفة المشتعلة بعد فوات الأوان... رفضت حقّاً جنة الجدران الأربعة، أو جحيمها، لكنها تعرضت لأكثر من جحيم... آه... من الرجال والزمان... المرأة مخدوعة... مخدوعة حتى العظم إذا جعلت رأسمالها حب رجل يصوره الحب الجميل ذاك الذي بيديه مفتتح العلاقة... لا الحب الآخر الذي رفضته... ولم تندم إلا على أنها لم تنجب... لكن، على كل حال، لا يمكنها أن تشرك بربها، لو قدر لأنجبت راغبة في ذلك أو راغبة عنه !

آه من لحظات زمان... ومن عهوده... أياماً وشهوراً وأعواماً يعرفُ الزمان كيف يطرزها بهاء وصفاء وحبّاً عندما يجود... الزمان نفسه الذي يعرف كيف يختطفها خطفاً... يبددها أشتاتاً... قِدداً...!

تائهة كانت الرحمونية، غائبة في ذكر وذكريات يمتزج فيها الأحلى بالمر والبهيج بالكئيب، في عوالم نائية، يركب بعضها بعضاً، متسارعة متباعدة، تدندن المرأة من فعلها :

طاح الكاس، وتفرقو شقوفو.
طار الحب، وبقينا نشوفو.

ــ الله الله عليك يا مي للا، حلوة... حلوة... قوليها... عاوديها مرة أخرى عافاك... الله يحفظك !

بشرى الصغيرة مأخوذة باللحن والكلمات، بالدندنة الممتعة الحزينة، لم تسمع أمها للاها بهذا المزاج منذ طويل كثير... ربما لم ترها أبداً على ما هي عليه، تشجعها على التشجيع، وتغني لها أو معها...

ــ عاوديها... ثاني الله يخليك أميمتي..!

تنظر الرحمونية إلى الصغيرة الحاذقة التي كانت تتابع النغمة العفوية بكل جارحة فيها، ولسانها بلا شك يدور بين فكيها خفية... نغمة حب وعذاب تمايل لها قد الصغيرة مع إيقاع خفيف بحركة متناغمة مع موجات أمها للاها...

ــ عجبتك ؟

أكدت الصبية بحركة للرأس إيجاباً، بابتسام وعيناها تشرقان تشعان بكل ما فيهما من حذق...

ــ قوليها مرة أخرى.. عافاك...

تعيد الرحمونية المقطع، تغيب في عالم الأغنية بصوت أكثر ضبطاً ووضوحاً وقصداً، رافعة من إيقاعها، متمايلة ممسكة يدي الصغيرة

تراقصها، حتى أتمت متهاودة كأنما صوتها والإيقاع ينأى متدرجاً متباعداً وختمت متأوهة بعمق...

أخيراً، بعد لحظة قصيرة صامتة كأنما تتابع بقايا عالم الذكريات أو تقف على بوابة تودعه كما تودع ضيفاً زائراً أو عزيزاً مسافراً، وكأنها تفيق إلى عالمها، عالم ما حولها، فتقرص خد الصغيرة باستلطاف... هذه الماردة الصغيرة لا يستحقها رجل على وجه الأرض... امرأة ستكون وأي امرأة... ومع ذلك، لو نصحتها وهي حتماً فاعلة ذلك عندما يحين وقته، فستوجهها نحو مصيرها المحتوم... مصير الحب والألم... مصير الفراش المبرقش الجميل يحترق بنار نوره المعشوق... لابد لكل امرأة من أن يطويها تحت سقف بيت رجل... رجل... زمان... يعتصرها قبل حلول النزوة المنكرة... سُنّة الزمان والرجال... المرأة زمانها الرجل... هكذا حفظت الرحمونية عن محيطها من تقول إحداهن عن رجلها : زْماني..!.

سُنة الزمان والرجال كما عرفتها المرأة... الله يتوب والسلام !

تنفض الرحمونية رأسها من خواطرها، تعود لنفسها من هذه التأملات الصباحية... مهما يكن عمق الذكريات... مرارتها؛ فهي جميلة واليوم جميل إذا بدأ فيه المزاج بالغناء والرقص، حتى لو كانت بعض الذكريات حزينة... ومن الحزن ما يبهج... الحزن المرتبط بذكرى ممتعة عزيزة، ليس كل الحزن... ليس كل الحزن مؤلماً، ولا كل الفرح بهيجاً خالصاً... هكذا تعلمت... هكذا تعرف... الماضي العزيز مهما كان ويكون فهو واحة يستظل المرء بفيئها من لفح الحاضر ولهيبه مهما كان بدوره يكون...

تنظر المرأة إلى بشرى متسائلة عن البنات إن كن قد أفقن، على

الأقل المتأخرات منهن... نؤومات الضحى مادامت أخريات ممن يضطرهن الشغل في الدار أو خارجها، قد أفقن وأفطرن وخرجن مبكرات وبمحضر الرحمونية طبعاً... فهي تفيق قبل الجميع ماعدا هذه الصغيرة الحاذقة... وتودع الجميع إلى شغله أو تسلمه إليه في المنزل...

الوقت منتصف النهار أو يوشك، وقد طافت بشرى على البنات قبل ذلك توقظهن، والرحمونية قد عادت من جولتها المعتادة في بعض الأسواق عدا سوق الدلالة، الذي له يومه وعدته عندما يكون لديها شيء يجب أن تقوم بنفسها عليه... بل إنها عادت من جولات قامت بها اليوم بمزاجها الحي... قامت بذلك كالعادة وحدها، بعد أن تركت الصغيرة تعود بالمشتريات الغذائية بمساعدة بعض صبيان الباعة في سوق الخضر... كالعادة تحررت لجولات خاصة مخصوصة، بل دقيقة متخصصة، تتطلب فحصاً وحديثاً ومساومة مع هذا وذاك، لا لتشتري بالضرورة، بل لتعرف مستوى السوق ومستقرها لا تستثني من ذلك الحرير ولا الذهب ونفائس الأواني والأثاث !

الصبية أعدت كل شيء لنؤومات الضحى، إفطار أنسب ما يكون ميقاته الغداء، أما الغداء الحقيقي فهو في الواقع جلسة عصرية...

29

لطَمتْ وجهها مولولة... هكذا فجأة، انتبهت إلى نفسها، صاحت تنادي نجاة... كررت نداءها... أعادت ولا مجيب. تركت ما كان بيدها من مرمة التطريز، وقامت تتحرك بين الغرف، قصدت الحمام، ثم صعدت نحو غرفة سميرة، ولم تكن تفهم كيف أن نجاة العاقلة المتعقلة تقصده، سميرة تشوش عليها مراجعة دروسها... سميرة المتشيطنة التي لا تبحث إلا عن تعلة تصرفها عن الدراسة... إذا كان ذلك قد حصل، فلن يعني أكثر من أن المتشيطنة احتالت على نجاة، تتسبب بصحبتها لتمضية الوقت في غير المفيد... خارج الدار... حمام الخارج ليس ضرورة لفتاة مثلهما... وإذا فكيف بدونها... وبلا إخبار أو استئذان ؟

هرعت سليمة بشتات أفكارها، بانفعال غاضب مسبقاً، تصعد الدرجات نحو غرفة البنت الصغرى سميرة، لتفاجىء المشهد : سميرة بالفعل كالعهد بها تضيع وقتها في استعراض نفسها أمام المرآه بما يستحق أسوأ العقاب وأقسى التقريع... لكن الوقت غير مناسب الآن، وأين نجاة إذا كانت غير موجودة هنا... في غرفة سميرة وصحبتها ؟ وسميرة المرتاعة من مفاجأة المشهد وما ينجم عنه، لا تفهم شيئاً في السؤال ولا في الجواب ! تظل مشدوهة، لا تفهم أمام ذعر أمها، متجمدة في وضع يعكس صورتها الجانبية على المرآة، في وضع المفاجأة

بيد مرفوعة وأخرى تغطي بعض ما على وجهها من تزاويق... أين نجاة ؟ أين...

أين نجاة ؟ لا يمكن أن تكون في غرفة عزيز... هو نفسه لن يكون في غرفته... ولا يعرف أحد متى يؤوب أو يغادر... مع ذلك، توجهت، وفتحت الباب على مصراعيه بقوة واندفاع... لاشيء، رائحة السجائر تشيع في المكان... فوضى عارمة على الفراش والأرض والأركان... علب سجائر متنوعة بعضها فارغ وبعضها يحمل بقية أو لم يمس منه شيء... كؤوس مقلوبة وزجاجات بأحجام مختلفة فارغة... عفن وفوضى... اختلط فيها كل شيء بكل شيء من مألوف وغريب... عبث لا حد له، لم يعد بالإمكان التستر عليه... ولم يكن بالإمكان إيقافه عند حده... عاجزة هي... عاجزة أشد ما يكون العجز، عن توجيه عزيز أو إيقافه عند حده... انفلت منها تماماً... المهم الآن، أين هي... نجاة ؟

قصدت الحمام الفوقي وكافة الأركان التي لا يختبىء فيها فأر هناك ! لاشيء. وصعدت إلى السطح كأنما من عادة فتاة متعقلة عاقلة مثل نجاة أن تصعد إلى السطح من قبيل المغرب إلى حوالي العاشرة ليلا... وتمكث كل هذا الوقت بدون حركة...! وفوق ذلك كله، كأنها في السطح تسمع كل هذا النداء والضجيج ولا تجيب... إلا إذا كانت لا تسمع... بل فقدت كل إحساس... وإذن يكون قد حل بها مكروه !؟

لاشيء، لا نجاة ولا أثر من نجاة... ولا ما يدل على أنها صعدت إلى السطح، أو مرت به، فأين تكون ؟

عادت سليمة وهي أشد انفعالا، تنزل الدرجات إلى السفلي تعاود

البحث... لعلها نائمة في غرفة ما أو ركن... لابد أن يكون ذلك هو ما حصل... ومع ذلك لا شيء ينم عن وجود نجاة في المنزل حية أو ميتة..!

لطمت خديها مراراً... وبدأت تصيح وهي تصعد من جديد إلى غرفة سميرة... ترتمي عليها هذه المرة، تمسك بخناقها سائلة بعنْف : أين أختك.. أين نجاة ؟

تلتقي سميرة وأمها في البحث والسؤال والحيرة... ومن جديد وبهمة زائدة تفتش الغرف والأركان وتحت كل شيء... كأنما انقلبت الفتاة نملة أو إبرة ! كل شيء... تحته وفوقه، وما بينه وبين غيره، أرجاء الدار من أسفلها إلى أعلاها، من أحقرها إلى أغلاها؛ لا تنبىء عن وجود أو حس، أو أثر موهم بوجود نجاة...

تضع سليمة رأسها بين يديها تحاول أن تفكر بهدوء؛ تتذكر آخر مرة رأت فيها نجاة أو حدثتها، كانت قبيل الغروب... كانت إذذاك في صحن الدار السفلية تدير آلة الخياطة تطرز بها ما كانت منهمكة فيه من تزيين محتويات فراش وأثاث بيت الزوجية المنتظر لنجاة طبعاً... وللبنتين معاً حتى قبل كل خطبة أو حديث في الزواج... أصول الأمومة تقضي بذلك... يخيل إلى سليمة أنها رأت ابنتها تخرج، كما تفعل عادة لتأتي بأي شيء تفتقده الدار... مما هو معتاد... أو ينقص شغلها في الخياطة والتطريز بجانب أمها... مثل ذلك يأخذ في العادة زمناً جد محدود... لا يحسب... دقائق معدودات... لكن أين هي الآن ؟

لطماتُ الوجه تتابع الآن، وترتفع الولولة، والرعب يركب الدار بكاملها، ولا تملك سميرة أمام الموقف غير المعهود، إلا أن تتفزَّع، وإلا

أن تحاول دون جدوى، إمساك أمها لتكف عن اللطم الوحشي لصفحتي وجهها...

الساعة تقارب منتصف الليل، وقد انقطع كل أمل في أن تكون نجاة في موقع معهود مألوف في الدار أو خارجها.. اللهم إلا إذا كان مكروه حصل... وإنه قد حصل فعلا فيما جرى لحد الآن... لو انبثقت نجاة حالاً من شقوق الزليج حيَّة سالمة لكان فيما أثارته من رعب بغيابها، كافياً ليمثل المكروه... أقسى المكروه... لكن هيهات... وأين هي ؟

أخيراً تدرك سميرة أن عليها أن تخرج... لترى في الدكاكين القريبة المعتادة إن كان بعضها مايزال مفتوحاً... ساهراً... لترى إن كان هناك من أثر... أو خبر... لتُسرع نَحو الباب بإيماءة تأييد من أمها لفكرتها... لكنها لاتلبث أن توقفها... توقفها لترتدي جلابتها وتصحبها في الخروج... كأنما في لوعتها وارتياعها لم يعد بالإمكان لواحدة منهما أن تفارق الأخرى بعد الآن...

أين أنت يابنتي العزيزة ؟ عبارة واهنة مخنوقة تتردد على لسان سليمة كالتعويذة... في رنة تحمل من آيات التأبين واليأس أكثر مما تحمل من آيات الأمل والرجاء... عبارة أصبحت تصدر متتالية واهنة لا تكاد تلفظ أو تسمع كأنما هي من الحلق للحلق، وقد آبتْ وابنتَها سميرة من جولتهما القصيرة الطويلة فيما حولهما من مظان قريبة أو بعيدة دون جدوى... فالدكاكين مغلقة، والليل منتصف، ولم تبق إلا أضواء بعض المقاهي الساهرة للمقامرين ولاعبي الورق والدومينو... ونجاة الحبيبة لا أثر ولا خبر...

تؤكد لنفسها، تؤكد بصوت غير مسموع، أن المكروه الآن

حصل، هو حاصل، محقق، وحتى لو أطلت نجاة في هذه اللحظة بالذات معافاة سليمة... فما حدث لحد الآن كاف... وفوق الكفاية... ومع ذلك فما أبعد الأمل... ما أبعده !

كان لابد أن تَرِدَ الفكرة مع تقدم الليل، وأن تفرض نفسها على كل ماعداها : زيارة مراكز الشرطة، والمستشفيات... والسجون... يا حفيظ يا ستار..!

ولا أثر... لا أثر في مركز الشرطة القريب، وقد تطوع الضابط الشاب، أمام حال سليمة، فكلم مراكز أخرى، سائلا وإن كان عندهم علم بنجاة بنت أحمد رقيبة، أمها سليمة بنت إبراهيم بلعبدي... وأوصافها، سمراء، في العشرين، سمرة خفيفة (حمرانية)، متوسطة القامة، وتميل إلى الامتلاء... مرتدية... كانت ترتدي... لا تدري سليمة ولا سميرة ماذا كانت ترتدي عندما خرجت... غابت...

ولا أثر، لا أثر في مراكز الشرطة التي خابرها الضابط بالتلفون، وعملاً بنصيحته قررت سليمة أن تتوقف عند هذا الحد وقد جاوز الليل منتصفه... وما وقع قد وقع...

الضابط نفسه فاه بالعبارة الأخيرة بعفوية كاملة في هيئة المُسلّم المستسلم، يجب الانتظار، لاشيء غير الانتظار، وضبْط النفس، والصبر... وعند الصباح إذا لم يجدّ جديد، يتم البحث في المستشفيات وغيرها، كان الضابط الشاب يختار كلماته بعناية مشجعاً ومواسياً... وقبل أن يطوي دفتره، سألها عن معارفها... الأقارب، الذين يمكن أن تقصدهم الفتاة في حالة تذمر أو... واقترح أن يأخذهما بالسيارة إلى منزلهما، فالوقت متأخر... قال ذلك دون أن ينتظر ردهما، وهو يومىء لرفيقه في نوبة الحراسة.

كان الضابط يحادثهما باستمرار، يطوف على عدة موضوعات بأسئلة عادية، ويعلق على أحداث مرتْ به... يشجع ويسأل عن رفيقات نجاة... وهل ترافق أو تعرف شباباً ؟..

بدت الأزقة بفراغ وهول لا حد له، كانت سليمة تجيب بعفوية كاملة، لم يثرها ما يجب أن يثيرها في العادة من سؤال الشك والإيحاء في سلوك نجاة... فراغ وهول يملك الأزقة ويغطي الجدران الكالحة في بياضها الجيري المعتم، زحمة الناس ولغطهم النهاري مع ما له من إزعاج فهو رحمة، كل الرحمة والرحمات بالنسبة لما عليه الحال والشعور، أية جدران ستؤوي قلب أم فقدت فلذة كبدها، ولا تعرف كيف ولا أين ؟

كان الضابط الشاب يتريث بين سؤال وآخر، وكأنه يتابع خواطر سليمة، أو يترك لها الفرصة لتستجمع ما لديها بين الحين والحين... ومع ذلك لم تقل سليمة ولا سميرة كلمة واحدة عن الزوج والأب، أحمد رقيبة، مما جعل الشاب، وهو يتوقف بهما عند المنزل يسأل سؤالا مباشراً عن الرجل، وعن غير نجاة من أفراد الأسرة.

أية جدران تؤوي كيان أم ملتاع ! التياع، لئن تبدَّى في أوله صورة انفعال على طيش ورعونة غير مألوفة من نجاة، فقد آل إلى غيظ أو ضيم وشعور بالمهانة يستقران... ألماً ممضاً، ويقيناً بالمكروه الذي حل... وبمجهول طبيعته ووجهته... أي عذاب ؟ قُتلت ؟ صُدمت ؟ غُرقت أو أغرقت ؟ أحرقت... جرجرت... شنقت...؟ أي جحيم ! لم يعد للكيان الجريح من ردّ فعل غير الصمت والأنين...

رمت سليمة كيانها على سطح الزليج مباشرة في صحن الدار... سارعت سميرة تحاول رفعها وتوجيهها إلى إحدى الغرف... لم تجد

إلا الممانعة، وثقل كتلة رصاصية هامدة عنيدة، ولم تستطع أكثر من أن تجعلها تقعد في شبه قرفصاء محتضنة رأسها بكفيها، كأنما تمسكهُ من أن ينفصل أو يهوي، محدقة بفراغ رؤية لا تبصر، في المربعات الصغيرة المتوازية المتقاطعة، كأنها تقرأ تفاصيل الهول أو تتبع سطور خواطرها المتضاربة...

جلست سميرة على حافة الفراش عند مدخل الغرفة المقابلة، كئيبة ساهمة، تتابع والدتها متحفزة لكل حركة طارئة، تلفُّها الحيرة والهلع، ويضنيها شعور بالعجز عن التصرف... ففي خبرتها المتواضعة، كل هول يهون أمام ما يجري من حال أمها وغياب أختها...

يمضي الليل... آخر الليل، ثقيلاً بطيئاً، قاطع الحد، دون أن يغمض لسليمة جفن، أو تتحرك عن وضعها كأنما قُدّتْ من جمود... بينما بدتْ سميرة رغم مقاومتها تتمايل في مجلسها بين الحين والآخر بفعل الإرهاق، تغفو لتصحو... وتصحو لتغفو...

لحظات إصباح بطيئة، تقبل معها خطوات عزيز متثاقلة متراخية... يسمع لوصوله صخب أمام الباب وهو يتبادل التعاليق مع شلته، أو يحدد آخر مواعيد اليوم الموالي... فتتعالى الضحكات وتتجاوب النكات والمستملحات والتعاليق الماجنة في آخر لحظة يوم من عمر، أو عمر من يوم... سُمِع هَدير، وانطلاق قوي لمحرك سيارة تستأنف توزيع شلة الأنس مجزأة على الأحياء والدروب...

حركة المفتاح حول قفل الباب تتكرر بحركة يد لا تملك أن تتوافق... تتوقف الحركة وتبدأ من جديد كأن صاحبها يأخذ أنفاسه بين مرحلة وأخرى من جهد هذه المعركة الدقيقة الطويلة في آخر ليل طويل يلفظ أنفاسَه الأخيرة... تطول الحال، ويصادف سمعُ سميرة في

لحظة، ما بين صحو وإغفاء... تدرك الموقف فتقوم لتسحب مصراع الباب الذي كان مفتوحاً، لتبقى حركة يد عزيز مجمدة في الفضاء، تبحث دون جدوى عن ثقب الباب، مشفوعة بنظرة مشدوهة بلهاء بفعل المفاجأة، وبجهد جهيد ليستجمع قواه وشتات الموقف العصي على إدراكه الخامل في هذه اللحظة بالذات، بينما تكون سميرة قد تركته مجمّداً، وعادت إلى مجلسها... يدخل عزيز، يُفاجأ بما يرى... الحال كلُّه ينبىء بشيء غير عادي... فوق... غير عادي... ماذا ؟

ــ نجاة !

ــ ما لها ؟

تحيطُهُ سميرة بالموقف باختصار.. لأول مرة منذ محنة اليوم، تشعر سميرة بأنها ترغب في البكاء، أو تبكي برغبة في ذلك... تحكي لعزيز... وقد طمأنها دخوله بعض الشيء على ما هو عليه من حال في آخر الليل، بداية الصباح... وشعرت بما هو أهم وأعمق، بأنه أخوها، درع يحمي ويؤنس، إنها وجدتْ من تتحدث إليه بما هم فيه.

ظل عزيز يستمع مشدوها... طار عنه في لحظة واحدة أثر الخمول والسهر وطيش ليلة بكاملها، نظر إلى حال أمه في وضعها المونس المؤسي، في محنتها ووحدتها... لم تنبس بشيء، ولا نظرتْ إليه منذ دخل، كانت مجمّدة إلى جلستها وإلى تحديقها الدائب الغائب في أرضية الصحن... رنا إليها لحظة ثم أقبل نحوها في تهيب... أقْعى بجانبها ورَمى ذراعه حول كتفها يحتضنها إليه، وسرعان ما تهاوت نحوه بصمت، بيْد أنّها كانت في أعماقها تنتحب بصخب يهتز له كيانها حيناً بين حين...

مضت لحظة على هذا النحو، ثم قام عزيز يرفع أمه، يساعدها على

النهوض إلى جانبه، قامت بتثاقل كبير، مستسلمة طيّعة وسار بها يشُدها إلى صدر الغرفة، حيثُ أجلسها، وأسرعتْ سميرة تساعد أمها على التّمدد وتغطيها بلحاف...

بدا الآن كل شيء هادئاً، بل عادياً جدّاً.. إلى حد يسمح لذهن عزيز بأن يعمل ويفكر بما يجب أن يعمل... الواقع وقع بكل ما فيه... ولابد من تقبله ومواجهته.

زرَّر عزيز جاكتته في حركة تأهب للخروج، نظرت إليه سميرة متسائلة ومدركة قصده. يجب انتظار بداية النهار، فلا شيء يُعمل الآن، أو يمكن أن يعمل...

اتجه عزيز نحو الباب في عزم، هو بالذات لا يستطيع أن ينتظر..

كان شعوره قوياً بأنه مقصر... أو أنه منذ اليوم أصبح مسؤولا؛ كأن هذا الحدث كان ضرورياً ليفيق من حاله... خطوات معدودة خطاها عزيز خارج الدار، ثم توقف، كأنه يدرك أنه لم يحدد وجهته : إلى أين ؟ وبدا مشغولا بجد، يسترجع ما مضى... وكأن ملامح نجاة... كأنها تطلعت عليه في هيئة المتسائلة أو المشتكية أو المتذمرة... ملامح تبدو كالوهم... مرسومة وراء غيم... لا، لم يكن ليأخذ الملامح تلك إلا على أنها تساؤل عن حاله أو استنكاره له، لن ينتظر الغد، من أين يبدأ ؟

30

رغم الرطوبة والظلام، ما تلبث العيون أن تتعود على الرؤية... تلك الفترة القصيرة الفاصلة ما بين فترة الضوء الساطع، ينتقل منه المبصر إلى خط العتمة المضببة أمامه، تعرفها الزائرات، تذكرهن بأول خطوة على عتبة قاعة حمام ساخنة فسيحة ندية. فترة التبين عند العتبة، لا تشعر بملامح أو حركة إلا تعالي أصوات من هنا وهناك، كأنها صادرة من قبو أو فراغ بعيد،.. ثم يتحول كل شيء تدريجياً إلى بعض رؤية، لتنخرط المبصرة بدورها تخطو في عالم العتمة المضببة...

تتبين العيون شيئاً فشيئاً عدة غرف متقابلة، ثلاثاً أو أربعاً... ثلاثاً على الأقل مع صحن فسيح ومكامن وأركان متعددة... ملجأ دائم ومقام صالح لمختلف أرواح الشر وألوانه..! أليس هو منزل الستاتية ومقامها الدائم ؟ من يستطيع السكون والسكن هنا غيرها وكائناتها الغريبة ومخلوقاتها التي لا ترى ــ لغيرها على الأقل ــ وإنما يلمس منها الأثر ؟

بهلع ترمق العيون بعد لأي موقع البئر، فتقشعر الأبدان مستحضرة كل ما يذكر حولها من حكايات... من يدري، فبإمكان الزائرة لمنزل الستاتية هذا أن تتصور وتتأكد في تصورها من أن ما يروى، ليس إلا أقل القليل مما يحدث أو قد يحدث ؟!

بهلع تتبين العيون المحملقة صاحبة الدار الستاتية في هيكلها الضخم المترهل تظهر الحفاوة بزائراتها المهنئات... ويبدو واضحاً أنها في حاجة إلى المساعدة فيما هي فيه، فتهب الأكثر نشاطاً منهن، الأكثر معرفة وجرأة من بين الحاضرات تقوم بالمبادرة والمساعدة... ثم تتشجع أخريات متطوعات في مختلف الأشغال من كنس وتنظيم وغسل ونفض وترتيب، تتعثر بهن الخطوات في البداية بدافع التوجس والتردد، ثم بعامل الاحتكاك في الحركة وتعارض الاتجاه، وسرعان ما يستتب الأمر، فتختص كل منهن بشيء، وتتعاون بعضهن في آخر... إنّهن في النهاية، بدون إعلان أو تخطيط وقعن في النظام والتنظيم... ليصلن في النهاية إلى أواني الشاي مرتبة جاهزة منتصبة !

مهما يكن، فالمناسبة سعيدة.

مهما يكن فهذه الحركات المساعدة العاملة في المكان والمقام بهمة وحماسة هي أبعث على الاطمئنان والأمان، إنّها بمثابة تضحية أو قربان يقدم لما يمكن أن يعمر المكان من أرواح شريرة أو خيّرة... فما أساء أحد مهما كان ويكون، ولو كان الشيطان ذاته، إلى من يخدمه ويخدم مقامه بإخلاص ! بعض النشيطات الكريمات يصل بهن الأمن والأمان وزوال التهيب والتوجس إلى التحرك ما بين دار الستاتية ودورهن في إحياء المناسبة...

31

بدأت بعض نساء الحي تفدن على ثغرة الباب المفتوحة حوالي منتصف النهار، كن يتريثن كثيراً عند المدخل، تحدق الواحدة منهن جيداً في المنحدر لتتبين موطىء القدم... ولعل تريثهن كان يطول بسبب التهيب والتوجس والتعوذ، فما كان لواحدة منهنّ أن تغامر بزيارة مسكن الستاتية وحدها أو عن طيب خاطر... إنه الواجب الذي لا مفر منه... ووفود الزائرات مثنى وثلاث عامل مشجع ولكنه ليس كافياً، فحتى مع الجماعة داخل البقعة المخيفة، لا تدري الواحدة منهن أثناء الجلسة أي شر يمكن أن يتلبسها... حتى الفُضول على قوته عند النساء لم يكن ليدفع هاته المخاوف بعيداً...

تتريث الواحدة... وتظل تتردد أمام درجات المنحدر، تتلفت خلفها أمام من يشجعنها وهن مترددات أكثر، ويدفعنها لتتقدم برفق خائفات... ويظللن يراقبن انحدارها المتلفت متوجسات مشفقات... وهي في شبه التفاتة عسيرة دائمة... فضيق المسرب، وصعوبة تحصيل القدم لموطئها بسهولة على درجات شبه وهمية، لا يترك فرصة لالتفاتة حقيقية أو استدارة كاملة... حتى إذا أوشكت أن تغيب، وبدا أنها أسلمت نفسها للتجربة والمصير، تَلتها غيرها بالتردد المعهود نفسه والتوجس عند موطىء القدم... وهكذا دواليك...

بين الحين والآخر كانت شهقة ارتعاب تعلو من إحداهن لدى

الشعور بانفلات في بحثها الشاق عن موطىء على إحدى الدرجات... ثم يعود الانحدار والتوجس والشهقات.

تعلو زغرودة مترددة خجلى من إحدى نوافذ الزنقة 14... ماتلبث أن تتبعها ثانية أكثر ارتقاءاً ووضوحاً ثم تتجاوب الزغاريد... مصعدة من عمق دار الستاتية ومنحدرة من عديد النوافذ المشرفة...

تتدحرج الستاتية مصعدة درجاتها المعلومة ببعض الخفة والمساعدة، تتبعها بعض ممن حضرن، وتقف أمام ثغرة الباب على أرض الزنقة تتبين ما ظلت تنتظر... يبدو لها محيا الحبيب مقبلا هالاً مبتسماً... ابنها... عزيزها حبيبها علي.. علِيُّها الذي غاب سنتين... أكثر... من يستطيع أن يقدر غيبة الوحيد الحبيب الغالي في السجن بزمن حقيقي ؟ رجل لا كالرجال... من يشبهه في عنفوانه وصلابة عوده، واستقامة متنه ؟ سيد الرجال.. وسيد الشباب.. زين الدنيا بأسرها.. هو.. هو بعافيته وكماله، لم ينل منه الغياب ولا وحدة السجن وغربته... لا ينال من وحيدها الحبيب شيء... هو هو، علي الشخش.. عليُّها يتحرك نحوها بهامته وامتداد قامته، يتقدم في ثبات تتمايل فتوته في خطو متئد لا مسرع ولا متعجل... يبتسم لها ابتسامة تزداد اتساعاً... وحيدها... حبيبها... عليُّها... شخشها... لا ينال منه شيء... أي شيء... أبداً... وإن كانت مما في بَوْحها تود أن تقول إنه أكثر هزالا... مما كان... هزال بسيط لا ينال من صلابة عوده... وعافيته... ويجب عليها مع ذلك أن تقول إن هزاله ذاك أحفظ له...

يتقدم علي الشخْش بتؤدة وثبات بالغيْن، وبحركات مختالة تزيد من مهابة قوته ومظهره، تحيط به شلة من أصحابه وأتباعه... شباب في مطلع الفتوة... ولا شيء في مظهر الرجل يوحي بأنّه عائد من سجن

سنتين أو أكثر.. يتقدم في خطوه، يجر معه بعض الفضوليين عدا الجيران والمعارف الذين يمدون إليه أيديهم وألسنتهم بالتحية والترحيب والسلام... لسان حاله يرد على الجميع شاكراً، وهو يومىء بعيني جُرأته المعهودة إلى كل شيء حوله... كأنه لم يفارق الزنقة أوالدرب لحظة واحدة.. كأنه لم يعرف في حياته سجناً.. هو الذي ينتقل من فترة سجن إلى أخرى، بينهما فترة استراحة هي أقل الفترات وأقصرها في حياته... السجن ليس أكثر من تغيير فراش بآخر... وأي آخر ؟! لا عليه فهو مرة هنا ومرة هناك... يؤثر عنه أنه كلما غادر زنزانته أوصى خيراً بفراشه هناك... ريثما يعود... يعتبر نفسه في زيارة إلى عالم خارج السجن أو في إجازة... يحكي ذلك عن نفسه بابتسامته العريضة...

ترتفع الزغاريد والضرب على البنادير والأكف، من جانب الشلة المحيطة بعلي الشخش... ومن النوافذ المشرقة، والمتابعين والمشاركين من كل اتجاه...

بدورها الستاتية تتحرك باستمرار باتجاه الحبيب المشرق المقبل... بودها لو تطير... إنها تطير إليه فعلاً... لولا أن كتفيها هما فقط، كل ما يحاول أن يطير في هذا الكيان الضخم المترهل... تتحرك بكتفيها وكأنها تسرع فعلاً، إلا أنها لا تزيد عن أن تدب... دبيباً بطيئاً مترنحاً... مقبل عليها بعافيته وسلامته وهنائه... تَضُمه بذراعيها في فضاء الزنقة... يترنح هيكلها مع ضمته القوية على كيانها... لئن كان هيكلها ضخماً إلى هذا الحد، فعوده قوي متين، فارع جبار...

تتجاوب الزغاريد حول الكائنين الملتحمين في الضم والتقبيل والشم... وحيدها العائد المؤنس الحبيب... وأمه التي لا أم غيرها أو

مثلها... مخلوقان عجيبان في خلقتهما، في تعلقهما... كانت المرأة تضم وتربت على كتفي الشخش وما تفتأ تضمه ذات اليمين وذات الشمال، كأنها بالضغط والتمايل تدفع بكيانه المحبوب داخل حناياها... كأنها بذلك تصل أعماقها بأعماقه... وعلي الشخش، متوترة عضلاته البارزة كالحبال بموقف الضغط والعناق لوالدته، يهادن في الضم ويفتر مرة بعد أخرى، كأنه في رجولته يتعفف عن كل المسايرة لهذا الضعف الأمومي الحنون أمام الملإ، والمرأة بين الحين والآخر تبعد وجهها عنه قليلا دون أن تخف ضمتها حوله، تتملى ملامحه، لتعود تغمر ذاتها في أنفاس ذاته، تتشممه، وتمرر كفيها على كتفيه. هو بدوره في أعماقه ورغم التجلُّد الذي يمثل سمة عميقة فيه، اكتسبها طبعاً أو ولدت فيه فطرة، يشعر براحة غريبة كلما أحاطته بهذا الحنو، كلما أتاح لها الفرصة لتفعل ذلك به... إحساس راحة ونعيم، يذكره بإحساس المقرور المطارد بالخطر في ليلة عاصفة قارسة ممطرة، وقد أواه فجأة فراش دافىء ناعم... هكذا، أوَاه، كما هو... مبتلا موحلا بكامل ما عليه، وغشيه بدفء الغطاء الشامل يلمه من قدميه كما هما في حذائهما الموحل إلى قمة رأسه ويأخذه في نوم الأمان...

هو ذا شعوره... هي ذي أمه...

32

وطيس المعارك يرتفع حامياً على سطح الطاولات، النادل العجوز يتلوى في حركته بين المقاعد بمرونة تيسرها الدربة ولا يسمح بها السن. نظرة عيادي ترنُو إلى مكعبات الدومينو في حسرة... أقصي لثالث مرة، وأدى ضريبة الخاسر... ليس في هذا جديد، ولا فيه ما يبعث الأسى... إنما الأسى في أن يكون القشاش هو المنتصر...! هذا الفم الأغور واللسان السليط القذر... سدْ عليه... سرْ وخلِّه... سد على الوليِّد... على الزين المقلوب، والوجه فاضي مكبوب... حلاوة الحدْجة وحبّ الرمان..! سد عليه في الحبس، يقطع الحس، لا حركة لا نفس..! سدْ عليك يا وليدي المعلم... إيوه سر تعلمْ... تعلمْ تدخل، تعلمْ تخرج... تعلمْ تحبو، تعلمْ تدْرج ! بُس اليد، بُس الرجل وبُس الراس، واخدم المعلم يرضى عليك وما يطرا باس !

أعوذ بالله من زعاف لسان لا يهدأ ولا يرتاح... أفعى رقطاء !

كان عيادي يرمق الرقعة والمكعبات المنقطة... لم يسعفه الحظ، وليت ذلك حصل مع آخر غير المهرج الأغور... تتعرج المكعبات المكسورة، تتعرج ملتحمة، تنفتح وتنغلق كما تفعل معه أو يفْعل بها عندما يُواتي الحظ والخاطر... ولم يكن عيادي يبخل على نفسه بمعالم الانتصار، حركة ولفظاً، لكنه لا يذهب في ذلك مذهب التشنيع والتشهير... مذهب أغور الفم، المهرج... ولا يستطيع ذلك لو أراد.

لا تطاوعُه النفس، ولا يبلغ شأوه... ومن يستطيع ذلك ؟ كل كلمة... كل حرف من فم القشاش الأغور نفثة سم... جرح وجرعة علقم في حلق عيادي وسمعه... تذبيح مُتأنٍ بحد مثْلوم مفلوم !

وتلمظ عيادي وحرك رقبته، كأنما يدفع عن نفسه إحساساً بالمرارة والحرج... نظر حوله يبحث عن متنفس، ومالبث أن تحرك يقتلع نفسه اقتلاعاً من المشهد... متنقلا إلى طاولة التجاري بِصَخَبٍ لا يقل عن سابقتها، لكنه صخب محدود مقبول، وهرج عادي، يختلط فيه الضحك بالمرح والدعابة بألفاظ التحدي والنصر، عادي جدّاً كما يحدث كل يوم... عيادي نفسه في انتصاراته على هذه الرقعة أو تلك، يرفع نفسه الزُّهو والفخر، ويضرب على الطاولة ضربة كأنها على ظهر الخصم تقصمه، يغمز ويلمز بالخفيف الظريف المقبول... في حدود لا يتعداها ولا يمكن... يأتي بما يضحك له وخصمه، عليه وعلى خصمه... لهذا خُلقت اللعبة لا لغيره من نفث الزعاف... الجارح، أعوذ بالله من سياط ألسنة هذا القشاش الفياش الغشاش... لو أنه ينتبه إلى نفسه وحاله... العسلي يرتع في داره، بل في عرضه... أليست الدار عرضاً... وأي عرض ؟! العسلي يكتري دكاناً في الدار ظاهره السمسرة وباطنه العذاب أو العكس...! وما خفي أعظم... أعظم بكثير وأكثر ! أحوال الناس، صميمياتهم وخصوصياتهم تفتح وتشرح وتملح على يديه... باطنه العذاب وأشد !

انتفض عيادي وعاد إلى نفسه يتابع جولات التجاري، وخُصومات السوق ومزايداتها... عينه على لحظة التوهج، لحظة التقاء الفارس المنتصر بالصولجان... بالبهجة وشارات المجد... لحظة تصنَعها بالذكاء والمناورة... عندما تراوغ بورقة ضعيفة تتهاوى لها أسلحة القوم... مراقباً بعين اليقظة والحذر بادرة الغش... تحسسْ حيرة المأزق في تململ

صاحبك الخفي... انظرْ إليه يصُر كتفيه، يضيق به المقعد... يرنو مستنجداً... لا تتركْ فرصة العمر، هنا فرصة تكسير المناعة وحصنها العنيد العتيد لدى الخصم... عينك عليه ولسانك يضرب لإرباكه... ضرب لسان بشري يبهج المتفرج والسامع... حتى الخصم، قد شاركك بردٍّ ما، أو استجابة مفيدة... إنسانية بدورها... العياذ بالله من ألسنة مهرجة سليطة سامة !

تابع تهاوي الأوراق، تقاطعها على الرقعة والدلالة مطلا برأسه يلم بمحتوى الأوراق لدى اللاعب الأقرب إليه... نشوة وتطلع يعرف المتمرس وقعهما في النفس، عادية جدّاً أوراق اللاعب الأقرب... بيد أن ما عند ظهيره يؤخذ في الحسبان... ويمكن بالحذق والفطنة أن يصبح عتاداً ينزل الهزيمة بالخصم يُكبده خسارة الشرْيَة...مايزال حلقه يغص بالمرارة والجرح، متابعاً معركة السوق الحامية وخلط الأوراق والأثمان والأصوات والخواطر... في انتظار جولة تجارية جديدة...

في مرارة غصته، لم ينتبه عيادي وهو يتابع مناوراتها ومزايداتها، للقابع على القرب منه، غير حافل بعالم البيع والشراء، ناشراً أجنحة صحافته حائلا بينه وبين الكون حوله، منغمراً في مؤامرات... ومؤتمرات... مولاي المقال، إدريس المقالات، بامقال...!

ولم يكن با مقال بالذي تفلت منه فرصة كهذه، عيادي خارج السوق، هارب من معركة، رمته هزيمة اللعبة، فريسة ضيم واجتراح... فرصة متاحة، هدية مصونة، وفي ورق سيلوفان مبرقش... يغري ويجذب بتحليل الكون كله... ولكن لابأس من التخفيف... ظروف التخفيف تدخُل في الاعتبار هنا أيضاً... يجب أن يفتتح بحديث خفيف يستدرجه... لابد من موضوع يهمه بدرجة كبيرة ومباشرة... ما رأيه

إذن ؟ لم يكن عيادي ليسمع السؤال أو لينتبه إلى مصدره، فمرارتُه تحولت عن كل شيء إلا الرقعة... كأنه يغرق الهزيمة في المتابعة والتركيز... حماسته معدة لذلك.

ويغوصُ با مقال في الصفحات المنشورة على مصاريعها مفتحة أشرعتها على الرياح الأربع... ينهي جولة بين السطور، ثم يطويها ويسأل صاحبه مرة أخرى عن رأيه، وهو يلكزه بمرفقيه، حتى لا يترك له فرصة للتجاهل... لكْزة غير رفيقة بقصد... ما رأيه ؟ فيم ؟ ويوشك عيادي أن يعود إلى رقعة تركيزه وهو يركب على سؤال سؤالا سطحياً، دون أن ينظر إليه... فيمَ ؟! وتعود لكْزة المرفق... تعود بشبه خشونة أو أكثر... ما رأيه ؟ كلخ... حمير... ماذا يقول عيادي أكثر من ذلك ! وكأن لكْزة الجار تشجعه في تعليقه القاسي على اللاعبين... هو الذي لم يبتلع مرارته بعد؛ أعوذُ بالله... لكل طريقته في المناورة واللعب... لكن الأخطاء الكبيرة لا تغتفر ولا تقبل... وهي تفسد اللعبة والفرجة على السواء... كلخ ! وأكثر !.

كان با مقال قد طوى جريدته، أو لمَّ بعض أشرعتها على الأصح، واقترب بوجهه من صاحبه المنغمر في حركة الرقعة شبه الملتفت إليه... اقترب من أذن عيادي وهو يلكزه برفق رفيق هذه المرة، لمجرد التنبيه إلى ما سيسر له، ويقول إنه لا يسأله عن اللعب !

يلتفت التفاتة كاملة... لا نصف استدارة ولا شبه... تبتسم في وجهه نظرتا المقال واسعتان ثخينتان... أهلا..! يبتسم له، وقبل أن يجد الفرصة ليستدير عائداً إلى رقعته وتركيزه، يقدم له المقال صفحة مطوية واضعاً أصبعه على الخبر... انظر... رنا عيادي إلى سبابة الرجل في موقعها الضاغط على الصفحة، تكاد تنفصل كعابها مارة على

حروف العنوان بتتبع وتؤدة، يتساءل عيادي إن كانوا، إن كانوا أخيراً قد نشروا فعلا مقالة صاحبه أو مقالاته..؟! لا، لا. يجيب الرجل في هيئة غير المكترث بموضوع السؤال، وينطلق يقرأ العنوان المقصود على سمع عيادي وسبابته الطويلة المعروقة تتابع الحروف : حرب على الفساد... الرشوة... المحسوبية...

لم يكن عيادي راغباً في الفهم، ذهنه الخامل عن هذا التوجه لا يسعفه، وفعلاً لم يفهم... ودارت عيناه في محجريهما تبحثان عن مخرج من فخ أدرك متأخراً أنه وقع فيه إلى القَعر... فخ با مقال وأحاديثه التي لا تنتهي... وابتسامته الآن تحت النظارتين السميكتين اللماعتين مطمئنة إلى مشروعها، تنتظر استجابة مُرضية...

يزداد شعور عيادي بالحرج، لا تسعفه البديهة ولا خمول العزيمة بأكثر من أن يقول في هيئة المستعجل على عودته إلى وضْعه باتجاه الرقعة... صحيح..! حقيقة..! ويزُمُّ شفتيه بالكلمتين الخالصتين المخلصتين لوجه الحق والحقيقة ! لكن با مقال قد انطلق، دون أن يعبأ بشيء، يقرأ تفاصيل الموضوع بهمس مسموع، مختلط بتعليقاته على ما يمر أمام نظارتيه... هذه هي الصحافة... صحافة حقيقية... محاكمة الفساد بكل مظاهره... هذه بلاد المروءة والشجاعة والرجال... مجتمع العقول والضمائر... حزب حاكم بكامله يتهم بالفساد... قيادته تحاكم وهو الحاكم ! هذه مجتمعات حقيقية... وما رأيك في أمة العرب والإسلام ؟ لينظر كل منا وراءه وأمامه وإلى جانبه... أليس أولئك الأجانب الأعاجم العلوج أولى بالانتساب إلى حضارة العرب والإسلام... عدالة العُمَرين وقوة الرشيد وابن تاشفين ؟!

فخ حقيقي ضابط مضبوط، محكم محكوم وعيادي لا يدري ماذا

يقول... فهو لم تتح له فرصة الفهم، ولا يدري ولا يريد أن يدري ما الموضوع... ثم هو مبيّت نيته على ألا يفهم، وألا يشارك، بل على أن ينقذ نفسه من فخ مشبك شديد التعرج والتعقيد وافر المداخل والمبتدآت، بدون آخر ولا مخرج ولا خبر !

قال عيادي لمجرد طرد نفسه من المشاركة، ولإشعار المقال بأقل ما يمكن من المجاملة الدالة على أنه لا يرغب في استزادة ولا متابعة :

ــ أولاد الحرام !

هل يخفى على المقال أن الجواب لا علاقة له بالموضوع... يجب ألا يخفى عليه ذلك، لأن عيادي لن يزيد بعد هذا إلا التحصن بالصمت المطلق، هذا عزمه، هذه عزيمته، هه !

ابتسامة النظارة الثخينة مطمئنة إلى مشروعها، تسأل الآن بهدوء ووضوح، باتجاه مقصودها الحقيقي، لا يهم انحراف الجواب ولا عموميته أو ابتعاده عن الموضوع، المهم والأساس أن با مقال حظي بجواب، ولن يوقفه شيء... يسأل الآن عن ضمائرنا نحن وشخصيتنا وتاريخنا ومستقبلنا ؟

مرغماً عيادي، أصبح في استدارة كاملة إلى نظارتي صاحبه... وانتهز با مقال فرصة الحيرة التي اعترت عيادي، ليستبد به ويديره بمقعده نحوه، ويكاد يصبح بمواجهته... لينظر ما حوله، سمسرة العسلي والعسليات، تجارة الغش، ثروات ترتفع وفقر يلتمع... فساد وأجيال فارغة، أوكار وأغوار تتوالد في دواخل الناس وأعماقهم... لو فتحت القلوب، ماذا تجد ؟ لا تقل توادداً، تعاوناً، محبة... لا تقل تعبداً، صلاحاً، وفضيلة... لا تطمع في نقاء وتربة خصبة مهيأة جاهزة إلا

لغش وانحراف... وتمثال الفساد يعطي السلام، وعليك مني السلام، يا أرض أجدادي !

انظر حولك... انظر... ويسارع با مقال بتثبيت وجه عيادي بمواجهته حتى لا يلتفت فعلا ويفلت... هيهات... انظر حولك... ليس هنا فحسب. افتح عينيك وبالك إلى ما يجري حولنا في العالم أين نحن وأين الآخرون ؟ كيف وصلوا وكيف لم نصل ؟ ورثة العمَرَيْن والرشيد وابن تاشفين، نحن أم الآخرون ؟ وانظر الآن حولك هنا... في هذه الجلسة، ماذا ترى ؟ ألا ترى ؟ انظر وتمعن. وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ! أفق يا أخي. أفق معي...

ويا أمة ضحكت...!

شحنة نظرته تلهب سمك الزجاج، محدقة بعمق في عيني عيادي المذهول من تدافع ما يسمع... وكانت يدا المقال قد تركت صفحاتها لتمسك بكتفي عيادي الذي يتابع بدون فهم ولا استجابة... علينا أن نرفع الرأس... نرفع اليد والصوت ونشمخ بالأنوف... نحن ورثة العظماء وأمة العرب والإسلام... علينا أن نتعلم نحن الكبار قبل الصغار، كيف نعلو ونضحي... ونعلم أبناءنا ذلك... منّا نحن يتعلم الجيل، كم ملاّك منا اليوم يستطيع التبرع بداره مدرسة ؟ كم معلم أو أستاذ يستطيع أن يضحي بوقته يعلم الأجيال الصغيرة والكبيرة... ألسنا أمة التعاون والتعاضد والتآزر ؟ كم طبيب وكم محام... وكم... وكم من أولي المال والكنز يستطيع أن يكون القدوة في جهاد الوقت والمال ؟ كيف إذن ننهض ؟ أنبقى فريسة ثالوث الجهل والمرض والفقر إلى يوم يبعثون ؟.. أنبقى... ويبقى المفسدون والغشاشون يرتعون ويتناسلون والضمائر تموت ؟! العقول والضمائر كائنات حية فينا وبنا، شبيهة بالغرس والنّبات إذا أهملت ذبلت وماتت وذرتها الرياح...

سيل لا ينقطع، وذُهول عيادي عميق عميق، أُخذ على غرة مصلوباً مُنَوّماً... والسيل لا ينقطع، ويسأله ما رأيه ؟ صحيح، حقيقة، كله حق وحقيقة، عندك الحق... إيه... إيه...

ترتفع ضجة المعركة من مركز الطاولة المجاورة، أيمان مغلظة وأيد تهتز... يجدها عيادي فرصة للإفلات من أسْر صاحبه يستدير ليلم بما حصل في لمح البصر مردداً... كلخ... كلخ... وبهايم...!

فعلا بدا لعيادي أن خطأ لا يغتفر كان سبب خسارة وربح... خطأ غفلة وبلادة، أولى بمرتكبه ألا يعاود الجلوس إلى الطاولة... فعلا يجد عيادي أنه يتأفف من مستوى اللعب، وبوده لو يفر بنفسه وينأى عن هذه الرقعة والفرجة، لولا لسان القشاش لظل في رقعته يتفرج ولو بعد خسارة... كن السبُع وكُلني ! هذه كلمة اللعبة، والفرجة نفسها، بهجتها تضيع إذا نزل المستوى إلى مثل هذه الغَفلة...

فعلا يعول عيادي على أن ينصرف بنظره وباله عن الفرجة، على الأقل ليريح ذهنه... نظارتا با مقال ترصدان حركاته، بل إن همساً بلغ درجة من القوة أطلقه سي إدريس المقالات، دون أن يجد منفذاً لكيان عيادي المنشغل بخبطة الغفلة والبلادة على الرقعة... ضاع الهمس والمسموع وحتى الحركة المنبهة المشوشة لكن عزيمة المقال لا تيأس.

نظارتا المقال ترصدان بهدوء واستكانة حال عيادي الباحث عن منفذ لضيقه بمشهد الرقعة، تدرك النظارتان بخبرتهما أنه لابد أن يتلفت على ألا يفلت.

فعلا، يتلفت عيادي بل يستدير في حركة عفوية تنشد الخلاص من أسر رقعة متدنية المستوى إلى هذا الحد... حركة عفوية تدل على أنه نسي مقام من يترصده إلى جانبه، وما يكاد يتم التفاته بحركة المقعد

يوشك أن يتأخر به قليلا، حتى تواجهه الابتسامة العريضة الهادئة تحت النظارتين السميكتين لبا مقال ! يالله ! بسرعة يحاول عيادي أن يؤسس انخراطه في جو الرقعة، بسرعة مدهشة يعود أدراجه وباله إلى الرقعة... يطل على يد هذا، ويتطلع إلى أوراق ذاك، يحدق في الرقعة، ويجول بالنظرة، هنا وهناك كأنما يؤكد لنفسه ولمن يترصده، أنه ليس هنا... بل هنا في الرقعة... منهمك في اللعبة، لا في غيرها ومصمم على ذلك !

كلخ... كلخ... بهايم وأكثر..!

يؤكد ذلك عيادي بهمس متعمد مسموع، يريد به أن يعرف من يجب أن يعرف، أنه غائب ذائب في عالم آخر يستغرقه في كليته، ولا يتحمل مزاحماً أو منافساً.

يستقر الوضع بعض الشيء، يضمن عيادي لنفسه أنه أشعر من يريد، بما يريد، يحس بنظارتي با مقال تجوسان في كيانه، حذو العنق والرقبة والكتفين، يحس بأنفاس الرجل باردة وساخنة تداعب مقتربة منه في تودد واستجلاب...

يقفز عيادي كالثائر على ما يجري في الرقعة... كلخ... والله العظيم كلخ...!

آه، آه، واأسفاه على يوسف...

يا أمة ضحكت !

33

انتفضت سليمة على صوت طرق الباب، كحالها طوال أيام المحنة... أسرع عزيز نحو الباب يفتحه على غير عادته منذ اختفاء نجاة... فقد أصبح سنداً لأمه وأخته في وحدتهما... على الأقل، أصبح مهتماً ولا يكاد يتغيب رغم أنّ جهوده في البحث كلها ضاعتْ سدى... لعله بقدر ما كان حانقاً، كان جرحه أيضاً عميقاً بغياب نجاة، نجاة بالذات... كيف تفعلها ؟ وبدون مقدمات ؟ وهل فعلتها حقّاً ؟ هل هجرتْ من ذاتها وغادرت طوعاً وبتدبير منها ؟ كيف إذن وبلا مقدمات ؟

انفتح الباب، وسمع صوت عزيز يسأل الطارق، صوت غريب أو غير مألوف على الأقل... لم تنتظر سليمة، وإنما أسرعت إلى الباب لتواجه الطارق... أما عزيز فقد تجمد في مكانه... مَن ؟ ماذا ؟ عزيز يجيل النظر بين أمه والطارق الغريب في حيرة من رد فعلها... الموقف كله يلفه الغموض والدهشة والجمود ! ماذا يعني كل هذا...؟

يطول الموقف بسليمة، مشدوهة متخشبة تقف أمام الرجل الطارق، ولا تفيد عبارات عزيز المستفسرة... لا يجيب عنها الطارق ولا ترد عليها الوالدة... إلى أن يخرج الرجل عن صمته وجموده، فيحيي بتحية الإسلام مبْتسماً باشاً، ويتقدم من ذاته إلى الداخل بهدوء

وبشاشة، تفسح له سليمة الطريق، تتبعه ثم تسبقه، ترشده إلى حيث يجب أن يجلس، أمام دهشة عزيز وعجبه...!

تدعو سليمة ضيفها إلى الجلوس بالإشارة، وبعبارة غير مسموعة، مازالت في دهشتها كأنها لا تصدق ما ترى أو لا تقدر على مواجهته... كررت إشارتها في هيئة تلطف وترجي كأنما الضيف بذلك يلبي لها أمنية غالية...

وتنتبه سليمة إلى حال ابنها العاجز عن مسايرتها أو القيام بما يجب، فترحب بالضيف بعبارات أكثر وضوحاً، تُرحب بعبير سيد السيد، بظله وفضله وبركاته، ثم ترفع صوتها بعض الشيء موجهة خطابها لعزيز تعرِّفُه بالضّيف الغَالي :

ــ مرحبا... ألف مرحبا بالسي التَّبعي... ومرحبا بسيدي وسيده !

كانت ماتزال تغالب وقع المفاجأة التي زادت من تعقد حالها فيما هي فيه من مُصاب... زيارة مثل هذه... زيارة مثل هذا الرجل لا تخطر ببال أبداً... أبداً... وتظل واقفة، منتصبة قرب الباب، ترقب الرجل في تهيب كأنما هي الضيف... تظل كذلك، حتى ينتشلها الرجل من غُموض الموقف قائلا :

ــ سيدي ولد السيد يسلم عليك !

تظل مشدوهة متعثرة اللسان :

ــ وعليه السلام.

تملؤها رهبة وارتعاب؛

ــ سلام الخير والبركة.

تكرر وتُعيد :

ـــ وعليه السلام، وعلى كافة أمة سيدنا محمد !

ظلت في وضعها، جامدة في وقفتها أمام الضيف، حتى أشار إليها بالجلوس، لكنها لم تدرك إشارته أو لم تستطع أن تتحرك لتلبيتها... فتابع الرجل حديثه من ذاته، يرجوها ألا تدهش من زيارته... ألا تدهش مما ترى وتسمع، وكله خير في خير... وهي فيما هي فيه من محنة... كله خير في خير بمشيئة الله...

رنّت في وعيها عبارته عن محنتها بوقع خاص... إذن محنتها معروفة... من ولد السيد نفسه... يا بركة الله وسيد السيد... ودون أن تشعر أو يدعوها أحد، جلستْ على السداري مضمومة الأطراف أمام الرجل...

نظر التبعي إليها ملياً ببشاشته وهدوئه، ثم إلى عزيز الذي اقترب من مجلسهما وظل واقفاً يترقب، غير قادر على التلاؤم مع موقف لم ينجل بعد.

عاد الرجل بنظرته، وقال بهدوء وبإخبار مفاجىء متسائل، أنّ الأمر يعني موضوع نجاة !

ـــ نجاة ؟!

هتفا معاً، سليمة وعزيز.

ـــ نعم نجاة... بنتكم وبنتنا نجاة... هي بخير وعلى خير... وفي دار السيد !

تهاوتْ سليمة وارتخت ملامح عزيز المتوترة بحثاً عن استجابة ملائمة لموقف غير منتظر...

ترك الرجل فرصة للصمت، يتيح للمرأة أن تستوعب وتستعيد وعيها بما حولها... ليقص عليها ما عنده، بهدوئه وبشاشته المعهودين : نجاة طرقت باب الدار، محتمية بالسيد !

لم تفهم سليمة أن تكون ابنتها محتمية : ممن ؟

غير الرجل عبارته... جاءت الفتاة قاصدة... نزلت ضيفة... جاءت زائرة، المهم أنها في أمن وأمان... بخير وعلى خير... كل الخير وكل البركة... والسيد يطمئن ويقرىء السلام... يمكن زيارة نجاة في كل وقت على الرحب والسعة... والدار دار الجميع... داركم بالذات !

لم تفهم سليمة ما تقول بعد، السيد يقرؤها السلام، هي بالذات، والدار دارها من قبل ومن بعد... ماذا تقول ؟ لماذا لم يخبرها أحد بالأمر حتى الآن ؟ هل خطفت نجاة أم أجبرت أم...؟

أحس الرجل بما يخامرها من أسئلة... فانبرى يوضح لها ما حدث... ما حدث كله بقدرة قادر، لكن نجاة فعلت كل شيء بإرادتها ورغبتها... هي التي قدمت من ذاتها على الدار ذات مساء، جاءت بكامل إرادتها وحريتها... وردت وحيدة بدون رفيق أياً كان... وطلبت البقاء في الدار... دون أن يوجهها أحد أو يطلب منها ذلك... الدار دار الجميع... مفتوحة للجميع... وكل مقروح مجروح !

كان الرجل يمطط عباراته الأخيرة، كأنه يتلمظ بها أو يعمق معناها، هو العارف بحرقة المقروح الذي يقصد الدار، ويعرف ما تعرفه سليمة من ذلك.

وبدا أن ما بين التبعي وسليمة من التفاهم، أبعد بكثير من أن ينجلي عن شيء لفهم عزيز، كانت سليمة تتابع حركات الرجل وإيماءاته بإيقاع يدل على عمق ما ينفذ فيها من قوله وموقفه، ورغم محنتها وما

هي فيه من حال، بدت سليمة وكأنها في موقف مواساة بالنسبة لمن هو في وضع من يحمل الدواء... الرجل إذن في وضع بوح ذاتي تدركه سليمة بحكم الخبرة والمعاناة، تدركه جملة ودون تفاصيل... لعل في اطمئنان المرأة على سلامة ابنتها ما جعلها قابلة لأن تجود بمثل هذا التجاوب مع غيرها... ومع التبعي بالذات... أم أنه انتزع منها الموقف بمجيئه مبشراً بوجود نجاة وسلامتها ؟ وأي بشرى أكثر من هذه كانت سليمة تنتظر ؟ أي خبر غير هذا كان كفيلا بإثارتها وإخراجها من جمود وجدانها ؟.. بل أي قوة كانت قادرة على أن تعيد إليها ثقة فيمن وفيما حولها ؟!

الرجل إذن يتألم عن شيء ما بشيء ما... والمهم أنه يخبر بسلامة البنت، ابتسمت سليمة الآن ابتسامة حقيقية، وعاد إليها وعيها بالحال والوضع، الآن هي إنسان عادي... ترى فعلا وتسمع حقّاً وصدقاً وتحس بنفسها وبكل ما حولها... الله يا ربي، ما ألطفك وأوسع الرحمة والراحة منك.

الرجل أيضاً، كأنه عاد من سرحة خاطره، سرحة عميقة خاطفة، وعاد لنفسه إلى الوضع حيث هو أمام أم مقروحة يحمل إليها رسالة بشرى. أسئلة كثيرة تجول بخاطرها، يعرف ذلك ويدركه، أجاب عن بعض ذلك وبعضه لم... بعْد...

التبعي عليم بما يفعل. لعله تعلم الكثير من مرافقة السيد الوالد في آخر عمره ومن السيد الابن... عِشرة سنوات صلاح تعلّم الكثير... وتعلم أيضاً من بوح المقروحين الزائرين المحتمين والزائرات، لذلك فهو يقدم إليها الخبر والموضوع مجزءاً مقسّماً، الفرحة نفسها تحتاج إلى مقدار، وإلى توزيع ومقدار كالدواء، والجرعة المفرطة منها تضر أكثر مما تنفع.

المرأة الآن سمعت ووعت سلامة ابنتها، هذا أول شيء وأدركت المكان والزمان... فليترك لها أن تهيىء ما لديها من لهفة وسؤال، لها الآن أن تضبط حركتها والقول.

حاولت سليمة أن تستوعب ما تسمع وقد بدأت تهدأ، هدأت فعلا... وبدأت صدمة المفاجأة تزول لتسأله عن حالها ؟ حال نجاة ؟ سؤال بدا بدون معنى بعد كل ما سمعت.

ابتسم لها التبعي في إشفاق وتلطف، وأجاب مكرراً كل ما سبق أن أخبر به... نجاة بخير... بكل خير في حمى السيد وحمايته وفي أمن وأمان.. في رعاية السيد وضيافته... يحوطها الخير والبركة... كل الخير وكل البركة... لتهدأ... ليهدأ قلب الأم عن كل توجس وتخوف، ليستعدْ طمأنينته وليقضي الله أمراً كان مفعولا...

التفتت سليمة إلى عزيز المتبلد في موقفه، تحثه على الترحيب بالضيف العزيز حامل البشرى، والمنة الكبرى التي منّ الله بها عليهم بهذا النبإ السعيد... لا تدري كيف تشكر هذا الرجل... الذي يأتي لينتشلها من محنتها ويعيدها إلى الحياة... ولا تدري كيف تشكر سيد السيد... الحمد لله على كل حال... وكل شيء بقضائه، بحكمه وحكمته...

كلماتها تتدافع، متداخلة الأفكار متقاطعة الخواطر، يغالب بعضها بعضاً ويسابق... وقامت في هيئة من تستعيد كامل وعيها بدورها لتقوم بواجب الخدمة والضيافة... أقله الشاي وما إليه...

يبادر الرجل وهو يدرك قصدها، فيقوم يشكرها ويعتذر لأن السيد ينتظر عودته، مع ما عليه من واجبات أخرى لا يقوم بها غيره... لم تستطع المرأة أن تلح، فقد نهض الرجل فِعلاً وتهيأ للوداع بحزمه

وبشاشته التي لا تقابل بغير الرضوخ والطاعة... أبدت المرأة أسفَها لغفلتها طوال الوقت عن واجب الضيافة... بدأت تكرر اعتذارها بكلمات معادة بما كانت فيه من حال... بادرها الرجل بألا تتعب نفسها، هو يعرفها... امرأة أصيلة وبنت دار كبيرة وكريمة، أكد ذلك وسار أمامها باتجاه الباب، حتى إذا كانا على مقربة منه قال لها التبعي وهو يتأهب للخروج :

ـــ سيد السيد يطلب منك المسامحة... يعتذر ويطلب السماحة !

دهشت مما تسمع، واتجه بالها أول ما اتجه إلى التجاء نجاة إليه... فعلام تسامحه سليمة في ذلك... فدار السيد مفتوحة والبنت بكل خير، وإذا كان هناك من يعتذر فهي التي يجب أن تعتذر، أن تشكر وتعتذر...

أدرك الرجل اتجاه أفكارها، فأوضح أنه لا يطلب المسامحة من أجل ذلك، وإنما من أجل شيء آخر !

تساءلت بملامح جهل واضحة، قال التبعي وابتسامته تتسع وبشاشته، وهو يضع يده على كتفها ويوضح أنه يعني حالة العودة، تعب العودة بعد الزيارة.. لاشك أنها تعبت فوق ما تعودت وما تحتمل... لابأس عليها... لابأس...

كانت تتابعه، تتحسس وقع كل كلمة منه، وتجمدت ابتسامتها له وهي تشرد في مشاهد وانفعالات وأحوال... وينظر إليها الرجل بملامح عطف وإشفاق. ملامح تجعل منه كاشفاً ومكتشفاً عن أغوار لا يعلمها من المرأة غيرها، تظل بدورها مجمدة في نظرتها على ملامحه، غائبة بخاطرها فيما مر بها، أو تظن أنه مر بها فعلا !

34

ماذا كان التبعي يقول ؟ وماذا كان يعني ؟ تجهد سليمة فكرها وتُعيد... تتذكر ملامح الزيارة ومعالم الطريق وتعريج الخواطر.. كل شيء يمكن أن يبدو لها الآن واضحاً مترابِطاً مفْهوماً، معقولاً، ابتسامة السيد الوامضة، وبرقُ نظرته اللامح الخاطف، واستنكاراته المتسائلة، وغوصه في أعماقها لاكتشاف الموضوع والنية والقصد، الله يسامحها، وسيد السيد... ومتى خفي على الأولياء الصالحين شيء من ظاهر ومستتر ؟ ليسامحْها ولد السيد، ليسامحها الله...

كانت قد خرجت من زيارته تلك، يلفها الغموض كما كانت تشعر إذ ذاك... الآن يبدو لها النور والضياء، والرؤية الصافية أوضح ما تكون وأصْفى... «الخير فيما اختاره الله !» لم يكن إذن ثم شيء يعمل أو يقال... أيغيب حمادي ونجاة، كلٌّ في اتجاه عكس اتجاه الآخر دون أن يلتقيا لقاء واحداً بصدفة أو قصد ؟! ورفْضُها طلب السيد في أن تبقى نجاة برحاب داره... دعوته المبهمة الواضحة لذلك وعزوف سليمة، بل خوفها من ذلك... ما علاقته بكل ما مر بها في طريق العودة ؟ ما تراءى لها وما عانته من أهوال ؟! الآن تخرج من دائرة الغُموض إلى فساحة النور، تحدِّث نَفْسها بما لم تحدثْها به من قبل، لتفهم وتزداد إيماناً وتسليماً بما وقع... وكله خير... خير وبركة...

طريق عودتها تلك، كان دوخة... دواراً... لا لم تكن الدوخة والدوار ما أصاب سليمة حين خروجها من زيارة السيد رفقة نجاة...

عليها أن تُصارح نفْسها بالحقيقة الآن... لقد تراءت لها فوهات عميقة كانت تنبثق عند قدميها حيناً بعد حين... كانت تتفادى ذلك بتوجيه خطوها تارة بعد أخرى... لتقل إنها أغوار سحيقة كانت تنفغر فجأة أمامها، عند قدميها وهي تخطو، فلا تملك إلا أن تتوقف أو تنحرف إذا أمكن... كانت تجر معها الفتاة مع كل انحراف أو توقف مفاجىء عن الخطو... لعل الفتاة تعجبتْ كثيراً من ذلك واستغربته، لكنها على كل حال، فيما كان يبدو عليها، لم تكن ترى أو تعاني ما تعاني وترى أمها... أم كان يتراءى لها أيضاً شيء آخر... على نحو آخر ؟!

مهما يكن، لم تكن سليمة بالتي تذكر لابنتها ما يتراءى لها في ذلك الحين، ولا كانت نجاة بالتي تفهم ذلك... تلك الفوهات لم تكن مجرد أغوار يملأها الظلام والفراغ... بل كانت ملأى بالهول تطل منها رؤوس وقرون وألسنة عجيبة لكائنات غريبة، ولهيب ونيران بألوان لم تعهدها... زرقاء خضراء صفراء...! أكثر من ذلك... أكثر بكثير... كانت المرأة تحس بدبيب أو حفيف أو خشخشة أو زفير يتبعها، وكلما التفتت لتتأكد تراءت لها رؤوس وحشية متقلبة على الأرض أو معلقة في الفضاء، أفاعٍ وأحناش وذئاب وأسود... وحوش مفترسة وكائنات غريبة تتراءى لها بكل وضوح، بكامل عدوانيتها وتحفزاتها للانقضاض والالتهام... محنة وأي محنة كانت؛ ونجاة إلى جانبها لا يبدو عليها شيء مما ترى وتسمع أمها، والغير من المارة ليس في شيء من عالمها... هكذا ظلت تدوخ وتتماسك، تنحرف وتتقي وحدها دون غيرها من خلائق الله... وفجأة... فجأة بعد المحنة والعذاب يذوب كل شيء ويغيب، لتَجد سليمة نفسها وقد عاد إليها توازن خطواتها، واطمئنان خاطرها، وسيرها وإدراكها لما حولها، لتسير بأناة نحو دارها...

أكل ذلك مرتبط متماسك ولا تدري..؟ أكان لها أن ترفُض طلب السيد أو تُعارض رغبته ؟! لو أدركت المرمى لكان لها شأن آخر، وكيف تدرك ؟ أكانت لتعود أدراجها إذ ذاك إلى دار السيد ممتنة شاكرة مرحبة بالقرب، تاركة له الأمر حتى يأمر أو يلمح بالرضى عن ذهابها ؟! وكيف تدرك ذلك إذ ذاك ؟ ودعاؤه بالصبر وبشر الصابرين، أكان يعني غير علمه بما لم تذكر له من حالها هي، وبما أصاب كرامتَها ؟ أكان تطييبه لخاطرها بالدعاء بعيداً عن أن يعني ما كانت ستتعرض له من محنة في طريق عودتها ؟ أيخفى عليه شيء ؟ أيخفى على أهل الله شيء ؟ كيف غاب عليها أن تدرك ذلك في وقته ؟ هي التي لم ينصرف بالها إلا إلى مس أصابها، أو عاهة في البصر أو السمع.

هكذا يؤوب كل شيء إلى مجراه الطبيعي والمنتظر في علم الغيب... هكذا تُمتحن سليمة بأكثر من صورة، وعلى أكثر من نحو، وهكذا... وهكذا تبتعد نجاة كل البعد عن خط حمادي كما ابتعد هو وأكثر... هكذا لا يكتب لأحد منهما رؤية الآخر لا خاطباً راغباً... ولا مخطوباً... كل شيء يعود إلى ما قُدر لَه، بلا دافع ولا مانع ولا حاجز... أتكون واهمة فيما تستنتج ؟ ما المعنى إذن ؟ وفيم كل هذا الكلام الرامز من التبعي ؟ هكذا يذهب كل اعتراض. كل شيء يرتفع وتُصبح إرادة السيد... إرادة نجاة... أمراً واقعاً بلا توجيه ولا إكراه أو معارضة... ويظهر ما حسبته سليمة عقوقاً من المتعقلة نجاة مجرد تلبية لإرادة خفية مسطرة... كل شيء إذن في طريقه كما يجب أن يكون... وكيف لها أن تدري بذلك..؟

وبشر الصابرين...

35

تبدأ في الهُمود شيئا فشيئاً، ضجة مقهى الجيارة، كما تأخذ النار في الخُمود تدريجياً بفعل بلل مُتسرب، الوقت مايزال بُعيْد العصر أو قبيْل المغرب... الطاولات منتثرة بزبائنها خارج المقهى وداخله؛ يرتفع لغط مجموعاتها ما بين لاعبي الورق والضامة والدومينو، تتدافع منهم أصوات الخيبة والانتصار... ضجة لا ينتظر لها أن تهمد قبيل منتصف الليل في العادة، وعلى خلاف كل معتاد يدب فيها الخمود شيئاً فشيئاً، بقدر ما تتقدم خطوات علي الشخش وشلّته بين المقاعد والطاولات.

حركات أيد تجمدت في الفضاء عاجزة عن إتمام حركتها بضربة انتصار مُسددة إلى صدر الخصم بدل رقعة اللعب، لتقع على عرض الطاولة.. ! عبارات يتقطع سيلها وتغيب مقاطعها في الحلوق كأنها تعود إلى مصدرها... عيون تتوقف حدقاتها متوجسة تتحسس وقع أحذية الشلة بطرف البصر، متحفزة لكل طارىء.

بحركات عفوية أخليت مقاعد قريبة أو مجاورة لطاولة الركن التي سددتْ نحوها الشلة خطواتها... بعض الزبائن أسعفتهم سُرْعة التصرف فبادروا بالانصراف، وأغلبهم قعد به التجمد عن مثل ذلك، كأنما يغيب في مكانه بانتفاء التحرك، ناهيك عن متعة فضول في فضاء مشبع بالحيرة والتوجس.

استوى علي الشخش في جلسته... شاب مديد القامة، عريض،

مفتول الكيان بادي العضل، تبين حركاته عن فيض نشاط، وقابلية فائقة للعدوان يزكيها شعوره بقدرته المتميزة... ويزيد من مظهر قوته الخارقة ضيق القميص المحصور على جذعه، وثني كميه القصيرين أصلا، إلى ما يحاذي الترقوة من أعلى الكتفين...

جلس علي الشخش إلى الطاولة منتصباً كالمتحفز، وجلستْ حوله شلته من فتية يبدو من حركاتهم أنهم أتباع وتلامذة ومعجبون إلى درجة الافتتان... كانوا مثله يقلدون حركاته دون أن يمتلكوا ما يمتلك طبعاً...

طلبوا ما يشربون... النادل العجوز النحيف يلبي طلبات الجماعة بحماسة وهمة زائدة، ولا تبدو عليه حيرة أو فضول... مشهدهم مألوف لديه رغم أن زياراتهم لا تحدث إلا نادراً... فهم يتنقلون بين المقاهي والمجالس، بحسب ما تدعوهم إليه الحاجة أو حب الظهور، وإثبات الوجود... تستهويهم في الغالب أماكن مثيرة للتحدي والتعارك الحقيقي بطبيعتها أو طبيعة من يرتادها. أما هنا في الجيارة فكل شيء مسالم.

استقر المقام بالشلة، وبدأت الأحاديث تدور حول مغامرات الشخش وأفاعيله بأعدائه... معارك سلسلة لا تنتهي والفتيان يساعدونه في التذكر وإحياء المشاهد... يبادرون إلى تشخيص بعضها بحركاتهم تمثل لكماته الموجهة إلى الأعداء... ورفصاته... بل أفانينه في إثارة خصمه ومواجهة هجومه بانحناءة تجعل في مقدوره حمل كيان عدوه إلى أعلى والتطويح به... مشاهد وحركات تذكي في الفتية حماسة تنعكس على تحفزاتهم، وكأنهم يخوضون معارك آنية نابضة بالحقيقة والحياة.

يشربون بأناة ما طلبوا من لبن وعصير وقهوة مكسورة... وحلويات... يتأففون بين لحظة وأخرى ويغيرون المطلوب بآخر... لابأس، ولا راد لرغباتهم والنادل العجوز مستأنس بذلك، مألوف لديه... يقول في نفسه ولصاحبه دائماً : أعطهم ساعتهم واشتر السلامة بالطاعة والتسليم... لابأس.. لابأس. ينفذ العجوز الطلبات، يلبي الرغبات، يغير ويحول، لا تعتريه خشية أو تذمر... الزيارة نادرة لمثل هذا المقهى... لكنها تحدث وتظل متوقعة، فالشخش لابد أن يمر في يوم من الأيام، كأنه يتفقد ملكوته في كامل درب السلطان وسائر دروبه... يختار لنفسه في كل حين مجلساً في مقهى أو دكان أو غير ذلك... أحياناً قد تكون الزيارة من أجل موعد محدد، أو لاصطياد خصم بدون إشعار أو إنذار، وتلك تكون كارثة، وفرجة أيضاً لمن يريد...

عيون الزبائن رانية متوجسة... متابعة بنصف نظرة، بقلوب واجفة مترقبة... لا يمكن أن يرجى خير من زيارة الشخش وشلته، ولا يُنتظر منهم راحة حتى وإن لم يفعلوا شيئاً غير معتاد، وجودهم وحده يستفز...

تسري أحاديث الشلة، تتقاطع ضحكاتها ولمزاتها... تتبارى في إظهار البهجة والنشاط... ويرد اسم «الولْد»... يُذكر عفواً أو بقصد... فتتوتَّر عضلات الشخش... ترتسم رعشة متناوبة على خَديه...

الوَلد غَريم وعدو منافِس... نَبت في مرتع آخر لا يهم الشخش... مرتع المرسى... أولاد المرسى... أمر مضحك... الولْد ولد من أولاد المرسى... أولاد الحوت... قلوب السرديل، وعيون السرديل، ولون

السرديل ! الولْد... يفخمون الاسم، أولاد السرديل، ليصبح في سمع الشخش وفهمه أكثر إثارة للضحك والسخرية... لكنه عندما يتردد ولو بدون تفخيم، وبقصد حسن، يصبح مزعجاً... مزعجاً حقاً... ولو كان خارج الدرب... اسم مزعج لمجرد ما تبدأ الأفواه تردد مغامراته وأحداث أيامه ليمثل ذلك خطاباً واضحاً متحدياً للشخش. لا. لن يصل الأمر بالولْد إلى التفكير في مزاحمة الشخش في مرتعه هنا... في دربه وملكوته، لا يمكن ولن... المرتع هنا عرين عزيز ومعترك فسيح محصن... وسيكون الولْد وولدان المرسى كلهم أغبياء... جدّاً... جدّاً... ومغروورون وجهلة... جداً... جداً إذا فكروا مجرد تفكير أو خطر لهم مجرد خاطر أن يقتحموا أو يخترقوا... هل يتصور عاقل، فأحرى مغامر شاطر في مثل ما يجب أن يكون عليه هذا الولْد، إذا كان كما يصفون؛ أن يهاجم الأسد في عرينه وبين أشباله ؟!

مع ذلك... رغم ذلك... لابد من حد لهذه الشائعات عن بطُولَةٍ ولْدية ولْدانية... بطولة ومغامرات وأحداث... خرافة... خرافة كبيرة ينسجها صبية أغرار أو نساء، وربما أعداء، ليخلقوا هذه البطولات لمن يسمونه... الولْد.

تتواتر رعشات الخدين على ملامح الشخش... الولد... الولْد... الولْد... لا... لا... لاَ... ليس هو إلا بنتاً... البنت... البنت... هذا هو ، أنثي... بنت... البنت... البنت... البنت، وكثير عليه أن يحمل نعت الولْد، نعت وصفة لأبطال شجعان، ومتى خرج الأبطال من المرسى وأولاد المرسى ؟!

فيما بينهم، كان أفراد الشلة على دراية بما يدور في أعماق الشخش، وبما تعنيه رعشات خطي الخدين على وجهه... يتحدثون عن الولْد

بالبنت في جهرهم لبعضهم ولقائدهم... وهم على يقين كامل بأنه لا يستحق أن يكون خَصْماً لشخشهم، وأن البنت تسْمية مناسبة له، وربما أكثر مما يستحق، وأكثر من ذلك، كانوا على يقين مماثل بأن المواجهة بينه وبينهم، بينه وبين الشخش بالذات، وبين ولْدانه وبينهم، ستكون محسومة لقائدهم، لعلي الشخش وفتيته، من يقف في وجه الشخش وأصحابه ؟

كانوا يتبارون في سرد بطولات قائدهم، حكايات ووقائع مكرورة، فيما بينهم، لكنها في كل مرة تكتسب جديداً في صيغة أو عنصر... بعضهم يذكر بعضاً ويشهده... يشهدون بعضهم بعضاً، فكل واحد منهم ساهم في واقعة أو معركة، بيده أو سلاحه الأبيض أو بهراوة وما شابه... بعضهم الآخر شارك بالإخطار والإخبار في أخرى... أو بالحضور والتشجيع للقائد في المعارك التي يخوضها الشخص وحيداً بأمر منه أو بظرف خاص أو تدبير... الشخش عندما يتحدى شخصاً أو جماعة بمفرده، فبمفرده يخوض المعارك، وتظل شلته بمن يكون حاضراً منها مجرد شاهد على النصر..! النصر... النصر ؟ وهل يمكن الحديث إلا عن نصر في أية معركة يخوضها الشخش، مهما كان الخصم ؟ معارك كثيرة خرج منها الشخش مصاباً، بجرح أو جروح تتفاوت، ولكنه كان يظل دائماً في قلب المعركة، رابضاً على هيكل خصمه، أو طارحاً له جانباً، إن لم يولي الخصم هارباً يجر أذيال خيبته متحملا آلامه؛ أو تاركاً جثته هامدة لرحمة قاهرة !

الشخش وحده لا يسقط، أو هو يسقط لينهض، ليظل ناهضاً حتى النهاية مهما كانت إصابته، ولا يهرب أبداً أو يتهرب من قوة مهما كانت، أحياناً كثيرة يدفعونه دفعاً لإخلاء المكان بعد انفضاض المعركة لصالحه... يدفعونه منتصراً ليمضي سالماً إلى حال سبيله قبل قدوم

السلطة أو الشرطة أو... يعاند ويعارض ولا ينصرف إلا بتؤدة كاملة وفي خيلاء، متفقداً بنظرة متعالية ما حوله من آثار المعركة ونتائجها... أحياناً تقبل سلطة ما إلى المكان قبل انصرافه، فلا يغير من إيقاع حركاته أو خطواته سواء أخذوه أو تركوه... أبداً... أبداً ما كان شيء ليدعو القائد إلى سلوك التحايل والتجاهل...

ويقولون ... الولْد... الولْد فعل... الولد جاء... الولْد هنا وهناك ! من يقف أمام الشخش ؟ من مثله ؟ لا... لا ولْدان ولا بُنُوت لا فرد لا جماعة... علي الشخش، هو وحده علي الشخش.

36

وضعت جميلة الصحن الفضي على الطاولة الصغيرة، يتوسطه فنجان القهوة، وكأس الماء المثلج أمام أحمد رقيبة الذي كان يداعب سيجاراً فخماً بين أصابعه، ويمر بعينيه على صحيفته... مدَّ يده للفنجان فانتبه إلى جميلة التي ماتزال واقفة متنحية جانباً... كعادتها عنْدما يكون وراءها شيء، رشف من قهوته قبل أن يلتفت إليها... قالت إن قديدير ينتظر في الصالة الكبيرة.

نظر رقيبة إلى ساعته، الخامسة وزيادة، بالفعل هذا وقت قديدير... بل إن الرجل قد انتظر أكثر من نصف ساعة... لا يهم، هذا شغله وتلك مهمته؛ ولن يتعبه انتظار مثل ما يتعب رقيبة من وجع الرأس بعد النومة الثقيلة لما بعد الغداء. يعرف عاداته، فالقيلولة والنّوم نهاراً لا يناسبه، لكن للظروف أحكامها... فقد كان عليه أن يلبي الدعوة ويدعو بدوره... جماعة من رجال الأعمال من جنسيات مختلفة... لابأس. يتعجب من قدرة هؤلاء الأجانب على تحمل أنواع النشاط والشراب دون أن تضيع منهم لحظة من نهار، من واجب الشغل، بينما عيبه الكبير أن يضيع منه النهار إذا خرج عن عاداته، وشر ما في الأمر ضياع المزاج إلى وقت متأخر من المساء، لعله كان مثلهم في قابليته لكل نشاط منذ الفجر إلى ما شاء الله... كان ذلك في بدايات عهود حاجته... فكيف يحتفظ هؤلاء بذلك في كل أحوالهم ؟

كانت جميلة ماتزال تنتظر وهو يرشف من فنجانه تارة بعد أخرى، بدون أن يرفع بصره عن الصحيفة أو يكف عن مداعبة السيجار...

لابأس، يمكن لقديدير أن يأتي... أو على الأصح ليسبقه إلى غرفة المكتب... هناك أنسب للشغل... وإن كان رقيبة يشعر أنه في مزاج لا يقدر معه على متابعة حسابات صاحبه... لن يبذل أكثر من سمع طوعي غير واع... قديدير كفء ومخلص... لابأس... لابأس...

ورفع رقيبة صوته وراء جميلة يتابعها بطلب التعجيل بقهوة لهما في المكتب... لكنه وجدها ماتزال في مكانها، تساءل، قالت في تردد إن هناك آخر ينتظر، لا. ليس في الصالة، بل أمام الباب في الخارج، هناك منذ ساعات... غريب ويصر على المقابلة، لا تعرفه، لا يمكن أن يعرفه أحد في الدار ! غريب يطلب المقابلة، غريب وملحاح... وهو منذ... منذ ساعات ينتظر... لن ينصرف !

قطب رقيبة متسائلا. هزتْ جميلة كتفيها بإهمال كأنها تقلل من شأن الزائر رغم كل شيء، تقول إنه يريد الالتقاء به، يصر على ذلك. يريد الالتقاء به شخصياً لأمر يدعي أنه هام... هام جدّاً...

ترفع كتفيها بإهمال وبملامح تعجب تؤكد أنه لا يبدو طالب شغل... أبداً، لا يبدو عليه ذلك... لا يبدو عليه أي شيء.

جبهة..! لصقة ! هذا هو، بَدَالَها : سنطيحة ولصقة !

لم يهتم رقيبة بموضوع الزائر مادام لا يعرفه، وليس طالب شغل، ولا سائلا طبعاً... بل ربما بدا له سلوك جميلة غير معتاد في هذه الأوصاف والاستنتاجات، واجبها أن تصرفه بطريقة أو أخرى، سلوكها غير معتاد في أن تبلغ أمر هذا... الفضولي أو... لكن لماذا هذا الإلحاح في الالتقاء به ؟ أيكون شوافاً من أولئك المشعوذين ؟!

لا حاجة به ولا إليه... ليبق هناك ما شاء ولا مزاج لملاقاته... ورفع رقيبة نظرته إلى جميلة ــ ماتزال تنتظر ــ أدركت قصده... ولكن الرجل الغريب يلح إلحاحاً غير عادي، ولن ينصرف فيما بدا لها ولو قضى ليله والنهار أمام الباب. لصقة !

لفظت كلماتها في تذمر وبكل ما تملك من حركات نفاذ الصبر، أخوف ما تخافه أن تعود إلى الزائر ناهرة أو رافضة بأمر من صاحب الدار، رغم رغبتها في أن تصرفه خائباً؛ لكن نظرته وتحمله مُفْزع فزعاً لا حد له، يخيل إليها أنها لن تنسى نظرته إليها أبداً.. كلما كرر رن الجرس، وخرجت إليه، كان يبدو لها مهيباً في ابتسامة بدون معنى، أو بكل المعاني بما فيها التخابث... كأنه يعرف مسبقاً أنها مدربة على صرف أمثاله !

يقضي أحمد رقيبة وقتاً ساهماً، كأنه يتحسس جوانحه في قدرتها على محادثة أحد... إذا كان غير راغب في التداول مع قديدير في شؤون الشغل والمال، فهل يكون قادراً على لقاء أحد ؟! وكيف يجد نفسه مجبراً على لقاء أحد بلا معرفة ولا موعد ولا موضوع ؟!

كأنما أفاق أحمد رقيبة بهذا التساؤل الذاتي، فرفع بصره إلى جميلة مقطباً مستنكراً، فهمت قصده وقدرتْ سلوكه، إذن سيكون عليها أن تعود بنبإ الخيبة إلى الواقف الملحاح عند الباب منذ ساعات... محنة لا تحتملها، وجهد فوق الطاقة، نظرت بدورها إلى رب الدار مشبكة يديها أمامها... هذا الرجل لن ينصرف، ولن تعرف كيف تصرفه...

لم تضف شيئاً، وهيئتها لا تدل على أكثر مما قالت. لو كان الرجل عدوانياً في مظهره لأخبرت بذلك، يعرفها، يعرف حذقها الفائق وإدراكها. ولو كان لأحمد رقيبة أعداء لانصرف ذهنه إلى منعرجات أخرى... إذن ؟

تؤكد جميلة أن الرجل لا يصنف في شيء مما يفكر فيه، هي نفسها راقبته طويلا دون أن يحس بها، راقبته من فتحة النافذة، راقبته في كل حركة من حركاته، وفي قعوده واتكائه على الحائط، وفي استغراقه أحياناً في تأمل أوارق النبات الخارجي كأنه يقرأ رسالة... راقبته وهو يكرر كل الحركات والسكنات... لم تستنتج إلا أنه ينتظر وسيظل ينتظر كما قال لها ذلك.

لصقة، جبهة، سنطيحة كبيرة... وبزاف !

تركها رقيبة تنصرف على أن يقابل الزائر، بعد جلسته مع قديدير...

37

في غرفة المكتب، جلس رقيبة أمام طاولته بمواجهة قديدير الذي كان غارقاً في أوراقه، وسرعان ما طفق يقلبها ويحدث بأرقام عن حسابات الأشغال المنجزة والمشاريع... كان رقيبة يتابع بفتور، ولم يزد على ملاحظات عامة، أن لا داعي للتنافس على مشاريع بعيدة عن المراكز الكبرى والمدن، فهذه في العادة تثمر متاعب كثيرة...

وينبري قديدير يطمئن صاحبه... فعندما تتأكد فائدة المشروع... الفائدة الحقيقية... الجدوى الملموسة المحسوبة، فلا يهم بعد ذلك ما يقتضيه الأمر... لوازم الخيم للرجال جاهزة، وكل شيء مهيأ، ويؤكد قديدير لصاحبه أن المقاولة الجيدة لا تترك مكانها فارغاً، ولابد من الاشتراك في كل شيء... ليطمئن، فكل شيء مُعدّ، وبأقل متاعب وبأكبر ربح...

ظل قديدير ينتقل بين صفحاته وتصاميمه، غير عابىء بفنجان القهوة البارد المهجور إلى جانبه، ولا ملتفت إلى مظاهر الملل وعدم المتابعة على صاحبه... كان يبالغ في التدقيق والتفصيل، لا ليبرهن على جديته فيما يبدو، بل حفاظاً على عادة لا يريد أن يفقدها هو ولا صاحبه... مهما يكن، فرفقة عمر لا تسمح له حتى على مستوى الشغل بالتهاون أو بالعبث بالثقة.

كان أحمد رقيبة قد أشعل سيجاراً مركزاً، محاولا متابعة ما يعرض عليه، كان يوقف قديدير حيناً بعد آخر يستعيد منه بعض التفاصيل، لكن دون اهتمام كبير واضح على نحو يحس قديدير ويعرفه في صاحبه، بيد أن ذلك كله لم يمنع قديدير من تأكيد خلاصة كل مرحلة من عرضه... الخلاصة في كل شيء مثمرة... مربحة بالملموس... متأخرات المردود مغطاة بضمانات كافية وباحتياطات مالية من اجتهاد قديدير... لابأس... حتى المتعثر من مقاولات ومشاريع مختلفة، كاف ليمول نفسه بنفسه مؤقتاً... لابأس... لا خوف من أي شيء... ولابأس...

أنهى قديدير عروضه، وبدأ يطوي أوراقه لينقل الحديث إلى أمور أخرى... أمور الأهل والأولاد، يقصد بذلك الأسرة الأخرى في درب السلطان، سليمة ومن معها، سليمة وأولادها... يطمئن قديدير صاحبه عن كل ذلك، كل شيء على ما يرام، النفقات جارية... كافية وفوق الكافية، كل شيء على ما يرام.

لم يكن أحمد رقيبة ليسأل عن تفصيل أي شيء يتعلق بهذا الموضوع، فذلك يثير فيه حساسية داخلية لا يحتملها، بل يتجنبها، أوامره كانت بأن يتكفل قديدير بهذا الموضوع، وبما يلزمه دون الرجوع إليه، لعل رقيبة لم يكن بحاجة ليعلم شيئاً، لكن عادة قديدير ألا يبخل بعرض كل شيء، فذاك دوره وواجبه.

دخلت حورية، قام قديدير يسلم منحنياً ومبتسماً، كانت في لباسها المنزلي المخفف، مطرز الحوافي، يموج حريره الأصفر، متجاوباً مع الشريط المماثل يلم شعر الرأس في لفة واحدة، متناغماً مع الحزام الرقيق والوردة اللؤلئية المرصعة لمقدم حذاء نصف، في شفافية زجاجية تضم القدمين...

دخلت حورية بما يشيع على محياها من بسمة عافية وإشراق كفيلة بأن تنعش عين الناظر، قدمت لرقيبة كأساً فواراً بقرصه المذاب، ساحبة من يده السيجار برفق وابتسام، داعية له بالشفاء، ظل رقيبة يتابع حبيبات الكأس متنافسة في تساميها نحو الأعالي حيث تنفجر كويراتها بهدوء على سطح الماء... ثم تجرع الكأس دفعة واحدة مصعداً آحة ارتياح، كان أحوج ما يكون إلى القرص لاستعادة مزاجه. هي، وحدها حورية، تعرف ذلك في الوقت المناسب...

أثناء ذلك، سرى حديث جانبي كالهامس بينها وبين قديدير حول الشغل ليناولها بعض الأوراق، ويعرض عليها خلاصة الوضع، كما سبق أن عرضه على زوجها مع بعض عجالة، كان قديدير يدرك اهتمام المرأة، لكنه كان يساير بقدر حماستها فهو لا يريد أن يتعب أحداً ولا أن يظهر مقصراً...

فعلا، كانت حورية تتابع، تدقق أحياناً وتلاحظ... بل تنظر إلى أحمد رقيبة مظهرة رأياً أو طالبة استزادة شرح، أحمد رقيبة في وضع من لم يستعد مزاجه بعد، يكتفي بإيماء لا يفيد، بقدر ما يوحي بالمشاركة.

كانت حورية بخبرتها قادرة على أن تناقش وتعطي التوجيه والتوجيهات، أحمد رقيبة نفسه ينتدبها في جلسات من هذا النوع لمتابعة عروض قديدير ومناقشته... وكثيراً ما صحبت رقيبة إلى الأوراش في ميدان الأشغال منذ بداية علاقتهما وبعد الزواج، كانت على علم بسير الأمور، ولم يكن قديدير وهو يرافقها في الكثير من جولاتها ليبخل بما يساعد ويفيد...

بدا عليها الاطمئنان، ورنت إلى زوجها وهي تختم موضوعها مع

قديدير متسائلة إن كان هذا كل ما عنده. يدرك قديدير من ذلك أنها اكتفت، فيومىء بأنه أنهى، مؤكداً اطمئنانه إلى الوضع... ثم يسألها عن رضى... تطمئنه شاكرة عنايته ولطفه.

استراحت حورية... وقديدير مستمر في مجاملاته يتهيأ للانصراف معتذراً عن دعوة رقيبة له ليشاركهم العشاء... لا يمكن، فعليه واجب الاستيقاظ باكراً جدّاً... وفوق ذلك وقبله، عليه أن يهيىء برنامج الغد... يشكر ويقوم مودعاً.

أخذت حورية بيد رقيبة تسأله عن الحال... تحسن بلا شك. تعرف ذلك... القرص سريع المفعول... سيزيد التحسن، تعرف جيّداً طبيعة الكدر الذي يعتري مزاج صاحبها في مثل هذه الحال... لا تريد لكدر أن يطول أو يتعمق... يتفقد رقيبة سيجاره المنحى جانباً كاتماً ناره الباردة في جوفه ودخانه. ترتسم وقفة جميلة مذكرة بالزائر المنتظر. تفضل أن يستقبل حالا أو يُصرف لحاله قبل... أن يجن الظلام... لصقة ! يمكنه أن يبيت هنا، لن يتردد في ذلك، علكة... وسنطيحة.

يشير عليها رقيبة بإدخال الزائر لينتظر في الصالة الكبرى، ويرنو إلى ملامح حورية يستطلع رأيها. هادئة كانت أو تتظاهر بأنها كذلك حتى تساعده على استعادة مزاجه... مهما يكن، فلن يقلقها شيء في حضور زائر ملحاح مهما يكن غريباً، وإذا لم يكن طالب شغل، فهو طالب إحسان ما أو خدمة من نوع ما... ماذا يمكن أن يكون ؟

ليكن...

38

بدا الرجل واقفاً يوليهما ظهره، وهو يطوف ببصره على التحف وقطع الزينة المعلقة والمرصوفة على الجدران والرفوف المتنوعة والطاولات... بدا مأخوذاً منغمراً كأنه يفك شفرة نقوش أثرية... لم يحس باقترابهما، وظلاّ للحظة صامتين يرقبانه من خلفه وهو يتابع تأملاته...

أخيراً، تنحنح رقيبة ليعلم الزائر بقدومه فعلاً، وبدا من إيماءة كتفي الرجل أنه أحس فعلاً بقدومه، لكنه لم يكن متعجلاً في أمره... بل أتم حركة تأمله بهدوء قبل أن يستدير... السلام عليكم. أومأ رقيبة برد التحية، وهو يتفرس في الرجل... لا يبدو أنه رآه من قبل... أبداً. لا يبدو أنه يعرفه أو رآه من قبل... الأمر بالنسبة لحورية أوضح وأجلى. لا يمكن أن تكون له بها معرفة... إذن من يكون ؟ ماذا يطلب ؟ مع ذلك لابد من مجاملة، ومظهر الرجل هادىء لا ينذر بأي شر، بل وتراود محياه ابتسامة مضمرة بملامح لا تخلو من إشراق مقلق، فثقته بنفسه تبدو بالغة الحد، وبساطة هندامه أبلغ، لكن في نظافة وعناية لا تخفى... حتى اللحية الخفيفة غير المهذبة الحوافي، والمختلطة المعالم على ملامح الوجه وأعلى الرقبة، تبدو على عناية وفي غاية النظافة.

جلس رقيبة، وهو يومىء لضيفه بالدعوة للجلوس، بينما ظلت حورية تراقب الموقف.

ـــ نعم ؟

ـــ ينعم الله عليك... السلام عليكم.

واسترسل الرجل في دعاء للمكان وصاحبه، سرعان ما تحول في نهايته إلى شبه همس كأنه يحدث به نفسه...

وعاد الرجل إلى نفسه يسأل أحمد رقيبة إن كان لم يعرفه..! أدار رقيبة رأسه علامة النفي، فاتسعت ابتسامة الرجل.

دخلت جميلة بالشاي بدون استئذان، كأنها تُساهم في التعجيل بصرف الزائر الثقيل، وتحرص قبل ذلك على ألا تفوتها فرصة تعريفه بنفسه، والتعرف عليه، لصقة هذا... وأكثر من لصقة !

ظل الرجل صامتاً يرقب حركات الفتاة وهي تصب الشاي، وتقدم الكؤوس بابتسامته المضمرة وإشراقة محياه المقلق، إذن لم يعرفه رقيبة، تساءل الرجل من جديد في سمة من لا ينتظر جواباً، بقدر ما يتهيأ لبداية حديث يقدم به نفسه :

ـــ التبعي !

نطق بذلك الرجل، وأكده بحركة من رأسه وإشارة بيده، إنه التبعي ! التبعي !؟ من يكون... الاسم غير غريب... غير بعيد... يطوف بالخاطر... يراود البال... يحاول... ثم يهرب... ذكرى باهتة عصية المعالم تعبر ذهن رقيبة... اسم له رنة خاصة وطعم في السماع، لكن من ؟ أين ومتى ؟.. لا، لا يعرف الرجل، قطعاً لا يمكن أن يعرفه... يخْلق من الشبه أربعين... حتى في الأسماء كما في المخلوقات... قطعاً لا يعرف الرجل... ورنة الذكرى السمعية مجرد وهم... ولم يَدَّعِ الرجل معرفة بأحدٍ... وإن كانت طريقة تقديمه لنفسه بالاسم

المجرد توحي بأنه يريد أن يحيي ألفة سابقة... ذلك فن بعض المتحدثين والشطار ! لا يهم... وفي هذا الظرف من تعب البال ...هه ؟

ازدادت ابتسامة الرجل تحصناً في هدوئها العميق وهو يواجه بها نظرة رقيبة، عيناً في عين، كأنه يستنطق أعماقه أو يستبطن ليقول بعد برهة إنه التبعي صاحب السيد... ولد السيد... درب الطلبة !؟

آهة عميقة تصدر عن رقيبة، وكفه تُصيبها جبهته، ذكرى قوية بعيدة قريبة، لا يمكن أن تنسى، كيف يُصرف عنها البال أو ينصرف..؟ رجل لا يشيخ ولا يتقدم في السن.. هو.. هو بعينه.. لكن لم يكن طبعاً ليخطر بالبال... بعض تغير في معالم اللحية وبُعْد عن البال... بُعْد كلي تماماً... وهاهو ذا الآن ينتصب يملأ الخاطر كله بالحضور، التبعي... طبعاً، آهة، وآهة، تصدر عن رقيبة في تعرفه المضني على ضيفه آسفا على كسل البال... ويلومه في رفق ومودة، أما كان له أن يعرفَ بنفسه منذُ البداية وقبْل البداية عندما وصل بابَ الدار... من العار... وعيب كل العيب، أن ينتظر مثله كل هذه المدة...

ظل الرجل يتابع حركة رقيبة بابتسامة، مهوِّناً الأمر بحركة من رأسه على صاحبه... لا، لم يكن ينتظر، ولا أحس بالانتظار، وكلنا ننتظر... كلنا في الانتظار... لا، لم يتعب، ولم يحس بالانتظار، إذا كان المقصود إحساساً بفراغ الوجود وضياع الوقت... بالعكس، عكس ذلك تماماً... أتيحت له فرصة لإنجاز كثير من واجباته أثناء ذلك، ومازال أمامه الكثير... عليه الكثير منها... ولو ظل الدهر أمام باب الدار، لما تعب أو أحس ضيقاً أو تكلف جهداً... ولا انصرف ! أبداً... أبداً..!

لم يبد على رقيبة فهم ولا قدرة على متابعة الرجل، لكنه أيده، أبدى

مجاملة... وأفاض في الاعتذار والترحيب... حورية تأخذ مكانها في جلوس مستكين تتابع ما يجري...

مهما يكن... بعد كل شيء... وقبل كل شيء، لابد من افتتاح الموضوع، وإن أصبح واضحاً لدى رقيبة وحورية أيضاً، أن الأمر يتعلق بمطلب إحسان... بمسعى إحسان على الأصح، فلا سيد السيد، ولا التبعي بمن يطلب الإحسان لنفسه... وإنّما قد يكون، وهو المؤكد، مسعى لعمل إحساني خيري ما أبعد ما يكون عن منفعة شخصية... أبْعد وأبعد عن ذلك... مهما يكن، فالأمر لا يدعو لأي قلق، وإن كانت ظروف المزاج غير ملائمة وأيضاً... أيضاً... لماذا تهجم عليه هكذا دروب جفاها، تناساها لماذا لا تتركه مرتاحاً كما أراحها... درب السلطان، درب الطلبة... هكذا... ذكرى بلا استئذان، ضد الرغبة، تخترق الكيان... هكذا فجأة، بالرغم وبالضد... لا يهم... لابأس... الظرف يقتضي الترحيب والمجاملة والتحمّل... لابد من تحمل الظرف بكامله... ذكرى ليست بعيدة كل البعد. أبداً... أبداً... ولذلك تحضُر ثقيلة تبعثُ في النفس رغبة في الإصابة بمرض النّسيان لو كان هناك مثله... نسيان موضعيٍ موقعي... أما التناسي فممكن... ممكن تعميقه كما فعل رقيبة ناجحاً في ذلك إلى الآن... درب الطلبة فجأة ومرة واحدة، عودة قوية ومجلاة بحضور عيني للتبعي وولد السيد..؟! مهما يكن فهي عودة مؤقتة وعابرة جدّاً لن تجد فرصة لإزعاج البال... أبداً... أبداً، وإنما يحصل ما يحصل لمجرد تعكر المزاج فحسب، لا يهم. الظرف كله مؤقت عابر... عابر مؤقت وليس فيه من إزعاج حقيقي. ذكرى درب قديم... فليكن ولتعد ذكراه لغيبتها وتغيبها بمجرد انتهاء الظرف... بل وقبل ذلك... ليكن... إنما كيف اهتدى الرجل إليه ؟.. ولماذا الآن

بعد كل هذه السنوات ؟ ما الذي جعله يخطر بالبال... بال التبعي بالذات ؟ في العادة... في العادة... ذكرى مقام السيد ولد السيد، أن المحسنين والمتصدقين والخيرين هم الذين يقصدون الدار طوعاً، لا من يتبعهم أو يتابعهم، ولو كان التبعي ذاته... فما معنى الظرف إذن ؟

غير ذلك كان... غير ذلك بالفعل ما يجب أن يكون. الموضوع يفتتحه التبعي نفسه بالصلاة والسلام على سيد الأنام.. الرجل مبعوث.. يقول التبعي إنّه مبعوث وحامل رسالة.. كلها خير... كله خير في خير. الرسالة مودة وأخوة وخير كبير كثير... خير ما في الحياة لبني آدم وبنات حواء... القرب والجوار والنسب..!

القرب !؟ القرب، طلب القرب... وعلى سنة الله ورسوله يطلب سيد السيد... ولد السيد، من أحمد رقيبة يد ابنته العفيفة المصونة نجاة وبصداق...!

صعق... صعق الرجل... دفعة واحدة عمت رقيبة موجة عرق ساخن وفي برودة الصقيع تلفحه ريح على قمة من جهاته الأربع... صعق رقيبة فعلا ! ماذا يسمع ؟

ازدادت ابتسامة التبعي وهدوءه... مهما يكن، البنت تخطب من وليها، وأبيها... رغم كل شيء، ما حظيت به البنت من هداية وارتكان إلى دار السيد فهي في أمن وأمان... هي أمانة في الدار... مصونة حتى يتم أمر الشرع...

مصعوقاً يظل رقيبة يسمع، غير عارف بحدود ما يقول أو يفعل... مصعوقاً مبهوتاً يظل وابتسامة التبعي في هدوئها ونظرته المتطلعة تراقبه. تخرج حورية عن صمتها وموقف الحياد، لتسْأل عن بعض التفاصيل، تعرف أن رقيبة في حاجة إليها... مهما يكن وبالنسبة لها ولواقعها،

ليس الأمر أكثر من دهشة الخبر الأولى... والباقي عادي جدّاً... عادي، لا أكثر من فتاة تتزوج... رجل يخطب فتاة، ماذا يصعق في جوهر الموضوع ؟ نجاة في دار السيد... ذهبت إليه... التجأت من ذاتها... وبعد ؟ ما الفرق والمعنى في كل ذلك ؟! ما الجديد في الحكاية كلها من أولها إلى آخرها، عدا ما يلهج به التبعي من أنها آية... آية... وبرهان... وتنبيه... هذه الفتاة أريد لها الخير كل الخير، خير الدنيا والدين، الآجل والعاجل... سيرتها نعمة من الله وآية وبرهان...؟!

ماذا يقول رقيبة، ونظرة الرجل وموقفه يطارد الجواب، أبوها صحيح... وليها... لكن الأمر مفاجىء... مفاجىء، لم يهيأ له الرجل، ولعله لم يكن ليهيىء له نفسه حتى لو كان ذلك ممكناً... ربما كان يكلف قديدير بشيء من ذلك فيما لو اضطر لمعالجة الموضوع... فيما لو اضطر حقاً مادام قد قطع علاقته بالدرب أهله وأخباره، وأوكل أمر الأهل هناك إلى كاتبه وكاتمه...

المزاج نفسه لا يسمح في هذا الظرف بمعالجة هذه الأفكار... وهكذا رغم كل احتياط، تخترق المشاكل قلعته المحصنة وعليه أن يتخذ قراراً... ويعطي جواباً... إلزام إذن ؟... من نوع ما سحقه طوال عقود عمره من إلزامات... تلك التي ولى عهدها بالنِّسبة إليه... يتجاهلها... يغفل عنها... يهملها، لا تهم التسمية ولا التعْبير... المهم، أنه لم يعد لذلك... ولم يعد ذلك له... هكذا أراد ويريد... نظرة التبعي وابتسامته تأخذ بحلقومه ورأسه لاستخلاص الجواب... ليس عندي جواب... ليقل إنه لم يعد أباً.. لا يشعر بأبوة لأحد... وخاصة في مثل هذه الظروف والمزاج... الجواب ؟ ماذا يقول ؟ ماذا ؟

تنبري حورية تساعد... مهما يكن فالبنت بعيدة عن والدها منذ

سنوات... مفترقان منذ مدة... سنوات... وما حدث ويحدث إنما يتم بغير علم ولا إرادة منه... تماماً تماماً، والأمر ليس بيده... فاقد الشيء لا يعطيه... ولا يمنَعه..! فلننتظر. يجب ترك الأمر لبعض الوقت.. الأمر في الواقع بيد الفتاة... بيد أهلها هناك، عند أمها، هناك، لا هنا. هنا، الكل بعيد عما يجري هناك... الكل غريب هنا عما يجري في الدرب...

كانت حورية تنطق بلسان رقيبة، تدرك ذلك كما يدركه، رغم أنها كانت أميل إلى حسم الموقف، وإنهاء الموضوع بجواب قاطع... إيجابي طبعاً... ولم لا ؟ وحتى بالرفض... لم لا ؟ المهم أن تضمن إنهاء الموضوع مرة واحدة، لم لا يرفض الطلب إذا كان هناك من مبرر..؟ المهم ألا تترك فرصة لتكرار مثل هذه الزيارة مرة أخرى من طرف التبعي أو غيره.

ظل رقيبة تائهاً، لماذا لا يترك وشأنه، لو استطاع أن ينسى... وهو يستطيع فعلاً... واستطاع... لكن بدون هذه الاقتحامات لقلعته المحصنة... واقتلاعات عسفية ترمي به في دوامة الإلزامات والالتزامات... الجواب... الجواب... ماذا يقول ؟

لا تسعفه راحة الكف على جبهته بشيء، يحس رقيبة بضغط كبير وشبه اختناق، ضيم داخلي واكتظاظ أنفاس تتردد في داخله، لماذا يكون عليه أن يعاني مثل هذا الموقف. موقف لا أغرب منه يفاجئه...؟

نظرة الرجل، نظرة التبعي وابتسامته الهادئة تلح أكبر إلحاح في انتظار الجواب... انتظار القبول والترحيب والحبور... ماذا يقول إذن ؟ ماذا يقول أكثر مما تقول حورية وتفكر به، ألا تقرأ أفكاره وتعرف رياحه ؟ ماذا يقول إذن ؟

ولا يملك رقيبة إلا أن ينهض كمن يقتلع نفسه اقتلاعاً من موقع موحل أو لاصق... جوابه ليس على الطلب في ذاته، كل بنت إلا ومصيرها السعيد أن تتزوج، السيد ولد سيد السيد فوق الرأس والعين، الجواب ليس على الطلب في ذاته، الجواب أن الموضوع خارج اليد، خارج البال... ليس لديه الآن بنت يزوجها أو يطلقها... حقّاً، هذا كل ما يستطيع أن يقول. ليس تحت يده ما يزوج أو يطلق، ليس له رأي في الموضوع ولا رأس ولا فكر ولا نية... الموضوع خارج فكره... لا يملكه... تماماً كما قالت حورية وكما تقول أو تفكر... هنا في هذه الدار لا شأن لأحد ولا علاقة بما يجري هناك... كل شيء منتهي ومحسوم محسوب... هذا كل شيء...

كان رقيبة يتحدث مقاوماً رغبته في الانفجار، متجملا مجاملا مع ذلك...

عينا التبعي وابتسامته تلحان الآن برفق واصطبار... هذا جواب، جواب خير، كله خير في خير إن شاء الله... كان يؤكد ذلك كما لو أنه سمع ما يرضي أو ظفر بمبتغاه، كان يحرك رأسه وملامح وجهه يغمرها بشر غامر، وسرعان ما ينتبه إلى وقفة رقيبة فيقوم مودعاً داعياً... متلفتاً إلى كل ركن، ثم يتبسم لرقيبة وزوجته.

ــ نراكم بخير، بكل خير.

وكأنه يدعوهما إلى حفل الزفاف !

39

تبدو الدنيا فاقدة لونها هذا اليوم... غريب... على كثرة ما تزعج به من ألوان في العادة، تبدو اليوم عديمة الألوان... عديمة اللون على الأصح، فهي لم تظهر يوماً بغير لون، واحد يملأ الآفاق والأبعاد، يطبع الأشياء والأشخاص، حتى عندما كانت تغير ألوانها (لونها)، فإنها لا تبدو بأكثر من لون واحد آخر وحيد طاغ باغ... لا يمكن أبداً أن تحتمل الدنيا بدون لون مهما كان مؤذياً أو قاتلا، لاهباً أو حارقاً...

يحس الهبطي باختناق حقيقي كما لو كان في وسط عديم الهواء... اختناق يجعله حقيقة يُمرِّر كفيه واحداً بعد الآخر، تارة بعد أخرى على رقبته، ويوسع رئتيه بحثاً عن هواء... اختناق في التنفس، شعور حقيقي به؛ واختناق بصري وسمعي، لا يرى ولا يعي... الدنيا بدون لونها أكبر عذاب... أشد تعذيب، وإن كانت بلونها الحاد الأوحد عذاباً فهو على الأقل... على الأقل القليل عذاب يضحك ويُبكي... ما الدنيا بدون ضحك ولا بكاء، مهما تناوبا وامتزجا أو التبسا..!

اختناق حقيقي يزيد من شدة خنقه على الرقبة وثقله على الصدر والقلب... زحام درب الأحباس وضيق أقواسه وانحناء سقوفه... كارثة... كارثة كونية كبرى لا يدري الهبطي لماذا لا يشعر بها الناس، أو لماذا لا يظهرون شعورهم بها على الأقل... هاهم أولاء يمرون أمامه ـ إن كانوا يمرون حقيقة ـ وكأنهم في يوم جادٍّ عادي... هاهم أولاء يتحركون ـ إن كانوا يتحركون حقّاً ـ وكأن شيئاً لم يحدث...

وكأن لاشيء مزعجاً قد حصل ويحصل ؛ وكأن لاشيء مثيراً أو قاتلا قد وقع ويقع... كأن الاختناق لا يعنيهم وهم المختنقون المتحركون... هذا ما يمكن أن يطلق عليهم من أسماء : المختنقون المتحركون الذين لا يشعرون... حتى لا يقول عنهم إنهم أحياء أموات أو أي شيء آخر من هذا القبيل... الاختناق يمنعه، والشعور القوي بشدته على رقبته يعوقه عن أن يضحك عليهم أو يبكي، وإلا لفعل كما لم يفعل أبداً في حياته.

يضج الهبطي بالاختناق، وكأنه مكْسوٌّ به، ينظر إلى عريه، يتأكد من أنه غير مكسو بشيء، إلا من هذا الكون الذي يلبسه دائماً ولا ينضوه عنه أبداً؛ يتحسس ثنايا جسمه وأطراف أطرافه.. لاشك أنه مايزال كما كان، يحس بأنفاسه، بروائح ذاته، بكل ما كان فيه كالمعتاد... لم يتغير فيه شيء. ولون الدنيا والخلائق هو الذي تغير... لم يتغير فحسب، وليت ذلك حصل... بل إنه انعدم... لا لون... لا يمكن... وليضج الاختناق...

ضج بالفعل... ضج بصوت لا لون له، ولم يَبْد من ألوان الناس أنهم سمعوا له لوناً أو رأوْا له صوتاً ! ضجَّ يجري تاركاً أقواس درب الأحباس وراءه، مخترقاً درب البلدية... يكاد يفقد الرؤية كما يفقد التنفس والنبض وحس الاتجاه... آه أخيراً... وأخيراً... صفراء... دنيا صفراء... خلائق بالأصفر في الأصفر... تغير لون بلون... المهم اللون... والعذاب اللالون... المهم أن الهبطي في لون، الدنيا حوله وفيه تموج في اللون... والعذاب... العذاب اللالون...

هاهو ذا الهبطي يهتدي باللون، يحس بقرّه وصهده، يؤلمه ذلك إلى حد المتعة ويريحه إلى درجة العذاب... هاهو ذا يتنفس اللون، ينبض

به، ينجرف أو يحترق ولكن دائماً في اللون في راحة اللون ولهيبه... اللون... اللون...

وأحس الهبطي بأنفاسه تعود إلى طبيعتها، إيقاعها ينتظم في مجاري كيانه، يرفع بصره ويجيله كالمبتهج بانبهار، ما يرى وما يكتشف باللون ووراء اللون... كون أصفر كامل الصفرة، مغلق الصفرة، محترّ الصفرة... بارد... صقيع...

الناس في أصفرها الأصفر، وموجات اللون المطبق سائرة سادرة شاردة لا تكاد ترى اللون... لا تراه ولا تحس فيه بشيء، لا يبدو عليها شعور براحته أو عذابه... وهو وحده يشقى وينعم بما فيه...

الجدران صفراء، والسحب وأصوات الرعد والبرق ما أضاء منها وأرْغى، وما لم يولد بعد... كون بلون شامل كامل، والخلائق الذائبة فيه، غارقة في اللغط الصامت والغياب، وفي الحركة الميتة. وحده الهبطي، يحس بكونه، ووحده الكون اللوني يفسح المجال لابتهاج الهبطي ولحركته العفوية المتناغمة مع إحساسه وخطوه... كل شيء باللون له معنى وله الفرحة والبهجة، أمواج اللون تشير لكل شيء وعلى كل شيء، أقواس الأحباس، تلك التي تبدو من عالم مجهول للهبطي، تلتئم معالمها وتلتحم أطرافها وأعطافها، تعود إلى دفئها... دفء ألفتها الذي يحتضن الهبطي... بمجرد ما يكتسيها اللون أو تكتسيه... قبل ذلك... بدون ذلك، تبدو... لا، لا تبدو شيئاً على الإطلاق، لا يبدو منها شيء... الآن، باللون يعرفها الهبطي كما يعرف الأرض والسماء...

الأرض... الطريق... والدروب... والخطوات كلها تهتدي باللون، يهتدي فيها الهبطي باللون الواحد الشامل، وبالإيقاع المألوف...

بونا آدم... بونا... آدم... بونا...

40

مقهى الجيارة، مركز النبض، ملتقى أزقة ودروب، في لحظة من لحظات فورانه، لحظة من نهار، تأخذ من عصره إلى ما شاء ليله... إلى ما شاء رواد ليله حسب الهمة والحماسة والاحتمال. أحياناً يشتد الرهان، تغلي المنافسة، ترتفع حرارة الرقع والسوق، فتمتد إلى أن يسفر ويصبح ولله الحمد... تلك أحيان قليلة لكنها ليست نادرة... معدودة وليس معدومة...

لحظة الفوران تبلغ أوجها بتقدم المساء من بدايته قبل المغرب إلى ما بعد ذلك... حماسة الرواد تتطاير أضواؤها، فتتجاوب في الفضاء، تعكس حركة حول الرقع وفي الساحة حول المقهى وحول كل طاولة... رقع الضامة معارك حامية، ضاربة بيادقها بعضاً ببعض، تتساقط وتتدافع بعضها تلو بعض.... اللاعبون المتنافسون، يستلهمون العنترية والهلالية في الحصار والضرب والهجوم وفي التنكيل بالأعداء الخصوم... الضامة الأولى سيف مسلط على الوديان والسهول. الخصم... الخصم محاصر محدود الحركة، محسوب الخطو محكوم بمصير مؤجل... إلى حين. الشهود يلهثون ويلهجون... لعبة التحكم... نقلة... أو نقلتان... هل من مخرج آخر ؟ ما الثمن ؟

مكعبات الدومينو بمنطلقاتها تفتح آفاقاً أرحب لمن يعرف ؛ وبعضها

الآخر يسد السبيل... يسد النفس ويمنع الحركة... السد. يطول البناء والتأسيس ويلهج العد والحساب... ما في يدك يكمل ما في يد الغير ويحاصره... شريطة أن تعرف أو تحاصر بما عندك مهما كان.

الأرقام تتصاعد من سوق التجاري، أسواقه الكبيرة والصغيرة، التجارة تجارة بما هي ربح وخسارة، وينادي الرابح الفائز هنا وهناك، بالمتراهن عليه... ينادي بسوابق نصره وبسجله مشفوعة بنظرات اعتزاز وغبطة كف هنا وهناك، وغمزة مرحة مترنحة من زهوها لهذا أو ذاك... يطلب المتراهن عليه من كؤوس مترعة من لبن مخلوط بعصير الفواكه والمكسرات، بروح الفواكه والمكسرات... وأخرى، كؤوس مشعشعة بالشاي المنعنع الفواح تصحبها حلويات مختارة من بنات العسل والقشدة... هنا وهناك، معارك طاحنة حامية ضاحكة باكية تعلو على مآسي الدنْيا وأفراحها الحقيقية والمصطنعة... سُوق التجاري لا تهدأ إلا لترتفع... تبدأ هادئة ثم تسخن لتحمي وتحتر... والشرية الكاذبة بنت المزايدة المناورة توقع في الخسارة المؤكدة إن وُجد الخصم الشاطر الحاذق الشمام... خسارة مضاعفة... إن وجد الشاطر العليم بالسوق، دواخلها وخوارجها، ويصيح المشتري بأعلى صوت وبغمزة لرفيقه الحليف لجمع ما عندهما معاً... جمع ما لا يجمع إلا نادراً... في شرية تعتبر واحدة من خبطات الدهر... لو... يذهل الخصمان المتقابلان... والسوق سوق... وما هي إلى جولتان ويكشف الفائز عن أوراقه مكتسحاً ما سبق وما لحق... شرية الدهر، خبطة تجارية بأقل القليل من التدبير؛ بل بلا شيء تقريباً، كيف يصبح اللاشيء شيئاً...؟ وينادي بصوت النصر والاعتزاز بالغنيمة المتراهن عليها... أكواب وطيبات مختلفة من كل لون وضحكات، حسرات من كل لون... وفخر وافتخار جراء القتال والجهاد والحساب

الدقيق... وحس التجارة... ليذهل الفريق الخصم ما شاء وليتخاصم، فهذه معركة تخصه ولا تهم الفائز... لا... لا تهمُّه إلا من حيث أنها الإقرار الحقيقي بفوزه وانتصاره... زينة الفوز وحلاوته ولمعانه... والسوق سوق على كل حال...

41

اخترقت السيارة شوارع أنفا منحدرة لتغرق في أضواء الشاطىء الصفراء الغامقة يغلفُها الضّباب؛ وبتؤدة بالغة، كان رقيبة يتهادى في قيادته، على يمينه أسفل الحافة تنتظم المسابح الأنيقة يغذيها البحر مباشرة، مهملة خارج الموسم؛ وعلى اليسار، الجادة الأخرى، تتهجى العين أسماء ملاه ومطاعم؛ تتحدى حروفها الأرجوانية... الزرقاء... كثافة الضباب...

ينحرف الطريق متهادياً، متضافر الأضواء الزاهية المتقلصة النور بفعل الضباب في إضفاء مسحة سحرية على لوحته. لكن رقيبة يتوقف في النهاية أمام المدخل الكلاسيكي للملهى ليلته... يتمهل قليلا أمام المقود، كأنه ينفض عنه غفلة ذهن أو أثراً من غفوة... لا، كأنه يوقظ كائناً خامداً في زاوية منه، آه يا سطوة المكان... يا سلطة الذكرى والعنفوان تامسنا. تامسنا... لم يكن المكان نقطة بداية في مسار حياته الجديدة، لكنه كان من نقط البدايات الأولى... لم يكن المكان إذ ذاك أكثر من حروف مجسمة ومقاطع لها طعمها الخاص المحدود، كلما تلفظ به وأعاد المكان بينه وبين نفسه أوحى إليه بأكلة معسلة، أو بأميرة هلالية غير محددة السمات إلا من شبه رداء حريري شفاف، تترامى أطرافه منعرجة في الفضاء على هبّات نسيمية رُخاء كأجنحة الفراش... الحارس، الحارس على الباب المقوس يتحرك في وقفته مهيئاً

سمت الاستقبال... ذكرى بداية طريقه عندما أراد أن يجاري بدوره، ويظهر أن له رأياً في الحياة الجديدة ومعرفة بأماكن اللهو والمتعة... إذ ذاك اقترح هذه الحروف السحرية التي لم تكن له علاقة بمدلولها، إلا من حيث شعوره إزاءها بالتهيب أو ما يشبه التهديد... شعور يخامره في المواطن الجديدة، إلا أنه عَزم على تجاوزه، وليس من مناسبة أفضل لذلك منه وهو مصحوب...

صاحت حورية متعجبة من اختياره إذ ذاك، وهزت كتفيها مقلبة شفتيها في حركة لها كل المعاني إلا مصادفة اختياره الصواب... ثم أومأت أن لابأس، فلنجربْ... لم يكن يدرك وجه تحفظها، وظل على ذلك بعد سهرتهما مباشرة عندما أكدت أن المكان كلاسيكي... لم يدرك معنى حكمها إلا فيما بعد بوقت طويل... سنوات... مهما يكن فلقد أمضيا وقتاً طيباً في المكان وكان وقته أطيب برفقتها؛ يمكنه أن يعترف بأن المتعة كانت منها... من وجودها، أما الفضاء والمكان بحاله وما فيه فلم يكن إلا أرضية... تامسنا، لم تكن أكثر من تامسنا... لكن حورية التي تعرف كيف تجعل من كل لحظة متعة، فكل شيء يختلف لمجرد وجودها... يقول عنها في نفسه كأنها تخطر وفي كل وقع أو خطوة توقظ أو تخلق ذرة متعة... لو تملت ميناء ساعة معطلة لتحركت في الحين عقاربها راقصة... إنه تلك الساعة المعطلة، وزمانه ومكانه ووجوده كله!

الآن... وقد أوغل معها في الطريق، وجاب معها مجاهل المتعة في عوالمها التي لا تُحد ولا تنتهي، يمكنه أن يؤكد أنه سعيد بذلك، راض مطمئن؛ ويمكنه أن يؤكد ما هو أكثر من ذلك... كم كان ساذجاً... وإلى حد كبير عندما اعتقد أنه كان يحيا أيامه قبل أن يلقاها ويحيا معها... حرك رأسه مرة أخرى، ينفض عنه أفكاره تلك. تامسنا، يا

١

سحر المكان وعبق الذكرى. يدها كانت على كتفه تنتظر عودته من يمِّ الشرود. نظر إليها، كانت تبتسم ابتسامة هادئة عريضة، فيها من حنان أكثر مما فيها من مؤاخذة أو عتاب، طبعت على خده قبلة خاطفة، وسبقته إلى النزول... لا مانع من أن ينعش ذكرياته إن كان ذلك يريحه أو يحفزه، بالماضي نحيا كما بالمستقبل، إنه الزمان ينْسج الذكرى نسيج الكيان... زمانهما... نسيجهما.

على عتبة المدخل، رفع بصره إلى قوس الباب ونقوشه الغليظة منسجمة مع السور الحجري مكونة مشهد قلعة محصنة، اجتاز الحارس الذي أومأ بالتحية، الضباب يبدو أشد كثافة من فسحة المدخل الفسيفسائي. بدآ يهبطان الدرجات في حديقة عميقة على شكل مدرجات تلتمع أرضها الرخامية حول النباتات والأشجار، موزعة إلى أروقة وممرات...

اختار السير في الرواق اليميني حذو الأقواس... هبطا الدرجات... مجموعة بعد أخرى منحدريْن في المدرجات الرخامية... وانفتح لهما الباب الزجاجي فدلفا إلى الداخل... أضواء ملونة وموسيقى مرحة راقصة... على المقصف تلتهب في خفوت وهدوء مصابيح قانية بشكل شمعات طبيعية. على الطاولات المنتظمة في القاعة... تلتهب الشموع... تذوب في الهمس؛ ووَحْدَها الحلبة تصطخب بالصوت والحركة، وتسبح في شلالات الضياء الملون، تتحرك على أرضيتها المموهة في جذب وتباعد أعمار يافعة، وقلوب طافحة، تعتصر الكيان والوجود حبة حبة، قطرة قطرة، لحظة لحظة...

42

بقعة نائية تبدو مضيئة في الظلام المخيم على أطراف الدروب، شمال سوق القريعة... على ضوء مصباح غازي تتحرك بكل اتجاه بضعة أشباح... عزيز ورفيقه علواني يتحركان حول مجمر طيني التهب فحمه، وتصاعد البخار من الحافة الدائرية لالتقاء المكبّ وطاجينه الفخاري... يتحركان متعاونيْن على إعداد وجبة عشاء بهمّة وبحمية ونشاط، يتبادلان كلمات التوبيخ تارة، والتنويه تارة أخرى على ما يبدو من أحدهما للآخر على أنه إنجاز ملائم أو إخلال بما يتطلبه إعداد وجبة طيّبة... يتباريان في إظهار مهارتهما بسعادة غامرة...

بقعة خلاء فسيح من أراضٍ زراعية خارج حدود المدينة المعروفة، وعلى حدود أحياء جديدة ممتدة بذاتها فيما يشبه مدناً جديدة...

خلف حلقة الضياء، وراء الشابيْن، تقوم حويطة من أحجار مرصوفة مسقوفة بأعواد وقش غير متراصة، تظهر بينها فراغات غير منتظمة... شبه استراحة... شبه مأوى، في حالات الصحو ومواسمه، لا تفي بأكثر من مجرد الشعور أو الإشعار بالاحتماء والاستقرار.

لا تسع الحويطة قامة شخص في ارتفاعها، ومن ثم يدخل إليها ويخرج منها زَحْفا وانحناءً... ضوء خفيف ينبعث من عمقها... من الداخل... والفتيان خارجها منهمكان في إنجاز متطلبات الوجبة، يرفعان بين الحين والآخر المكب يتفقدان الطبيخ أو يضيفان إليه شيئاً،

فيتعالى الغليان والبخار، ثم يهمد بمجرد إعادة الغطاء المقبّب لينسد على قاعدة الطاجين.

في غاية السعادة يبدو الفتيان، وقد أنْهيا آخر ما يجب إعداده... نفضا أيديهما، وتركا الباقي لفعل الجمر والوقت... بدا الفتيان في البقعة المضيئة ينتظران شيئاً، ويصرفان فيضَ نشاطهما في حركات تحاكي معْركة ملاكمة... كل منهما يكيل للآخر ما يشبه الضربة، يتظاهر خصمه بالتصدي لها، ورد مثيلها لغريمه... كانا متقابلين يواجه كل منهما الآخر في شبه انتصاب على ركبتيه... يتحركان متمايليْن حسب ما تقتضيه المواجهة، مغرمَيْن بمتابعة التواءات ظِلَّيْهما إلى جانبهما على جدار الحويطة...

في غمرة لهوهما، لم يكونا لينتبها إلى الشخش الذي تسلل نصفه خارج عتبة الحويطة، منبطحاً على بطنه، مستنداً إلى مرفقيه يرمق حركاتهما بحياد... ومالبثت حمية الخصميْن أن ارتفعت، فاستقاما واقفين على أقدامهما يتحين كل منهما فرصة يصيب صاحبه، أو يرميه أرضاً... مشهد لا يمكن أن يثير غير متعة وابتهاج في خاطر الشخش، والفتيان يبدوان متعادلين في مهاراتهما، لا يفتر أحدهما إلا لينشط، ولا يضعف أو يختل إلا ليقوى، ويتّزن... ثم إذا بعلواني يُبرز من جنبه مطواة صائحاً في اهتياج :

ــ وهذا ؟!

تقهقر عزيز خطوات إلى الوراء، وعيناه تتابعان الحد اللامع في قبضة خصمه... يبحث عن مخرج وصاحبه يتقدم نحوه ملوّحاً بسلاحه...

قبضة الشخش القوية على كتفي عزيز، ووعيده له بأن يرفع

عينيه... يرفع رأسه... ثم وهو يتجه نحو علواني يقرص أذنه بالسبابة والإبهام، ويعيره :

ــ خواف ؟!

وينبهه إلى علائم الخوف التي تظهر على يده الممسكة بالسلاح الأبيض ممتدة نحو الخصم... لا... لا... هذا يضعف الهجوم إذا كان الخصم خبيراً... السلاح الأبيض... إشهار السلاح الأبيض بقبضة اليد يجب ألا يبرز عن جسم المهاجم به بأكثر من طول الساعد...

وسحب الشخش المطواة من علواني يوضح له كيفية الهجوم على الخصم بسلاح أبيض... ثم سرعان ما توقف... ورمى السلاح من يده متأففاً :

ــ أخخخ...

لم يكن الشخش من مستعملي السلاح الأبيض أياً كان نوعه... معاركه كلها بقوة الساعد ومهارة الحركة... مهما كان خصمه ومهما كان سلاحه... ومع ذلك، لم يترك الفرصة تمر دون أن يفيد الفتيين... جذب إليه عزيزاً، ينبهه :

ــ حل عينيك في صاحبك...

موقف الدفاع الصحيح، ألا يتابع حركة السلاح في يد خصمه... إنه يغفل إذ ذاك عن موقع التصويب وموضع الضربة... العدو يضرب بعينيه قبل أن يضرب بالمطواة... حدّقْ في عين عدوك تعرف موقع الضربة... ثم أنت بالتحديق فيه تشككه في نفسه وسلاحه...

ويؤكد :

ــ حل عينيك وارفع راسك...

خفّت حدته المغلفة بالغيرة، وجلس بارتخاء، فجلس عزيز بقربه وهو يمسح وجهه، بينما انحنى علواني على المطواة يمسحها، ويعيد نصلها إلى غمده ويخفيها في جنبه، ثم ينصرف لتفقد الطاجين... ليعلن أن العشاء جاهز... ويأخذ مجلسه بقربهما...

وطفق الفتيان يتابعان أحاديث الشخش بافتتان وهو يوضح لهما من خبرته، أن الجسم هو السلاح الحقيقي لبني الإنسان، إذا أتقن وجه استعماله... وأنه لذلك لم يستعمل أداة في حياته قط...!

كانوا على وشك أن يجلسوا للعشاء، حين صدرت عن الشخش حركة تنبيه وترقب... بدا عليه التصنت والتحفز كما بدا على رفيقيه، اتضح لهم أنها خشخشة بين الأعشاب الجافة المحيطة... قد تكون لحيوان ضال أو سارح بليل... لا، لا، حركة الشخش تومىء بأن الأمر قد لا يكون كذلك... امتدت يد عزيز نحو المصباح الكهربائي اليدوي يريد إشعاله وتوجيهه نحو مصدر الحركة المريبة، إلا أن حركة من الشخش منعته من ذلك... ثم مالبث الشخش أن ترك رفيقيه مكانهما، وتسلل بخفة حتى غاب عنهما في الظلام...

ظل الفتيان في موقف الترقب... لم يكونا خائفين بقدر ما كانا متحفزين متشبعين بفضول المغامرة... من لا يعتز بلحظة يمضيها في رفقة شخش درب السلطان، وشخش الدارالبيضاء بكاملها، فما بالك إذا أصبحت اللحظة مغامرة تذكر وتحفظ وتتكرر... فجأة علا صوت حاد رقيق يصرخ... صوت نسوي هلِع يلعن ويستنكر ويتوعد، وضحكة للشخش تعلو أثناء ذلك، معلناً أنه اصطاد سمكة وحشية في الظلام ؟

وبدأ الأمر يتضح وخطوات الشخش تقترب وشبحه يغشى بقعة

الضوء متأبطا عويشة، وهي تضرب بيديها وقدميها في الفراغ صارخة... وضعها بينهم، فانصرفت في ثورتها تصلح ما تهدل من شعرها، وتسوي جلابتها، وتذكر بأنها فقدت حذاءها...

أحاط بها الفتيان يهدئان من روعها، بينما الشخش ينظر إليها مبتسماً في لهجة المتشفي المشفق... تطوع علواني بالبحث عن حذاءها الضائع، فأخذ المصباح اليدوي واتجه ينقب في الظلام...

تساءل الشخش عن مجيئها في هذا الوقت مستنكراً فعلها... هزّت كتفيها بلا مبالاة، مستمرة في ثورتها :

ـــ وأنتَ مالك ؟

فتاة بادية العناد والصلابة... نبهها إلى أنها تعرض نفسها للخطر في مثل هذا الليل... في الظلام... وحدها... كان من الممكن ألا تجده... ألا تجد أحداً منهم... أمعنت في موقفها مستهزئة من خوفه عليها وتحذيرها :

ـــ وأنا مومو ؟

حاول عزيز أن يتدخل مراراً، فكانت تخرسه بحركاتها. تناولت الحذاء من يد علواني دون كلمة...

تحلقوا في العراء حول العشاء، طاجين اللحم بالبطاطا والزيتون موضوع بينهم على وصلة الخشب، فواح الرائحة نفاذ. الجماعة مراعية لشعور الفتاة، فتاة خفيفة سمرة بملامح حادة، بادية العافية والنشاط في نحافتها، أيدي الجماعة تتسابق لأطايب الطاجين عدا الفتاة التي ظلت عازفة عن الأكل، الشخش يجاملها ويختار لها ويقدم بعض الطيبات... بدأت ترق لمعاملته... سألها عن سبب مجيئها... أجابت مندهشة وبجرأة كاملة :

ـــ أنت... أنت السبب !

تكرر عليه دون ملل أنها ستظل وراءه... تحبه... لا تخجل من ذلك ولا تخاف أو تداري... الآن، هي مطرودة من المنزل... أبوها طردها... صحيح أنها طردت أكثر من مرة قبل الآن... لكن، هذه المرة، الوضع يختلف... وهي لن ترجع أبداً، لن ترجع... ولن تفارق حبها... أبداً... أبداً... ليكن ما يكون...

بحدة كانت تتكلم وبانفعال... بهدوء كان يتابعها مبتسماً... كالمشفق عليها... توقفت كاتمة أنفاسها، لم تكن متأكدة من موقفه، من فعل حماستها فيه. ظلت ترمقه ثم دفنت رأسها بين ركبتيها وانخرطت في البكاء، ربت الشخش على كتفها بحنان... كان يبتسم لها ويقدم لقمة... تأففت، نحَّت يده عنها، مسحت دموعها واستعادت على الفور ملامح الجد... يتزوجها ! عليه أن يتزوجها..! ليشهدْ الجميع على ما تقول له. ليس أمامه إلا أن يتزوجها... هو إنذار أو... وهي لن تفارقه على كل حال ! حمقاء، دائماً يكرر لها ذلك بالجد والهزل... حمقاء... ماذا يتزوج ؟ ماذا تتزوج فيه ؟ ليس له مستقر وليست له رغبة، وأمه لن ترضى أبداً، لن ترضى، يعرف ذلك ويدركه من حديثها معه عن المرأة والزواج؛ كلما خلقت ظروف للحديث عن الموضوع، وهي قلما تفعل، إلا وبدأتْ تحومُ حول بنات البلد تمدح وتطري... وتعرج مباشرة على بنات درب السلطان وبنات المدن بلسان لا يرحم... قليلات الحياء ثم مبذرات... ذميمات... مريضات... متسخات... وأنتِ يا عويشة تعادلين كل بنات السوء... تعادلين... وزيادة... ثم... أنت متزوجة؛ رغم كل شيء كنتِ متزوجة... زوّجوك بعلمك، بغير علمك؛ برضاك، بغير رضاك؛ لا يهم... وعلى كلّ فأنتِ غير مطلقة..!

تنظر إليه... تنظر ملياً نظرة استنكار، خائف ؟ تستفزه بالسؤال أكثر مما تستفهم، خائف منهم ؟ إنها لا تطلب صدقة ولا عوناً منه... هي فقط تُحبه وترى أنها لا يمكن أن تحتمل الحياة مع غيره... أم أنّه يأخذ عليها أنها أصبحت ذات سوابق زوجية ؟ لا تخجل من ذلك... هربت من بيت الزوجية، ولا يُخجلها ذلك، أم يريد لها كما أرادوا أن تقضي العمر سجينة مع شيخ لا تحبه، ولا يقوم لها بشيء... أمه ؟ خائف من أمه ؟ وما أمه ؟ ليذهبْ إذن إلى البلد ويأتي بها راعية تصلح زوجة له... وأي زوجة !

كانت تنفُض يدها من الموضوع يائسة من أن يفهمها أو يرقى إلى مسؤولية الرجال... هو الذي يقال عنه الرجل أو سيد الرجال، كما تروي أمه أو يروي عنها... لا تطلب نفقة ولا تشترط كساء ولا منزلا... وهي بنشاطها قادرة على الإنفاق عليه وعلى جماعته وأمه أيضاً... تسرق ؟ نعم... نعم، تسرق وتسرق وتسرق..! ومن يستطيع ذلك.. بمثل مهارتها...؟! أصبحت لها سوابق في هذا أيضاً... سوابق ؟ لا يهم، المهم الحياة... ولو وجدت رجلا يقوم بها وترتاح إليه ما كانت لها سوابق... ولا سرقت ولا فعلت شيئاً مما تفعل... الآن... الآن هي قائمة بنفسها... ويمكنها أن تعيش في هذه الحويطة مع من تحبه وترتاح إليه... والعراء أفضل مسكن وغطاء... حتى السجن مع من تحب يكون أحلى... ولكن... على من تقرأ زبورك يا داوود ؟ لا يفهم، لا يفهم، أمه ؟! أمه وراعية الغنم من بنات البلد !

تناولت عويشة سيجارة من علبة عزيز، أشعلتْ وطفقت تنفث دخانها بعصبية، نظرتهم إليها نظرة عطف، والشخش يحاول تهدئة روعها. ضحك ليقول لها إن سكنى السجن تفرق بينهما، وهي تعرف

ذلك... يضحك ؟ كأنها تمازحه، كأن الوقت مزاح في مزاح. هذا عيبه... يضحك عندما تكون معه في حديث الجد، أما هي فقد قالت ما عندها... وأمه ؟ هل يتزوج أمه ؟! استفاق الشخش للعبارة والسؤال. فلتة قاسية، حمقاء، انتفض كيانه ونفرت أعصابه وارتسمت الرعشة على خطي خده... تلعثمت أمام نظرته النارية وجمود قسماته... استكانت وساد وجوم... مثل هذه الحالة من الشخش منذرة بكل الأخطار...

كانت عويشة تتمتم مستغفرة الله عما صدر من لسانها، تتفل حواليها متعوذة من شر يومها...

مع ذلك... عاد الشخش إلى هدوئه... حمقاء... حمقاء... يقول عنْها ذلك... يقوله ويكرره، ولا تزيد على أن تؤكده هي ذاتها... حمقاء محبّبة وهذا أيضا صحيح... المرأة سجن الرجل كما يقول ونعيمه؛ قيده وحريته... وهذه الحمقاء المحببة من صنف آخر فريد : عاصفة صغيرة هوجاء تطير وتُطير معها كل شيء... ماذا تريد ؟ لتعتبر أنهما زوجان أم تبحث عن زفة ؟! زفة السجن ؟! وقهقه ضاحكاً مبسوطاً، زمّتْ شفتيها متذمرة... زمت أكثر حتى لا تقول ما لا تتحكم فيه... على كل حال؛ يجب أن تعرف أنها إن كانت تهتم به، فلأنها تريد أن تنقذه من تجواله على الساقطات؛ وهي تعرفهن... ومهما ينكر... فهو يتردد عليهن كغيره من الساقطين... كأي واحد آخر... ليفكر في هذا جيداً... أما هي فتحبه حقاً، وتريد أن تصون حبه وكرامته...

تناولوا الشاي عقب العشاء.. غمامة الكآبة ماتزال تغلف ملامح عويشة... بينما انصرف الآخرون إلى أحاديث متداخلة لا تخرج عن أجواء مغامرات الشخش ووقائعه وأصحابه، يتخللها التنقيص من

أخبار الوِلْد أو «البنت» كما يسميه الشخش وجماعته... أخبار الوِلْد في الطرف الآخر من المدينة، أخبار تنافس ما يروى عن الشخش، أخبار ترد تباعاً تنافس أخبار الشخش... ومن تكون هذه «البُنيّة» ؟ صبي مخنث مدلل أشبه بالبنات منه بالفتيان والرجال يطمح إلى تقليد سيده الشخش !؟

لأبد من معركة معه لو كان يستحق... وهل يستحق فعلا ؟ لم يترددوا في أن يجيبوا بالتحقير... وإذا كان لابد من معركة في يوم من الأيام، فلتكن مع غير الشخش من أصحابه وهم عشرات... مئات... كل أولاد درب السلطان... حتى بنات درب السلطان إلى جانب الشخش ومعه ضد أي كان... الأولى أن تكون المعركة بين بنات الدرب وتلك البُنيّة التي يسمونها الوِلْد ! في الطرف الآخر من المدينة.

مع ذلك، كانوا في غالب الأحوال يطردون خاطراً في أنفسهم... الوِلْد حقيقة... أخباره أصبحت حقيقية... وذائعة؛ مهما كانت فيها من مبالغات وادعاء... والمدينة على اتساعها لا تحتمل خصمين من هذا المستوى... الكل أصبح يردد أخبار الولد في الطرف الآخر، المدينة القديمة وحوالي الميناء، وإذا استمر الأمر فقد... قد يحلم الولد ببسط نفوذه على منطقة الشخش نفسها أو قد يستهوي بعض الفتية بالتبعية له... كل هذا بعيد... يبدو بعيداً يكدر المزاج... ينغص نعمة الحياة ولا مناص من التفكير في معركة فاصلة قريبة.

رَنا الشخش إلى ساعة معصمه، وتأمل ملياً وشم الثعبان الملتف على ساعده المفتول... تحمل وخز ذلك الوشم في العاشرة من عمره أو أقل... كان رهاناً من تلك الرهانات العديدة التي خاضها والتي

كان المتألق فيها دائماً... أسبوع من الوخز المتواصل بما يتطلبه الثعبان من تفاصيل وتدقيقات... والرهان يقضي بألا يتأوه أو تظهر عليه ملامح الألم... بل أن يضحك لو استطاع... وهو ما استطاعه فعلا... كان يضحك من شدة رغبته في البكاء والصراخ، يضحك حتى القهقهة ويسخر متجاوزاً أحاسيس الألم السطحية والدفينة ــ ومن ذلك وبه حمل اسم الشخش ــ رهانات كانت تحديات واختبارات ومحكات لإرادته وشجاعته وصبره وتحمله منذ نعومة أظافره... من يحمل قطعة الثلج، بالة بكل سمكها وطولها على كفيه في البرد القارس حتى تذوب عن آخرها ؟! أي ألم وتجمد ؟ يوم كامل من بداية الصباح إلى ما يقارب منتصف الليل؛ والحكام والمراقبون والمتفرجون يتناوبون؛ يذهب من يذهب لقضاء ما يعن له... ويعود متى يعن له؛ ليجد الشخش الصغير صامتاً صامداً حاملا بكفيه بالة الثلج في البرد القارس؛ وأثناء ذلك بين الحين والآخر، كانوا يناولونه كأساً دافئاً من الشاي أو الحليب... ويسألونه عما يطلب أو يستسلم..؟ صامداً صامتاً ظل حتى أقر القوم بفوزه بعد أن لم يعد حاملا على كفيه من بالة الثلج الكاملة إلا لساناً خفيفاً شفافاً مثلوماً في عدة مواضع لا يشكل أية صعوبة؛ ولا يحميه من تمام الذوبان إلا برودة الطقس المتزايدة... والناس في حاجة إلى شيء من النوم للغد... يومذاك، يتذكر، وهم يلحون عليه في أن يستسلم، أو في أن يطلب ما يحتاجه؛ فقد رأوا عليه علامات الزرقة والرعشة... لم يزد على أن طلب مساعدته في أن يتبول حيث هو... يتذكر..! لم يذكر لأحد أنه كان يعاني من إحساس بقاعدة قدميه تغوص في الأشواك الحادة الطويلة العميقة... وبعظام رأسه توشك أن تنفجر بحد إبر تضرب سقف الرأس، تثقبه وتنقر فيه وتشقه باستمرار وبهمة فراخ الطير تسعى لكسر

القشرة نحو عالم النور والحياة ! كل ما كان يقوله عقب كسب كل رهان، أنه لم يشعر بشيء، وأن الأمر كان شبيهاً بأكل حلوى كبيرة... كبيرة جدّاً... أكثر مما يلزم !

لسعات الوشم كانت أحدّ وأوسع انتشاراً من لسعة الثعبان الواحدة المروعة... رسم القشرة الثعبانية بأدق التفاصيل على امتداد الالتواءات كانت لا توحي بنهاية العملية وتحيل إلى إحساس بالعذاب الأبدي أو الحلوى الأبدية حسب تعبيره... وأقسى شيء كانت، بداية كل يوم من الأيام السبعة... البداية تذكير مكثف بكل ما سبق من ألم... إحياء له وإضافة إليه... مراراً راودته الدوخة... وأحس بأنه يغيب عن الوجود... وأن أكل الحلوى يتغلب على صبر الرجال الصغار... ولكن هيهات... لا... ويزف، كالحال بعد كل رهان، إلى منزله بالزغاريد والهدايا، بكبش أقرن وبأكياس السكر والسميد وصناديق الزيت... وكل المؤن... ولا تملك الستاتية إلا أن تضيف لسانها إلى المزغردات، وتولم فخورة بوحيدها ووحيد الدرب بكامله... شخش درب السلطان والدار البيضاء بكاملها...!

تهللت أسارير الشخش وعمه الرضى عن نفسه وحاله... تاريخ الأمجاد والرهانات والمعارك... ونظر بعطف إلى الفتيين الخائضين في تفاصيل تاريخه ينشدان المزيد ويطلبان الشهادة والتصحيح فيما يرويان من ذلك... وأشار إليهما أن الوقت قد حان لنهاية السهرة والعودة إلى المنازل...

43

رغم كل شيء، فالتبعي لا يبدو في نشاطه المعتاد؛ كما لا يبدو في فتور، فواجب الفجر يأتيه دائماً بقوة تطرد عنه كل نوم أو كسل، ولكنه مع ذلك لا يحس في نفسه بنشاط زائد كالعادة، ولا بالحماسة المألوفة... يحس بتثاقل حقيقي، وبانكسار خاطر كما لو كان خارجاً من حلم ثقيل... تماماً ذاك شعوره عندما كانت طبيعته تتكدر وراحة نومه بالكوابيس... كان ذلك عادة وطبيعة قبل أن تدركه بركة السيد الوالد ليلتحق بخدمته وبخدمة خلفه... كانت طبيعة معذبة في النوم وفي اليقظة... بنت محنته التي لم يكن يتصور لها علاجاً... الله أكبر، لا إلاه إلا الله... لمَ تهاجمه خواطر من هذا النوع مع داعي الفجر والفلاح ؟

يدرك التبعي ويعي أنه ليس في نشاطه ولا في مزاجه المعتاد... وأنها ليست المرة الأولى، كأن طبيعته تحيا من جديد أو تفيق بعد تجمد، إن لم يكن واهماً... واهماً يريد أن يكون ويتمنى... وسلاحه إرادته، إيمانه وخبرته وعون ربه وبركة سيده... لن يحتمل عذاباً بعد هذه السنين... عقد ونصف لا يمكن بعده أن يعود إلى البداية... لمحة خاطفة من محيا صبية تبتسم له، كانت آخر ما يذكر من عهد، وآخر ما يشعر بأنه يحلي أحلامه منذ مدة قريبة أو بعيدة... كانت تهف عليه بمحياها الصغير الوضيء، بريء السمرة والحمرة بين آونة وأخرى،

على فترات جد متباعدة، الآن تهاجم برفق متتابع ملحاح، بجانب محياها الصغير الأليف، تمثل ملامح امرأة ثاقبة النظرات، قوية الموقع، تعكس من النبل بقدر ما توحي من القسوة... ترفَع وجهها على نحو جانبي، تبدو معه ملامح الصبية كالمتخفية بها أو المختفية جنبها... حركة توحي بسطوة المرأة وهالة موقعها لدرجة تكمم في أعماقه السؤال، تحول بينه وبين الصبية... الصبية تبدو مستسلمة في شبه رضى ينبىء عنه طيف ابتسامة هاربة... أتبتسم الصبية له أم لوضعها في شبه حضن المرأة ؟ أتبتسم أملا أم يأساً ؟ أتبتسم حقاً... حقّاً ؟!

يبسمل التبعي ويحوقل، يحمد ويشكر سرّاً وجهراً، وهو يتجول بين الخلق في الصالة الكبرى وفي الصحن، يوقظ النيام؛ يتم جولته ويعيدها مرة وأخرى. يستنهض الكسالى ويململهم في العادة بصفحة القدم، برأس قدمه الحافية بعد أن يخرجها من البلغة. تتحالف حركة القدم الخفيفة الرفيقة مع الصوت المردِّد : سبحان الله، الصلاة خير من النوم... سبحان الله... يا عباد الله... قوموا تغنموا، يتجول التبعي، يحرك ويململ، يهلل ويسبح، يحمد ويشكر، يكرر ويعيد...

حالة فجر اليوم، حال التبعي فجر اليوم حادة قوية، يحس في داخله برغبة جامحة في أن ينحني على كل واحد من القوم... واحداً واحداً... ليمسح على صفحة وجوههم... واحداً واحداً... أن يلمس الوجوه المُسْلمة لراحة الكرى، بلطف ومودة، وأن يهمس في آذان الخلق النائمة برنة هادئة منسابة بما تيسر من سورة أو سور يحفظها، تسري طلاوتها، فتوقظ على خير وجه وأحسنه، خلقاً هاجعاً وقلباً خاشعاً... ليس أحلى، ولا أطلى من سور أو بعض سورة كريمة مرتلة على أنسام فجر مسبّح، تنساب في كيان البشر، لتهزه برفق ملائكي هزة المرح والحبور بيومه... بفجره ومسائه... بوده لو يستطيع أن ينثر الرحمة

رذاذاً والأمن والمحبة هواء... بوده لو ينسج المودة خيوطاً بين الخلق ويرسم البسمة على كل وجه... هذه القلوب الهاجعة إلى راحتها المؤقتة، بعد التعب والحرقة وعذاب ما تعاني وتشكو، عليها برفق رفيق أن تنشط إلى عبادتها مبتهجة شاكرة ساعية إلى الخير... بوده... بوده وبوده، لكنه رغم كل شيء، لم يكن نشيطاً هذا الفجر. خواطره رغم المسعى والإرادة تحملها ريح أخرى، ويمتصها مصب آخر... ومنحدر هائل يشعر التبعي بأنه سينفغر في كيانه... إحساسه بالثقل هذا الفجر، رغم حركته ودفعه لكيانه نحو واجباته، أكبر وأكثر من أي وقت مضى به... إنما... إنّما تحركه الضرورة والواجب.

هكذا ينهي التبعي جولته الأخيرة على نوامه، ويتوجه للوضوء قبل أن يتحول إلى التهليل والتكبير، يسبح ويحمد ويشكر، يتهيأ ويهيىء الأسماع والقلوب لنداء الأذان... لمَ يتأس التبعي لما هو فيه أتجفوه الراحة مرة أخرى ويكسوه العذاب ؟ مسحة الوضوء على الوجه غُلالة يطل منها محيا صبية على ملمح امرأة، نفحة الفجر يخالطها ندى شوق دفين، وغنة الأذان بوح استغاثة فجرية... أيعود به عالمه ؟ أيقوى شيء على أن يعود به ؟ محيا الصبية وملامح امرأة في هالة من قسوة ومروءة !

لم يكن أبداً كاليوم بعيداً عن نشاطه المعهود... يشغل باله حلم وواقع أو أنه لم يعد يعرف في حاله حلماً من واقع... في حركته هنا طيلة عقد ونصف في رفقة السيد الوالد وخدمته، ثم في رفقة خلفه حالياً، علم الكثير... تعلم الكثير... سمع ورأى الكثير... هؤلاء القاصدون المتسابقون إلى التبرك والشكوى والتظلم... هؤلاء الساعون إلى الشفاء وتغيير الحال والساعيات... طالبو وطالبات الرزق والإنصاف والإنجاب وصلاح الذرية... علم منهم وتعلم الكثير الكثير،

مما يتحمل البشر من ألم وصبر، ومن قدرة البشر على الصبر... وعلى الإيذاء والشر!

سنوات طوال أجمل ما فيها صدق رؤيا ورأي السيد الوالد صاحب البركة، حينما استمع إلى شكوى التبعي في أول يوم التقى به... قال الشيخ صاحب البركة وهو يمرر بيده على كتف التبعي مبتسماً ومهوّناً عليه ما يعاني منه أن مكانه هنا... هنا ترى وتسمع ما تهون بجانبه معاناتك ومقاساتك... هنا أنت تخفف من مقاساة غيرك... وعلى بركة الله كان الأمر كذلك... وكذلك كان...

وجد التبعي ضالته هنا... أصبح كأنه ولد يومذاك... هنا... سأله صاحب البركة السيد الوالد إذذاك، فأصدر التبعي آهة ارتعاب يقول: إنه متبوع! يقصد أن وراءه من يتبع أثره، أنه مطلوب في محنة لمحنة، لم يفهم أن السؤال عن اسمه أو لم يسمع... نظر إليه صاحب البركة السيد الوالد، سيد السيد الكبير، الله يرحمه... نظر إليه ويده على كتفه وابتسامته تهوّن وترحب، وقال له: من اليوم، أنت التبعي... ومنذ ذلك اليوم يعيش التبعي في حرمة الدار، في حرمة المكان وصاحبه، لم يحس أبداً بأنه متبوع... أو مطارد أو مطلوب... نسي كل شيء، نسي حتى محيا الصبية وملمح امرأة وقورة في جلال مروءة وسطوة... نسي... هل نسي حقاً أنه أسلم صبية بيديه طوعاً إلى المرأة تلك؟ بأية قوة أمر صامت منها وبأية رغبة دفينة منه؟ نسي حقّاً أم...؟

عقد ونصف من سنوات العمر، دخل الدار يلهث تعباً ورعباً، ينشد أمناً وحرمة في يسراه كيس يحوي ما تواضع من رزق، ويمناه إلى صدره يحمي ويحمل... يحتضن صبية! تعلم الكثير... رأى وسمع، ومايزال يسمع الأنين نفسه وألوان الألم فيما حوله... وبركة السيد

على بركتها تفيد ولا تفيد تنفع ولا تنفع... فمن يصلها أو تصل إليه وكم ؟ أينفجر فيه الشك هكذا مرة واحدة ؟ أعوذ بالله من الشك، هي حرقة قلب ظلت خامدة تتقد اليوم من ذاتها.

التبعي بالذات، يرى في نفسه أن بركة المكان وأهل المكان الصالحين أفادت ونفعت فيه... أليس عقداً ونصف عقد من الأمن والسلام ؟! ويرى ويشهد أن بركة المكان وأهل المكان الصالحين أدركت وتداركت الكثير من غيره... رأى ذلك رأي العين، شاهده وشارك فيه... وكما قال له بركة سيد السيد الكبير المرحوم، إنه أصبح بالفعل يخفف معاناة الآخرين... كم هم الآخرون... الآخرون الذين لا تدركهم بركة، لأنهم لا يجدون الفهم أو الوسيلة أو الطريق إلى ذلك ؟

كان التبعي بعيداً عن أسئلة من هذا النوع طيلة سنوات وسنوات... ما الذي يبعثها فيه الآن قوية حية نابضة ؟ يرى الناس الزائرين المتبركين المتبرمين المشتكين، كل يوم بوجوه جديدة... حتى الذين يطيلون المكوث، لا يلبثون أن ينصرفوا ليأتي آخرون غيرهم... يقول في نفسه إلى متى ؟ وكم ؟ لم السؤال ؟ كأن الجواب جاهز لديه أو ممكن ! كأنما سيزيد على أن يقول إن شرْ الناس يتعاظم وظلمهم وتظلمهم يتوالد بغزارة، كأن المنبع أقوى بكثير من مصبه... بكثير وأكثر، في الجدران، في الذوات ظواهرها والبواطن، يسكن ظل ما تحت الأظافر والإبط والأجفان ورموش العيون... الأمر يستفحل كما يرى التبعي ويشهد... يدرك الآن أنه لم يكن ناسياً. قوته وما يعتمل في داخله تطوح بهنائه.

وتلوح الصبية... محيا البراءة المغيّب في ظل من ملامح امرأة قوية

الحضور... يلح حضور الصبية بقدر ما يلح الشعور بمآسي العالم حوله ومحنة الناس... أين الصبية الآن من معاناة الناس وما حوله ؟ أتكون قد زارت هنا بعد الفراق ولم يدر أو ينتبه ؟ صبية... ماتزال تحضره بملامح السنتين أو أقل كما جاء متبوعاً يحملها يحميها ويحتضنها، يحميها ويحمي نفسه ببركة سيد السيد... يراها في الحلم أو في الواقع... لا يدري... ولا يراها إلا صبية كما كانت قبل أن تغيب عن ناظره منذ عقد ونصف !

لوعة القلب، حرقة الخاطر تهجم بعنف، تراود ملحاحة تسأل وتعيد : أين تكون صبيته الآن... فلذة الكبد... صغيرته الحبيبة ؟ تبسم في ملامح مستسلمة كأن قوة جاذبة أو ضاغطة تُمسك بها إلى ظل المرأة... كأن قوة مغرية أو كاتمة تقف به عند الصمت، ونظرة المرأة في هالتها التي تحضره قوية طاغية في مروءتها في سطوتها وقسوتها، بأية رغبة دفينة منه أسلم إليها الصبية ؟

لماذا سلم واستسلم ؟ جاء يحمل الصغيرة على كتفه ناجياً بنفسه من متعقبيه، وقد ضاع منه كل شيء... جاء يحملها ليسلمها بقوة مجهولة إلى أول امرأة تأمره بنظرة وهالة وسطوة ليسلم نفسه إلى راحة الكرى... كان متعبا حقّاً، مرهقاً جدّاً... وجاء هارباً بنفسه وبصبيته بعد أن ضاع منه العش والميراث، وقبله ضاعت الزوجة الفتية في حمى النفاس وبميلاد الصبية... ولم يبق بعد ذلك إلا الجِلد وحبيبته الصغيرة... أسماها حبيبة، لتكون على مسمى، بلسماً لجرحه العميق، واحتمل ما احتمل ليفر بجلده فجراً قسراً في يسراه كيس يحوي ما تواضع من رزق، وبيمناه الصبية الصغيرة حبيبة، يحميها يحملها ويحمي نفسه معها، في حمى دار سيد السيد... وليسلمها ببلاهة، كأن قوة ما سلبت كل جبروت قوته على العناد والمقاومة.

إذ ذاك، لم يكن يدري أنه يجد له قراراً... كان يطلب جمى لفجر واحد أو فجرين... وصل منهكاً في غاية التعب والإرهاق والطفْلة على ظمإ وجوع... المرأة تلك بصولتها تسلمته في الصحن... لا، تسلمت منه الطفلة فأسلمها صاغراً منهكاً، رآها تسقيها وتطعمها... كما روته وأطعمته... وقبل أن يبتلع هو اللقمة، أحس بخدر النوم يسلبه إرادة الحركة والقول، ولم يتذكر إلا ملامح الصبية كأنها ترنو إليه في بعده عنها... بعد نظرته الغائبة تبدو الصبية بجانب هالة المرأة مستسلمة كالراضية أو راضية كالمستسلمة... يريد أن يقول لها القليل... يريد أن يذكر الكثير للمرأة... يريد ويريد... ولكن أين اللسان ؟ أين الحركة ؟ أين النظرة ذاتها ؟ إنه أسلمها بيديه فعلاً...! أواه. ما للأغوار تنفتح هكذا... ما لها تنفغر وتنفجر ؟!

ويرى التبعي مراراً... يرى نائماً ومستيقظاً أنه يتسلم عصا الراعي، يتردد ويستنكر، فما كان في يوم من الأيام راعياً ولا هو يريد ذلك، وقد استقر به الحال والمقام في حضرة سيد السيد وداره... لكن الإلحاح يشتد عليه، لا يدري بأي صوت أو قوة. إلحاح الصوت الذي يسمعه، وكأنه يعرفه، دون أن يحدد صاحبه ولا مصدره؛ وقوة ضاغطة لها حجية الإلزام وكأنها الرغبة والإرادة لا يعرف مأتاها ولا معناها... يمد التبعي يده بإلحاح داخلي... يتلقى العصا الطويلة الرفيعة التي ليست قضيباً رطباً ليناً يهش به على قطيع، ولا قوة متينة صلبة يحمي بها نفسه من متابعيه وغرمائه... يفيق...

ويفيق التبعي ليجد السكينة والهدوء حوله في الصحن... لا محيا حبيبة يضيء ولا هالة المرأة تؤنس ! بُعيد المغرب أفاق، بعد نوم نهار كامل أو يكاد... يسأل، لا أحد، زيارة السيد انتهت أو فاتت ولم يدركها... لم يدرك شيئاً إذن، أواه. أي عذاب آخر ؟ وأين هو ؟

في خلوة السيد التي اقتادوه إليها، يذكر كل شاذة وفاذة، يبشره السيد بالحلم... خير... خير كثير... وعن حبيبة الصغيرة ومحنته فيها، يطمئنه السيد أنها لن تكون مع المرأة إلا في خير كبير وهو حتماً ملاقيها هنا... هنا بالذات... هي لابد إليه راجعة بألف خير، والمرأة التي تراءت له أو رآها فعلا وصفاً هي لها أكثر من أب ومن أم... ومن الآن... من الآن... ليس هو متبوعاً بأحد ولا ملاحقاً من أحد... من الآن، هو التبعي وهذا حاله ومقامه، مقره ومثواه... حماه وأمنه وأمانه... يتردد الحلم والعصا، وتتردد به راحة الخاطر وهناء النفس في خدمة المحتاجين، في رفقة السيد وبين أركان داره، وفي أحضان خيره وخيراته...

لماذا إذن تنفغر الجراح بعد اندمالها... حتى الأمل في أن يلقاها كما بشر الشيخ صاحب البركة بذلك، لم يعد مقلقاً ولا مثيراً... انفتح قلب التبعي لكل الخلائق، ورأى حبيبة في كثيرات زرن مع آباء وأمهات أسعدهن الرجل بخدمته، ورسم الابتسامة على محياهن الصغير البريء... وعاد بعضهن أمهات وزوجات... رآهن... تذكرهن... وسعد بحالهن... ولم تعد حبيبة واردة لا في الحلم ولا في اليقظة... ولماذا الآن ؟ وأين يلقاها ؟

لماذا يُطوِّحُ باستكانته وأمنه إلى ظل السيد وخدمته، وأي قوى تفعل به ذلك...؟ لا، ليس كفراً ولا جحوداً ولا إنكاراً لنعمة الظل والخدمة... لكن قوة ما يعاني وما يتردد في سمعه وقلبه لا يسمح بتردد أو قدرة احتمال، هذا شعور التبعي... قوة كالتي جاءت به، تعمل الآن على أن تعصف به، ومهما تردد فلن يطول به ذلك. ولكل شيء نهاية... لنعمة الظل نهاية، للسكينة والأمن نهاية، للتردد نهاية... وياسيدي وابن سيدي، هي نار أخرى تلهب الجوانح، تدفع راحة الليل

والنهار، لا راحة على جمر، لا سكينة لقلب أو خاطر في عتمة غور بلا قعر ولا قرار... لا منتهي... وياسيدي وابن سيدي، هذا شوق يهز النفس يتسلل مع الأذان، يوغل بعزم أم الكتاب، وياسيدي، وابن سيدي، والعياذ بالله من كل شيطان رجيم، ليس نداء الكفر والجحود، ولا بطر النعمة... إنه، سيدي وابن سيدي، توق إلى الناس، لهفة، أبوة جارفة وشوق يتفجر هديراً كاسحاً... يا فاتح النعمة، ومشرع باب الرحمة، صاحب الظل المنشود والفيء الممدود... ليس كفراً ولا من قبيل الكفر، إنه يبدو كالفجر فجراً، فجر تابعك العبد الضعيف إلى جلال ربه... يبدو كالفجر فجراً أشرق وأبهى وأشد نورانية، نورانية أرضية تضافُ إلى نورانية طريقك... ملامح الصبية يا سيدي وصوتها وحرقة القلب... قلب الأب الثاوي تحت الرماد يفيق ياسيدي وابن سيدي... وكله بك ومنك وإليك؛ ولولاك ما أشرق على العبد الضعيف إلى رحمة ربه فجر ولا كساه إمساء، لولا رحمة ربك وبركة نورك... ببركة نورك لا تجعل ظمأ العبد الضعيف للبحث عن صبية، غياباً ولا هجرة لمتاع دنيء... هو القلب ياسيدي وقاك الله لوعة القلب... هو القلب يلتاع... والضعف البشري يجرف... اجعله ببركتك سعياً في خير ولخير... أنرْ وافتح، واجعله توقاً لا يضيع أجراً ولا ينقص إيماناً ولا حبّاً... ارحم وأنعمْ وأذْن... لن تكون أكثر من طرف من نهار... فلابد للخطو أن يتقصى، واللسان أن يسأل والقلب دليل... نبض القلب للقلب سيكون المرشد الأمين لمآل صبية ومقامها... القلب تثقله الحسرة واللوعة والندم... لماذا فرط ؟ حبيبة... صبيته يلقاها أم يشفى من ذكراها ؟

إن التوق الصادق والشوق، يتفتق عن مكمن غائر يفور فجأة، فلا تجعله يخطِف أو يدمر... أنرْ وارحم وأذن برحمة ربك ونعمتك.

لأيام وليال متتابعات، يفتقد التبعي راحة البال، تلفه دوامة الهواجس واللواعج... وحين عزم ودبر وقدر، لم يزد ولد السيد على أن استمع إليه في ابتسامة من روْح، بسمة عطف وإشعاع مودة...

وحين عاد الرجل مرة أخرى إلى حديثه سايره السيد في انشراح صامت، ووضع كفه على كتفه في دعاء طويل صامت.

وأمضى التبعي ليال ممضة يلهبه الجوى وملامح صبية يغيبها وجه امرأة صبوح وقور في هالة من سطوة... إنه نداء، صوت ومشهد يتكرر ويعيد... هكذا تفور وتزداد محنة التبعي تطوّح به أجنحة الشوق، ويقعد به هول العجز ومخافة الخسران... أيهجر إلى الدنيا وأغراضها بعد كل ما أبلى وصابر ؟ أو يضمن ألا يتفجر به الحال إلى الأخطر... أو يتلبسه أمر، إن ساير على العناد والمكابرة وباطنه يغلي ويفور ؟!

يتمثل في منامه أنه يسعى بين الناس يستقصي، بعضهم يضحك منه وآخرون يضللونه، وبعضهم يحاول أن يفيد فلا ينفع بشيء، يتمثل له وقد أوغل في دنيا الناس من جديد، فإذا به يلبس ما يلبسون، يتحدث كما يتحدثون... يظلم ويعتدي كما يفعلون ! ألا يخشى فتنة بعد ما أبلى وحصل ؟

ويظل لربه واقفاً ما بين العشاء والفجر... وفيما بين لمحة كالغفوة وإشراقة كالصحوة، تتبين له ملامح الصبية تدنو وتنأى مشيرة داعية وراءها، صبية يحس بها كأنوار أو فراشات وعصافير تعرف بشقشقاتها وألوانها دون أن يرى لها كيان... ورأى في كل ذلك جلال امرأة كأنه يعرفها في قوة حضورها... والصبية هي التي تبدو مالكة أمرها وأمر

الكون حولها... مغرية محببة حبيبة... كانت حبيبة... منادية مشيرة مشرقة موردة المحيا بإشراق الفجر...

لم يعد يدري من أمره شيئاً، ولابد لصاحب الأمر أن يحسم له، يعالجه أو يرميه لمصيره... ليته يأذن ويبارك وينوّر...

وعندما أذن وأصبح ولله الحمد، وقف التبعي لسيده أمام المحراب... افتحْ واسمحْ وارحمْ وأنعِمْ...

قبَّل اليدين والكتفين والصدر تمرغ في النعمة والظل واللهفة والشوق... غمس الكيان في بحر المذلة والهوان... وأقسم خالصاً مخلصاً، لئن لم يفارقه الصواب... لئن ظل لحماً مكسواً على عظم بروح، فلن يفارق الطريق، ولن يغمض عن نور، أو يغفل عن ذكر... نداء يملؤه بواجب عليه... واجب يتعاظم الشعور به مع العمر، مع ما يرى مما حوله... وكله لن يزيد عن بعض من نهار... نداء يشعره بأنه ملاقيها حبيبته الصغيرة مع أولى تقصياته... شيء كالحقيقة حيناً، كالوهم حيناً آخر، يحثه على السعي والإسراع... كأنها توجد جنبه على القرب منه، أو كأنها في خطر أو خطإ ينقذها منه قبل فوات الأوان، أو كأن احتضاره في آخر نفس من حياته مرتبط بأن تروي العين رؤيتها، وتشرح الصدر بسمتها... وياسيدي إن كان هذا من الرجس فاعلمْ واحسمْ... وكله منك وإليك...

حينئذ... وحينئذ فقط، يغمره جلال الفجر، يتفتق عن دموع الرحمة... ينظر إليه السيد نظرة طويلة ممعنة تغيب معها ابتسامته الوديعة المعهودة، ولا تخفى أو تغيب إيماءته المضمرة الموجهة بالإذن والرحمة والتفويض... نعمة وفضل ربك الكريم.

ويحس التبعي لذلك بخفة كأنه الهواء أو أخف، وبنقاء وطهرانية

كأنه ضمير وليد أو يكاد... إنها ليست هجرة لغرض دنيوي... نداء واجب هي وصلة رحم وضمير... ربك أرحم بعبده من تلبيس إبليس... افتح واسمح، ارحم وأنعم...

هكذا تم... هكذا أخيراً، أمام خلائق الفجر، بين المأموم والمحراب، يفتح السيد ذراعيه، كامل صدره ورحابة نفسه ومودته، يضمه هاتفاً ومعه خلائق الفجر : الله أكبر. ويضم إليه التبعي الذي غاب في الدموع والأغوار فالمشاهد والنّداءات... يباركه... فلْيلبِّ النداء... لابأس، ليتقصّ عن صبيته... حبيبته... لابأس، والدار داره، الظل له في كل وقت، على ألا يضيع...

44

ماعدا لهيب الشمعة القانية الداكنة، لم يكن يسود سوى شبه ضوء خافت، يضاعف من تكاثف زوايا القاعة بما يوحي بالخلوات الصغيرة المتجاورة في الأركان... أركان مضلعية عديدة بتداخلاتها المنفتحة على وسط القاعة. مع ذلك... وبالإمعان في التحديق يبدو كأن جميع الطاولات فارغة إلا ما توحي به المترسبات والبواقي في أعقاب الزجاج أو على الصحون وسطح الطاولات... من أن هدوءها مؤقت كهجرها، وأن شاغليها يعتصرون من آخر قطرات النشاط... أوائل أنفاس الصباح...

مال أحمد رقيبة بحركة يوسع ما بين الطاولة القصيرة والأريكة فسحة لمرور حورية التي تسربت على إثر ذلك، سحبت زرار جلابتها إلى منتهى أسفله، وانفلتت منها سمكة أرجوانية يتمسك الحرير المنساب بحباته المتلألئة على أعطافها، منحسراً عن الكتفين وعن فسحة الصدر الرقراق، أراحت جلابتها على حافة الأريكة، حركت رأسها يميناً وشمالاً، تسعف شعرها المقصوص المستعرض، ثم جلست بحذاء رقيبة وهو يتابع لهيب الشمعة الداكنة، وجوفها يكاد يطفح بما يعتمل فيه... يتراقص اللهيب، مضاعفاً كأنه يتمطى خشية أن يغرق في رَقراق الشَّمع المذاب... يرفرف كأنه يقاوم غصة... الغصة تلك... الغصة نفسها تتضخم في حنجرة رقيبة فيتحرك بها حلقه صعوداً وهبوطاً...

غصة بألمها الذي لا يحيي ولا يميت؛ ولكنه يترك الألم معلقاً والراحة... يتراقص اللهيب... يتراقص مضاعفاً من ذاته في خضم مجاهدته لغصته واستماتته ضد الاختناق...

... يتراقص اللهيب... يرقص من ضعفه واختناقه في الشمع المذاب ومن غصّة حلقه... وتمتد يد صغيرة بعود قش مقتطع من حصير... يد أحمد الصغير مجذوبة بإغراء لا يقاوم، لتزيل غصة الحلق من أحمد ومن اللهيب... حين ينفخ فجأة ريح وصوت يدفنان الغصة في مكمنها المعلق... صوت ناهر في الطفل أحمد... كفى لعباً باللهب... لعب شيطاني لا يجلب إلا السوء والتبول عند النوم... كفى من هذه النتانة في الفراش التي تختمر ليلا وتزكم الأنوف بكراهة ريحها نهاراً... كفى، وهيا... وقم لتنام !

ويقوم أحمد الصغير بغصة حلقه، وغصة اللهيب الذي يغريه العبث به... يغويه ويشده... ويؤسيه أشد الأسى أن يغرقا معاً أحدهما في لجين مذاب، وآخر يحتويه الظلام... يقوم الفتى الصغير يتلمس في الخوف والظلام طريقه نحو الفراش على السرير الخشبي، يقوده صوت الأم الناهر المتردد بين القسوة واللين منذراً بما يشبه التوسل والعطف، من أجل ألا يتبول الصبي أثناء النّوم كعادته، وأن يستيقظ في الوقت المناسب لذلك.

كل ليلة تتكرر غصة الفتى الصغير وصوت الأم بنفس العبارات المتوسلة المتعبة، أرهقها يوم تجوال وشغل لا ينقضي في بيوت الناس من أجل صغار بلا معيل... كل ليلة تتكرر النغمة والغصة والنفخة الناهرة على اللهيب في اللحظة المناسبة قبل الغرق في الظلام... كل ليلة ينتظر الفتى الصغير بغصة حادة تقرضُ حلقومة حتى ينام إخوته

الثلاثة... ويظل أثناء ذلك يعبث ويؤنس وحدته وخشيته بمداعبة اللهيب... فماداموا أيقاظاً فلن يقبلوا أن ينام بجانبهم البوال أخوهم أحمد الصغير... الآن، يتسلل إلى جوارهم وهم نيام، يقوده صوت الأم ويدها... الغرفة أصغر بكثير من أن تسمح لهم بالنوم جميعاً على نحو مريح... مستقيم على الأقل... غرفة بين غرف متقابلة حول صحن تشغل كل منها أسرة مماثلة أكبر أو أصغر... غرفة لم تكن تسمح لإخوة الفتى بأكثر من أن يتجاوروا جنباً إلى جنب على عرض السرير، ومقسمين عرضه بأطوالهم... ملزمين بما يحتمل الثني من أطرافهم بقدر ما يسمح بذلك عرض السرير... وفي غفلة عنهم، بعد أن يستبد الكرى بأجسادهم، ويأخذ مأخذه منهم، ترتخي مفاصلهم، فتتدلى سيقانهم على حافة عرض السرير بدرجات متفاوتة...

من درب العفو إلى درب السبنيول إلى كرلوطي... تغير السكن من غرفة إلى أخرى، دون أن يزداد الحال أو ينقص إلا في مقدار ما يتسرب من ضوء النهار، بما تسمح به فسحة الصحن إلى ضيق الغرفة...

يتسلل الصغير أحمد ليأخذ مكانه إلى جانب إخوته... وفي حالات أخرى، كان يظل يرقب تراقص اللهيب، ويعاني من غصته في حلقه، حتى ينام حيث هو، فتقوم أمه تحمله وتضعه بجوار الآخرين...

آه... ينتفض أحمد رقيبة من شروده البعيد القريب... خواطر بغصة طفولة مريرة، تلتئم في الحلق... ببقية عود ثقاب يشق ثلمة في حوض الشمعة المحتقن، لينساب السائل المذاب مدراراً على جانبها، وينتعش اللهيب نشيطاً مستقيماً... يحس أحمد رقيبة بانسراح يسري في حلقه، يتلمظ مراراً قبل أن يعلن طلبه للجرسون، وينتبه إلى حورية،

يشعل لها سيجارة ويعلق على انتعاشها وإشراقها البادي، مؤكداً بابتسام أنها تبدو كالخارجة لتوها من حمام، ولا يتردد في أن يهنىء نفسه بها... هذه الساحرة التي تخلق جمالها في كل لحظة خلقاً جديداً... تنفث من دخان سيجارتها باتجاهه... يعرف أنها لا تدمن التدخين؛ وشرع هو في تهيىء سيجاره الفخم... يعرف أنها في لحظات من نشوتها وانبساطها تحب أن تخلق كل الرغبات... كل رغبة ممكنة، حتى رغبته في أن يراها تدخن... وتقول باستمرار كل ما يرغب فيه المحب، زينة المرأة.. وتؤكد أن التدخين زينة المرأة، وزينتها هي بالذات مادام المحب يرغب في ذلك... ما لم يستعبدها... لاشيء... لا شخص ولا قوة من عادة يجوز أن تستعبد المرأة ! أية حكمة ؟ وتقول كل شيء في المرأة جميل إلا أن تُستعبد... ولو بالمال ! المال... الذهب والعقار... كله متاع جميل ويزيد من جمال المرأة... إلا أن يخضعها ويجمدها... جمال المرأة وقوتها في انطلاقها ! أية حكمة ؟!

يشعل سيجاره الفاخر، ويظل يتابع حركات الراقصين من خلال تعاريج الدخان ودوائره... الجوق الزائر الذي يحيي السهرة مايزال لم يبدأ برنامجه بعد، وما يجري في الحلبة والمكان كله تنشيط سابق... رغبتها كما يلبيها أحمد رقيبة، في ألا تفلت مناسبة مرح أو طرب لفرقة زائرة دون أن تحضرها معه... تقول إن أنفس ما يقتنى بالمال ساعات المرح والفرجة !

تنبعث الحركة في الطاولات المجاورة، أصحابها يعودون بعد تغيير الوصلة الموسيقية... تتكاثف تعاريج الدخان، وغصص اللهيب المختنق... تأخذه حورية من يده، وتتقدم به نحو الحلبة مكررة بابتسامتها أن المرح يصنع صناعة... لابد من خلقه في النفس لا مجرد

التفرج عليه. على عتبة الدائرة، تترك الفرصة لقدميها تنفلتان من خذائها العالي... وتتقدم حافية مشرعة الذراعين متألقة في الأرجوان المنسدل... يتسامى في التماعه مع تراقص الألوان والأضواء والحنايا المشرعة للبهجة... وحدها لها هذه القدرة الخارقة على أن تبعث حولها فضاء نعيمياً مخدراً مريحاً لا يقاوم بغير الانقياد والانطلاق... فضاء مغر جذاب... عميق في لحظاته بها ومعها... يفتقد رقيبة في رفيقته السمك والوزن كما يفتقدهما في ذاته... يحس بنفسه خفيفاً يحلق في سماواتها من كون النعيم ومن عبير وأريج... لها هذه القدرة على أن يغفو في فيئها مخدراً بالبهجة على أنغام ذائبة مغرية... يتهدهد معها على سطح مائي هادىء... يذكر النغم متنائياً... تهمس في سمعه حانية عليه كما لو كانت توقظه من غفوة... تخطر معه خارج الحلبة، تسلك قدميها من جديد في الكعبين العاليين ويتركان الحلبة التي بدأت تضج مرة أخرى.

يجلسان... يبل رقيبة حلقه بجرعة كأنه يتمصص الكأس الكمثرية، يشير مجدداً طلب المشروب، والمكان يتهيأ لبداية برنامج الفرقة الزائرة... تتقدم فتاة من الطاولة المجاورة لإشعال سيجارة، يلاحظ رقيبة غمازتها المتراقصة على سعة ابتسامتها وهي تشكره... تهنئه بصاحبته الفاتنة الأنيقة... كانت فتاة مرحة جدّاً وشفافة؛ وكانت بجلستها المتقاطعة مع جلستهما في وضع نصف الملتفتة إليهما...

أشار رقيبة إلى حورية يقدمها للفتاة : زوجتي !

اتسعت حدقتا الفتاة عجباً، صافحتْ حورية وقدمتْ نفسها : لطيفة، وقالت إنها لم تر ثنائياً يتجاوب مع الأنغام الهادئة مثلهما... وعجبها أكثر من أنهما زوجان ولمدة غير قصيرة فيما فهمت، أي أنهما

خارج الشهر المعلوم أو أيام البَكُور كما تسميها لدى المتزوجين الجدد ! غبطتهما على حالهما وأفاضت في ذلك بخفة روحها المرحة وابتساماتها الشفافة.

قالت وهي تغمز لحورية بشكل ظاهر مشيرة إلى رقيبة إنها طارت به ! هنأتها على ذلك وهي تؤكد أنها لا تهنىء الرجال بالنساء. أما لماذا ؟ فهددت بأنها لن تبوح بالسر الذي تعرفه وحدها من دون العالمين ! ضحكت، ضحكت بقوة وصفاء... ضحك أحمد رقيبة وحورية، وهو يؤكد أنه هو الفائز في الصفقة على كل حال... يقول ذلك وهو يضع يده على كتف حورية كأنه يضمها إليه في جلستهما الجانبية.

تساءلت حورية إن كانت الفتاة متزوجة أو تزوجت ردت الفتاة بالإيجاب، لها بنت، أنجبتها من تجربة زواج سريعاً ما انتهت، لا خير في الرجال؛ وغمزت باتجاه رقيبة كأنها تعتذر أو تستفز عن قصد. أصدرت آهة، ثم استدركت تتجاوز آهة التحسر مؤكدة أن الرجال ليسوا عملة واحدة ولا النساء... كل شيء مكتوب... عبرت بهزة كتفيها عن لامبالاة بكل ما مضى، وأشارت إلى رفيقة لها كانت تغادر الحلبة لتوها، تتفحص بعينها المكان بحثاً عنها، أقبلت باتجاهها، قدمت إليها كلا من حورية ورقيبة على أنهما زوجان ! شهقتْ رفيقتها دهشة وهي تعلن انتصارها على لطيفة : الله، هذا يصحح رأيي في الرجال !

قالت الفتاة ذلك، وجلستْ مباشرة إلى طاولة الزوجين مقدمة نفسها من جديد : حياة.

وبدت فتاة دقيقة الملامح، جريئة وافرة الحيوية والثقة بالنفس، دون العشرين، مدت يدها متمططة نحو طاولتها الأولى تبحث عن علبة

سجائرها، ورفعت صوتها تنادي الجرسون... اعتذرت عن تطفلها وهي تسحب دخان سيجارتها وتقول بأنها تغتنم الفرصة في هذه الجلسة لتتجنب الفضوليين الملاحقين، أخخ... يا ربي البنت ما عندها راحة، لا في الدار، ولا في الخدمة ولا حتى في الفراجة !

كانت بلهجة متذمرة تشكو الوضع، خرجت مع رفيقتها تبحثان عن أمسية تنسيهما بعض الهموم، لكن من يتركهما في حالهما، حتى الشاب ابن الجيران الذي أتت به مرافقاً ومؤنساً على نفقتها، ضاع في الجو، ونسي كل شيء عن مهمته... متذمرة تشير إلى الفتى وتنبه لطيفة والجلوس معهما إلى حاله :

ـ الله عليه... غاب وذاب ونسى كل شيء... إخخ..!

كانت تشير إلى فتى في أوج مراهقته يتقافز ويتلوى مع الأنغام الصاخبة والأضواء...

عادت تعتذر عن مضايقتها للغير بهذه الأفكار... أكد رقيبة أنه يدعوها ورفيقتها لتناول شيء معهما، نظرت إليه حياة بعبوس مصطنع متسائلة باستنكار : ألا يستحيي من دعوة فتاتين بمحضر زوجته !؟ وتوجهت إلى حورية بنفس الاستنكار المصطنع :

ـ وقدامك... قدامك أللا مولاة الدار ؟!

ابتسمت حورية مؤكدة أنه يفعل ذلك بترخيص من «الداخلية»! تداخلوا في المرح والضحكات.

وبدت جلستهم في أتم نشاط وانسجام، وقد امتلأت طاولتهم بالكثير من الطلبات التي كان رقيبة يومىء بها للجرسون، وتناثرت بينهم النكت والمستملحات، وتحركت حياة لتجلس بين أحمد رقيبة

وحورية مؤكدة أنها تريد أن تفصل بينهما مؤقتاً، وإذا أتيحت الفرصة، وساعدتها مهارتها، فستطير به من صاحبته !

قالت ذلك في دعابة وهي تقبل حورية في نهاية مزحتها !

جاء دور المجموعة الغنائية الراقصة الزائرة، مجموعة لاتينية تتضافر حركاتها المتناسقة مع زهو أزيائها وتراقص الأضواء لتضفي على العرض مسحة سحرية أسطورية...

في نهاية الوصلة توزع بعض أفراد الفرقة من راقصين وراقصات إلى بعض الطاولات استجابة للرغبات ومشاركة لهم... وأشارت حياة إلى إحدى الطاولات تنبه إلى الفتى الذي جاء برفقتهما :

ـ تبارك الله عليه... ولا هو هنا !

كان الفتى منغمراً في انسجام كامل مع زمرة فتيان وفتيات في طاولة وقد انضم إليهم بعض أفراد المجموعة الراقصة.

في انطلاقها مع منساب المرح والبهجة، طفقت أنامل حورية تداعب طرف الطاولة، وفي عمق حلقها، تتردد في همس مقاطع صدْحة زَمِّية، حين هتفت بها حياة : الله... الله قتلتيني ! وصفقت بيديها مشاركة مهللة؛ وسرعان ما توقفت حورية وهي تومىء وتعض على شفتيها منتبهة... فاللحن سرى عفواً بينها وبين نفسها، كأنه من إلهام صدحات ما تبقى في وعيها من أنغام المجموعة الراقصة... ولا تريد التفات أحد إليه...

تداركت حياة نفسها كالمعتذرة، وهي تدير موضوع الحديث إلى نقطة بدايته، قالت إنها لن تفكر في الزواج... ولماذا وجع الدماغ والبطن... انتفاخ البطن ؟! أكدت ذلك وهي تذكر بمشهد الراقصات

في خفة الفراشات بقامات ساحرة وأجسام ضامرة... ليتها تتجنب انتفاخ البطن الذي تكرهه... وإذا كان الزواج مسبب ذلك، فهي لا تفكر فيه !

كانت في استرسالها من موضوع إلى آخر، كأنها تلاحق عالما تخشى أن تفلت منها بعض عناصره، أو أنها لا تطيق صمتاً ولا فراغاً... وسرعان ما استدركت في حديثها عن الزواج وهي تنظر وتغمز إلى حورية أنها لو تأكدت من أن زوجها لن يحرمها طعم الحياة ويعصر في حلقها الحنظل، فقد تقبل... وأكيد أنها ستقبل بسرعة أكثر ومنذ الآن، فيما لو تأكدت من أن زوجها بعشر معشار ما عليه زوج حورية... أو حتى أقل من ذلك بعض الشيء...!

كانت حياة تتكلم، تنثر حولها الضحكات وألوان المزاح، لا تكف أثناء ذلك عن الغمز الخفيف والحركة في كل اتجاه...

تراقصت الأضواء من جديد والأنغام وإيقاع الخطوات... ورنت حياة إلى الحلبة وأشباح القابعين إلى الطاولات القصيرة المتفرقة في الأركان... وقالت بعفويتها إنها لم تكن راضية عن السَّهر هنا، لولا ما أحيطت به الفرقة الزائرة من إشهار... إنها تفضل السنتر... هنا خليط... مناسبة الفرقة الزائرة زادت خليطاً إلى خليط... نبهت لطيفة صاحبتها إلى أنها بهذا الحديث قد تفسد السهرة على الناس، وشددت على عبارتها الأخيرة، وهي تعني من معها في الجلسة. لا، قالت حياة، هؤلاء كبار، قلوب الكبار كبيرة، كانت تفخم عبارتها وإشارتها وهي تنظر إلى أحمد رقيبة وحورية.

كانت لطيفة تتابع حركات فتى قام ضمن مجموعة تبدو في أتم انسجام، وهم يمرون بالقرب، كأنهم يغادرون أو يغيرون إلى ركن

آخر أكثر صميمية... لا حظت حياة حركة رفيقتها، فمنعتها أن تشير إليه بشيء. قائلة : لا فائدة منه، والغلطة غلطتها لأنها ظنته رجلاً، أو مؤنساً ترتكن إليه... ابن الجيران لم يكن إلا طفلا ضائعاً مضيعاً...

عادت الفرقة مرة أخرى لوصلة جديدة من الغناء الراقص، وفي مرحلة من ذلك، أشاعت المشاركة في الحضور بالحركات وتكرار لوازم غنائية وبالضرب على الأيدي، تم التماسك بالأذرع والتمايل مع النغمات من الجميع...

قالت حياة متحمسة بمجرد انتهاء الوصلة، إن الهم ينفرز مع كل حبة عرق تنتثر عن حركة مرحة، ومع كل نفَس لنغمة... هكذا تحب أن يكون الطرب... مشاركة وحركة لا مجرد جلوس جامد وأذن صاغية... وأضافت تتساءل إن كان أحد يعرف ما دار بخلدها في فترة التماسك بالأذرع بين مختلف المتجاورين... لم تنتظر ردّاً، ولكنها أجابت بما عندها، تذكرت فقط، أنها لم تر ولم تعرف أذرعاً متماسكة إلا في الخصام... وأنها خشيت من يدها أن تمسك بشعر للاها حورية جارتها وتطيح به، كما تعودت يداها أن تفعلا بالقرينات في طفولتها !

كانت في حركاتها وحديثها كأنها فعلا في منافسة حادة أو في خصام حقيقي، ثم مالبثت أن قبّلتْ حورية معتذرة طالبة منها التحمل، ففي ليلة كهذه تريد الفتاة تفريج كل ما بها... إنها تريد أن تبدأ أسبوعها بعد هذه الليلة، كياناً جديداً لسبعة أيام أخرى منهكة...!

وانصرفت حياة قليلا إلى مراقبة المتحركين على الحلبة، تعلق عليهم بعبارات فكاهية، ثم انطلقت في بداية نكتة لتتوقف وتعض على شفتيها، كأنها نسيت المقام وما يلائم، فأوشكت أن تذكر ما لا يلزم أمام زوجين صديقين...

مالت حورية باتجاه رقيبة تهمس له، ليندفعا معاً يطلبان من الفتاة إتمام ما همت به من حكاية أو نكتة، إلا أن هذه تمسكت بعدم الإفصاح والتوقف عن الكلام، ولم تزد على أن تقول إنها يمكن أن تحكي لهما ذلك في آخر لحظة عند الفراق إذا أصرّا على ذلك، حتى لا يريا لها وجهاً بعد ذلك ؟

كان النشاط والمرح آخذين بالفتاة، وكانت في غاية الانطلاق والابتهاج...

كانت فترة انسياب أنغام هادئة، فرصة لتتساءل حورية إن لم تكن الفتاتان أختين أو قريبتين لما بينهما من تشابه الطباع، ردت لطيفة كأنها تستعيذ بالله من أن تكون مثل هذه الشيطانة من أسرتها ! وضحكوا في غاية انبساط.

قالت لطيفة إنها خياطة في شركة للملابس، أما عن الأخرى، حياة، فقالت إنها لا تستقر على حال، ولا تثبت على شيء... إنهما فقط بنتا درب واحد...

أومأت حياة بإشارة خفية أنها كذلك، ولا تدري لماذا خلقت هكذا، ولا تعرف ما ينتظرها، لذلك تعيش لحظة بلحظة، تحاول ألا تفكر كثيراً في ذلك...

كانت مسحة كآبة بدأت تخالط انشراح الفتاة وهي تفصح عن ذاتها، وسرعان ما استدركت كأنما وعت ما يجب عليها في هذه اللحظة، ونظرت إلى ساعتها وإلى لطيفة مقترحة أن يتوجها إلى السنتر... إلى النيكرو هناك أحسن... حيوية أكثر... وشعور بالأمن... والتاكسيات كثيرة... أما هنا...

بدت لطيفة في هيئة الموافقة، حين تساءل أحمد رقيبة بعفوية :

ـــ وصاحبكم ؟

آه، تحسرت حياة، مؤكدة أنه ضيعهما وضاع، ثم لتؤكد :

ـــ بلا به، أحسن !

وعرض عليهما أحمد رقيبة وحورية أن ينقلاهما إلى هناك إذا انتظرتا قليلا.

رحبتا بالفكرة بإيماءات امتنان وعبارات شكر.

45

بونا آدم... بونا... آدم... بونا...

دنيا بهيجة صفراء تتراقص بأشباحها وأصواتها وحركاتها... مقهى الجيارة وطاولات يملؤها الأصفر الفاقع مهزوماً ومنتصراً، منبطحاً ومنتصباً... أكواب مترعة بالأصفر يتحرك بها العجوز الأصفر على صينية صفراء، بابتسامة اللون نفسه... وبتقبل مماثل وحركات كلها بالأصفر في الأصفر... لا يهم. الألوان هي الألوان، أو اللون هو اللون دائماً، واحد شامل كامل... إذا كان للأحمر لهيبه وإغراؤه... إغراء الحرق والاحتراق... إذا كان للأسود دخانه الخانق كما للألوان أو أشد؛ فللأصفر صقيعه البهيج... جحيمه الثلجي البارد المبراد... دنيا بهيجة يتنفسها الهبطي، يراها رأي العين، يسري بها نبضه، ويفهم بها عقله.

بونا آدم... بونا آدم... بونا...

تتوقف خطوات الهبطي عند صفرة المقهى والناس والجدران، ونشارة الأصفر، بُرادته المتناثرة وبخاره الفوار... كلها تتكاثف في اصفرار المشهد الكامل الشامل. يتوقف الهبطي، يتأمل بإعجاب باطني أصالة اللون الفاقع الشدة كما يبدو له... كون وحيد عميق، لون طاغ على ما عداه، باغ عن كل ما فيه وحوله... يتأمل الهبطي ما يرى ويتراءى له، تعمه الصفرة وإحساسها الفاقع البارد في أعمق دواخله، كما لم تعمه من قبل بهجة الأصفر ومتعته... وكما لم يعمه شعور مع

أي لون شامل آخر... أية بهجة وأي إحساس ؟! تلمه واحة صفراء، تكتنفه اكتنافاً تاماً شاملاً. تلفه راحة لونية أشبه ما تكون بخدر رفيق رقيق كهجعة هادئة لميت في كفن... أو كغفوة وليد في قماط حنون... نومة هامدة هادئة، بطيئة اللحظات بريئة كعريه الطفولي المكتسي باللون نفسه، اللون الوحيد ولا شيء غيره... بهجة اكتساء اللون... بهجة اكتفاء وارتياح.

نظرات صفراء يحس بها الهبطي تقدح... وأخرى تلمح وتلفح، وبعضها يعض ويشد... أشباح تنتظر، تطول وقفتها الصفراء كالمتحلقة المتفرجة حول الطاولات وحول صفرة الهبطي وصفرتها الذاتية... عيون يحس بها تشزر أو تخزر وتفزر للون عريه بلون مماثل أو أشد...

أشباح يائسة بلا بهجة في صفرتها القاتلة الميتة المميتة، لا تنعم، وبعيد عنها أن تنعم بمقدار صفرته... صفرة وصفرة وشتان ما بين... أشباح يائسة تعبت من حركاتها وأصواتها وألوانها... تعبتْ حتى من صفرة عريه الطفولي... يا للجهل واليأس والغفلة واللون الفاقد المتعة والإحساس... يحس بها في يأسها وغفلتها أذرعاً وأيدي بلون باهت تمتد، ترمي عليه غطاء حائل الصفرة، بلون باهت مضمر وناعس... أو يراها تمتد إليه بمئزر أو معطف... تلسع صفرتها الزائفة نُخاع ما على كتفيه من عري، تصب عليه صقيعاً لا يحيي ولا يميت من صفرته الحائلة... بعيد... بعيد عن يأس هذه الأشباح أن تنعم بأي لون... ولونه الفريد المتميز في صفرته اليوم، في انصبابه على الكون حونه... يثير هذه الأشباح يزعجها أو أنه لا يريحها في كل الأحوال...

تتعمق راحة الهبطي أمام حركة الألوان. وألوان حركات والأصوات والخزرات في المقهى... الأشباح وحركات والألوان بيوتهم

الوحيد الباغي والطاغي على ما عداه وحوله، وبلونه الفريد الصفرة... كله يدعو لاسترخاء كبير مريح... يدعو عريه لارتياح لا مثيل له إلا راحة الرحم أو القبر والنوم شقيق الغيبوبة والغياب، يسترخي الهبطي كاملا... يسترخي كل استرخاء تستطيل أعضاؤه، عضلاته وأعصابه وتتفكك مفاصله أو تكاد... يحس بها في ابتهاج صفرتها تتدلى، يستقل بعضها عن بعض بلونه وكامل راحته...

بقعة صفراء جذابة بكثافتها تتنابشها أشباح حول طاولة بحركات وأصوات حائلة الصفرة، بتراخ واسترخاء تام، تتمايل أطرافه المتفككة المفصولة بعضها عن بعض تحركها كثافة البقعة الصفراء المنافسة للونه... أطرافه تتحرك بارتياح واسترخاء... وتهبط كفه على البقعة في وسط الطاولة والأشباح... فعلا تعلق به صفرة مكعبات وأوراق... تتقاطر صفرتها من صفرته...

أشباح تفزع وأخرى تقدح أو تلمح، بألوان أصواتها وحركاتها... ويظل الهبطي سادراً في راحته مطمئناً آمناً لنفسه، يتأمل المكعبات المضغوطة في جمع كفيه والأوراق... وكلها تتقاطر منها صفرة كثيفة...

يتضاعف حول الهبطي نعيق بلون ما رأى مثله لوناً حائلا باهتاً، ولا يزيد أكثر من أن يضاعف من راحته ولونه المتميز في كون كامل أصفر...

أفسدها علينا... يصيح بذلك صوت... لا، بل اعتدى علينا يقول آخر... لعنة الله عليه هذا شيطان رجيم، فاضح مفضوح... بهيمة في دنيا البشر... بهيمة لا أقل ولا أكثر... بهيمة عجماء لولا أنه يسير على قائمتين... لو كان على أربع على الأقل لأفاد واستفاد ! اللهم استر...

بعض النّعيق يتناهى بصفرة مناسبة تبدو مخلوطة باعتدال، لا حول ولا قوة... اللهم استر عبدك وبهيمتك... استرنا حتى يسترنا التراب !

بالألوان المعتادة ترتفع أصوات أخرى فاقعة العمق والسطح : يا جماعة، خذوه إلى أي مكان، احجزوه. ليمت إن شاء أن يموت ويريح... ماهذا... سبة وعار وخطر... ماذا نفعل معه أو نفعل به ؟ الآن ينتصب مفسداً كل لحظة، محطماً كل ما بنيناه وراهنا عليه... وسيعيدها كلما عنّ ذلك لبهيميته وسيكررها متى راق مزاجه أو تكدر... عيب وعار وخطر...!

يتناهى مرة أخرى نقيق بصفرة ملائمة، تبدو مخلوطة باعتدال... يا جماعة... يا ناس، اتركوا خلق الله لله، اطلبوا الستر وحسن العاقبة... وغضوا... غضوا وانصرفُوا لحالكم أو انسوه وانتظروا أن ينصرف لتعودوا إلى ما أنتم فيه، لابأس إذا ضيع لكم لحظة أو دقيقة. عادته معروفة سينتهي به الأمر أن يبسط على الطاولة ما أخذ... عادته معروفة ونادراً ما تحدث وليس منها خطر... اصبروا له لحظة حتى يعود إلى مزاجه وينصرف بأمان...

تختلط الأصوات لا يحس بها الهبطي فيما يبدو، وإنما يستمر في وضعه المجمد يجمع كفيه على ما احتضنته يده من مكعبات الدومينو وأوراق اللعب... لا يبدو عليه إلا أنه مرتاح في وضعه المتجمد يتأمل صوراً ومشاهد خاصة به، كأنه خارج العالم أو أن ما يحصل حوله خارج العالم... تمتد أيد ترمي على كتفيه أو تعقد حوله ثوباً أو غطاء... يترك لها فرصة ذلك لعدم الإحساس بها أكثر مما هو رضىً عن التفاتتها...

رغم ذلك، تظل أصوات المتذمرين من المتبارين والمتفرجين تعلو وتختلط...

العجوز النادل يتقدم نحو تجمد الهبطي يقدم كأساً من لبن ساخن ويقدم له مقعداً... يقدم العجوز كأسه ويرشف منه رشفة كأنه يشجع الهبطي لفعل مثله، كأنه يخاطبه بالحركة التي يفهمها مادام النطق واللفظ لا يسعف...

يظل الهبطي في موقفه متجمداً متأملا ما يتراءى له دون أن يستجيب إلى هدية النادل أو تخف قبضته عما يمسك بجمع كفيه... لحظة كانت قلما تحدث من الهبطي الذي يمضي في جولاته عادة، دون أن يؤذي أو يغضب، بل دون أن يلمس أو يحدث أحداً... يلمس عادة ما يحس بأنه في حاجة إليه من أكل... يأخذه مما يجد دون أن يسأل أو يستأذن ودون أن يزيد عما يلزم، أما مثل هذه اللحظة التي تبدو مجرد معاكسة للاعبين مرتاحين مريحين، أو تبدو من منظور شبه اعتداء فقلما تحدث... وإذا وقع، فسرعان ما تنحل من ذاتها ببعض الوقت... أليس هو الهبطي ابن الدرب أو معلم من معالمه على الأقل ؟

ينتفض مول المقال في تأفف وامتعاض تناثرت له بعض جرائده وأوراقه، دون أن ينتبه، وأوشكت أن تسقط له نظارتاه. يثبت نظارتيه ويمضي لا يلوي على شيء، كأنه مطارد أو مستعجل فجأة على ميعاد.

يبدأ الجمع يغادر، بينما يظل آخرون يحدقون يتابعون الموقف الذي بدأ يطول، وأنظارهم مشدودة بقوة كانجذابها لمصدر نور مباغت شديد.

أصوات متفهمة ترد على نغمة التذمر والغضب : سُبّة لنا ؟ سُبّة ؟ لا، لا. وأبداً. هذي علامة وتنبيه وعيان. هذي علامة لمن يفهم ويعرف... هذا حق مبين واختبار... علامة لنا وعلامة علينا...

كان الخطاب يجد طريقه إلى أفهام البعض، فيغضون بعض الشيء،

أو يقتلعون نظراتهم ويعودون إلى ذواتهم وما حولهم،، متعللين بالصبر، كأنهم يتجاهلون ما يجري أو يتجاوزونه... كل شيء يظل مجمداً، حتى الطاولات الأبعد، في أقصى الأركان، وهي تستأنف بعض حركتها، تفعل ذلك متباطئة في شبه همس... وتغض عيونها على ما يجري...

شيئاً فشيئاً يحس الهبطي بمفاصله كأنها تلتحم به من جديد، يعود إليها الاتصال، كأنه يفيق من غفوة أو غياب... يفيق رائقاً مرتاحاً، ينظر حوله هنا وهناك... فعلا عالم أصفر كما ينبغي أن يكون، وجمع يديه يضم كتلا صفراء في درجة الكون... يتقاطر الأصفر من جمع يديه... يطرح ما بهما على الطاولة... يطرح المكعبات والأوراق مشعة بالأصفر في الأصفر... تصدر آهة صعداء عن الجمع المتوتر المشدود...

ينتفض الهبطي يرمي ما وضعوا على كتفيه وحوله... يتأمل كونه راضياً منعماً ويخطو بإيقاع معدود...

بونا آدم... بونا... آدم.

46

انصرف الفتيان إلى جمع الأواني وترتيبها داخل الحويطة، لحين العودة إليها... بينما ظلت عويشة جامدة في مكانها، متجاهلة إشارة الشخش لها بأن تقوم بدورها للانصراف... قالت إنها لن تعود إليهم... لن تعود إلى أي مكان آخر... هذا مكانُها... هنا... وكل أرض الله الواسعة مكانها... ستبيت هنا، وحيدة، ليكن... أو أنها ستبحث عن مكان آخر إذا كان هناك مانع من بقائها هنا...!

تمطى الشخش، ألم يقل إنها حمقاء ؟ ليكن. لتكنْ أنتَ العاقل ولتعد إلى أمك... أما هي فتعرف طريقها... وسيكون منذ الليلة غير طريق الشخش مع أنها أحبته وتحبه... أحبتْ طريقه !

تأكد الفتيان من موعد الغد ومكانه للالتقاء بالشخش وبكل جماعة لخُوت؛ سيكون الشخش بالحفرة عند مدخل النفق بالسكة الحديدية، تأكدا من ذلك، ودّعا، وانصرفا نشيطين يداً في يد.

ظل الصمت ثالثهما والظلام... عويشة والشخش... ظل ذلك لفترة طويلة، يؤنسهما دخان سجائرها المتتابعة... تنفّس عن نفسها وتغيظه بالتدخين؛ عنيدة، لو كانت رجلا لكانت مثله...! تابع فكرته متمدداً على ظهره، مستمتعاً بحركة السحب البيضاء، يسبح في موجها بدر متردد الضياء... تابع فكرته مرسومة في حركة السحاب... لو كانت مثله لكانت معركته المنتظرة معها بالذات...! وضحك في سره لذلك... ومع ذلك، فهو معها في معركة من نوع آخر...

انتبهت إلى أنه يضحك، أو أنه يحدث نفسه بابتهاج. قالت كالمنبهة لوجودها بقربه :

ــ على سلامتنا !

عاد إلى نفسه، استدار نحوها على وضعه الجانبي ليواجهها.. كانت بمحاذاته لا يرى إلا صفحة وجهها... مقرفصة في شبه إعراض عنه. لوَّح بيده دافعاً عن وجهها دخان السجائر المتكاثف... يؤكد لها مرة أخرى كيف أنه انقطع عن التّدخين في أنسب مكان لإدمانه : السجن ! وكان ذلك رهاناً حرّاً بينه وبين نفسه. ربح الرهان كالعادة... وكانت تلك نتيجة سجنه الأول منذ سبع سنوات... لم تجب أو تلتفت لما يقول ويكرر. عرفت ذلك منه وعرفه منها. لا أحد منهما يستطيع شيئاً للآخر... لا يمكنها أن تكون كالفتيان والرجال.. هي امرأة رغم كل شيء، ليكن. مكانها على غير طريقه... أما في شعوره نحوها؛ فهو لو أحب يوماً لما أحب غيرها... هل لها شك في ذلك ؟ أما هو فلا يشك ويعلنُ ذلك لها لو كانت لتصدق وتتركه ! غيرها من النساء أمرهن وأمره معهن مختلف... وعليها أن تبتعد عن طريقه... تبتعد عن أخطاره...

ــ ربي... ربي..؟!

مد يده نحوها... تستنجد بكل شيء متعجبة وساخرة... أقبلتْ عليه منطلقة... اتكأت جنبه مسندة رأسها على صدره... ثالثهما الصمتُ وتيار الخواطر. حدثته عن رغبتها في التجارة، ستجمع بعض المال وتتجه إلى الشمال... هي أقدر من الرجال على الترباندو...

أبدى إعجابه بالفكرة... يمكنه أن يساعدها في تدبير بعض المال... لكنها ترْفُض... ترفض بحدة... أيقظ حاسة العناد فيها وأحيى الكبرياء.

ليكن أمرها لها وستدبره بطريقتها... المهم أن تجد لها طريقاً واضحاً... ولا تطلب صدقة من أحد... ولترفض كل مساعدة.

توقفت خواطرها عند فكرة لم تخطر ببالها من قبل... سيكون سخيفاً إذا اعتقد أنها قد تعرض جسدها من أجل المال... عويشة تسترزق بجسدها ؟! أيظن ذلك ؟! إذن لا يعرفها ولن...! لو كانت من ذلك النوع، لاستحلت الحياة مع زوج تخدعه ولا تحبه... اختاروه لها، وأجبروها عليه... لا، رغم ما له، لا، رغم كرمه... أعز شيء لديها... أعز من نفسها جسدها... أيظن بها الشخش هذا الظن ؟!

رفعت رأسها عن صدره تبحث عن سيجارة وتتطلع إليه مكفهرة مستنكرة تنفخ في وجهه دخانها؛ لكن نظرته إليها كسّرت كل حدته، وملامحه.

ـــ عويشة !

كم ينطق اسمها بحنان عندما يريد... رغم رنة الغضب والعتاب... عندما يريد، تجد فيه الأخ والصديق وروح الوالد المفتقدة والزوج... عندما يريد... قربه أمن وحماية... والأخطار بجانبه دفء أي دفء...

والتمعت على موقعهما أشعة مصابيح يدوية مصحوبة بدكّ أرجل ووعيد وهراوات تنزل عليهما في هول مفاجىء من كل اتجاه... يقفز الشخش قفزة النمر متلقياً ضربات تردد صداها على عظامه... عويشة يشلها ثقل ككتلة الرصاص يجثم على ركبتها من ضربة هراوية... ليس الظرف ظرف ألم وإنصات للجوارح... ارتمت على أحدهم من الخلف ناشبة فيه الأظافر والأسنان في عنقه وكتفيه... طوحتْ بها بعيداً قذفة كالمدفع ولكمة على الخد تراقصت لها نجوم الظهر ليلا أمام عينيها، لتجد

نفسها بعد حين وقُرْبها الشخش محتضناً ساعد يده اليسرى ضاغطاً عليه بكفه الأيمن... تساءلت ماذا ؟ طمأنها، كلاب، هربوا...

طمأنها، رأت ما به، فحصت ساعده، جرح عميق ودماء بدأت تتخثر، مزقت من طرف التحتية قطعة تضمد بها الجرح، وهي تنصح بالتوجه إلى المستشفى... لم يجب، تركها تضمد الجرح، سألته عنهم، لا يعرف، ولكن واحداً منهم بالذات يظهر عليه أنه من ناحية أخرى... خارج درب السلطان كله... أحس بذلك... أحس بشيء فيه غير مألوف هنا... جماعة الولد ؟ لم يجب عن تساؤلها وكان يراود الفكرة نفسها... إذا كان الأمر كذلك فالرسالة قد وصلت... والجواب عنها أيضاً... أما الجواب الحاسم فسيأتي وقته... تسأل عن عددهم... أربعة... اثنان منهم على الأقل راحا بإصابات بليغة... كسور في مواضع ما... كان يحس أثناء المعركة بعظامهم تدق تحت وقع قبضته... واحد فقط هو الذي تراءى له مسرعاً بالفرار... أربعة كانوا على الأقل... وفي رؤية الظلام يصعب التمييز...

وشهقت عويشة وهي تلمح كياناً ممدداً على القرب... جسماً... بشرياً بلا أدنى شك... لا عليها... أشعلتْ مصباحاً وتقدمت به نحو الكيان... لا عليها... لتتركْ ما لا يعنيها. لا شيء يستحق المشاهدة... وتبينتْ أحدهم ممدداً على بطنه، فاقد الحركة ملوي الذراع حتى العنق... وقُرْب يده الأخرى سكين ملطخة بالدماء...

جذبها الشخش، وهي تهم بتحريك الجسم...

ــ ناعس. خليه !

ــ ناعس ؟!

تساءلتْ مبهورة...

ـــ ناعس... ؟

يا بنت... ليس هذا طريقك... اِنسي كل شيء. تساءلت من هو هذا... الناعس ؟ لن تعرفه على كل حال، والشخش نفسه لا يعرفه، ولا داعي لكثرة السؤال. المهم... العمل. ما العمل ؟ بسيط. لتذهب عويشة إلى مكان آمن تقضي فيه بقية ليلتها... يجب أن تفهم جيداً أنها هنا في خطر حقيقي... لتبحثْ عن طريقها فيما بعد. أما الآن لو استطاعت أن تقتنع بالعودة إلى المنزل ـــ إلى أهلها ـــ... وحتى إلى زوجها لكان أحسن. رفضت فكرة العودة، ترفضها من جديد، أية عودة ؟ وإلى من ؟ إلى أي كان ؟! إذن لم يبق إلا أن يذهب بها إلى الحفرة... في الأخدود أو الخندق على طريق السكّة الحديدية وهي تخترق تجويفة درب السلطان. لم يبق إلا ذلك، هذه الحمقاء لن تقبل أي شيء، ولا أي مكان يؤويها بدونه... بدون حبيبها الشخش ! هل هذا وقت حب ؟ هل دربه درب حب وهناء...؟ حمقاء وأكثر.

كان الشخش يدير الأسئلة تلو الأخرى في ذهنه، يشعر بأن عويشة فرضت عليه أن يحميها بعدما وقع... يحميها من الغير، من كل خطر، ويحميها من نفسها بالذات... هل توجد امرأة تقوم بمثل حماقاتها ؟ شعوره مضاعف بأنه مسؤول عن أمنها كمسؤوليته عن واحد من جماعته، لخّوت، وأكثر... هذه امرأة بلا سند، وفتاة في بداية تجربتها للحياة، للأخطار وهي محبة حقّاً... تحبه حبّاً مزعجاً وإن كان يرضيه، يرضيه جدّاً أن يكون محبوباً من أي طرف كان ومن امرأة بالذات... يشعر بأنه إن كان امتلك في حياته شيئاً حقّاً... شيئا يستحق أن يجعل الحياة جميلة ومحتملة بل جذابة فهو الحب... فيض الحب من والدته... ذاك الذي ما تفتأ إلى اليوم تمرغه في نعيمه الهادىء الدافىء حريري الملمس... وستظل على ذلك حتى لو قضت... حب لخوت من فتية

الدرب وشبابه... حب الناس الذي يشعر به ويصله أصداء وتحايا وزغاريد... وحب هذه... عويشة على حماقتها وصدق تعلقها...

كان عليه أن يقنعها أو يجبرها بالتوجه إلى الحفرة... لا ملجأ لها الليلة على الأقل، من الخطر إلا بالركون إلى هناك... هناك ستجد كل العناية والأنس من بعض لخّوت إلى الغد، ويكون لها الخيار فيما تفعل... أما الآن أمام ما وقع فلا خيار لها... كان يشرح لها ويعيد مؤجلا أن يأخذها بالشدة... يشرح أن له طريقاً غير طريقها منذ هذه اللحظة، بمجرد أن يوصلها إلى الحفرة ويوصي بها، ولا داعي لأن يوصي... إنما عليهما أن يتوجها بسرعة فالأخطار محدقة وسريعة... من هنا للحفرة مسافة ستصبح بعد قليل، وبمجرد ما يشيع الخبر، متعذرة الاختراق...

لم تكن تتابعه، مادامت ستفترق عنه، فلا يتعبْ نفسه بشأنها... وهي قادرة على تدبير أمرها بالليل وبالنهار... الليل والنهار سيان لديها، وهل لها نهار بدونه وبعيداً عنه ؟

سألته عن نفسه، ماذا سيفعل هو، لم يجب، لم تُلح، والتقتْ نظرتاهما على بقعة يضيئها المصباح لكائن ممدد، جسم بشري، فاقد الحركة... ناعس... وإلى الأبد.

47

ارتخت حياة في المقعد الخلفي للسيارة وهي تتأوه تلذذاً بفخامتها... الله على راحة... فرحتكم... وربي يزيدكم... واستجاب رقيبة لمجاملتها متمنياً لها زواجاً يرضيها ويلبي رغباتها. استعاذت بالله من أمنيته. لا، يا خويا، لا، وقالت إنها ما رأت إلا المآسي فيمن تزوجوا وتزوجْن... وأمها بالذات ؟ أعوذ بالله مما رأت من حياة والديها ! الفقر والعذاب والشقاق والنزاع... أعوذ بالله ! واستدركت وهي تنهض من ارتخائها لتمسك من كتفي المقعدين الأماميين وتقترب بذلك مما بين رقيبة وحورية، وتقول لهما كالمنذرة إنهما يمثلان حقّاً نموذجان فريداً في الزواج، يمكنهما بذلك أن يحتفظا بحيوية علاقتهما إلى يوم يبعثون... ثم توقفت ووجهت سبابتها نحو كل منهما مؤكدة أن الخطر... والخطر الحقيقي منهما... من علاقتهما هذه. إنّها مصيدة نموذجية يمكن بسببها أن يقع الكثير في فخ الزواج... علاقة توهم الجاهل الغافل بأن الزواج متعة وحيوية... حتى يكتشف المأساة بعد وفاة الأوان... أيعرفان وفاة الأوان ؟! كانت تتحدث بملء ما فيها من حيوية، متعمدة ألا تستعمل عبارة فوات الأوان، أيفهمان ؟ لا، للزواج، من أعماق قلبها، لا للزواج... أعوذ بالله مما رأتْ وسمعت من عشرة والديها... أي عشرة ؟! جهنم أرحم ! نزاع وشقاق دائم دوخ الدرب كله... أو... خنز الدرب... كرهت درب السلطان من أجل ذلك ولكن...

السكنى... الله غالب... والدها عامل بالسكك الحديدية... حمال بالمحطة... من ناحية الكسب، يكسب الضروري واللازم لو كان هناك تدبير ووفاق... الناس يعيشون بأقل من ذلك في سلام وقناعة... لكن الآفة في أنه لا يفيق من سكره، الوالد... لا يفيق ولا ينتهي أو يرتوي لا من السكر ولا من النزاع والخصام الزوجي... الدرب داخ والجيران... الدرب كله يرى ويسمع ويعرف... أعوذ بالله ! سباب وضرب وشجار، وكسر للأواني والعظام...

كانت أكثر من جذابة بطريقتها برواية الأحداث، تروي المآسي بنغمة وأسلوب مرح... وبتعليق يفتن بالعبارة والإشارة... لا تكف عن الحركة والحديث... أعوذ بالله من الزواج يا خويا... أما أنتما... فالله الله على راحة، وعلى زواج... وعلى عشرة... الله يزيدكم... أما هي فقد نجتْ من جو الشجار والعذاب الذي كانت تنام على نفيره وتستيقظ... الحمد لله على دار الرحمونية... وأقل من الرحمونية ألف مرة ولا عشرة باصالح !

توقف رقيبة فجأة، كان بالفعل يقود ويسير بتؤدة بالغة تأهباً للوقوف بعد الانحراف المباشر من ملتقى شارع باريس بزاوية البنك الكبير... كان كمن يريد أن يطيل اللقاء... لحظات يستمتع فيها بحديث حياة... وجد لها نكهة خاصة، ربما لا تقل عما تشعر به حورية... الفتاة على كل حال... تدخل القلب... بكل ما فيها... مع ذلك بدا توقفه المفاجىء لشيء أكثر من الإثارة العادية في مسلك الفتاة، أو الاستجابة المجاملة من طرفه... كانت لطيفة قد فتحت الباب بمجرد التوقف تأهباً للنزول والانصراف... لكن التفاتة رقيبة بنظرته المهتمة المفاجئة إلى حياة، جعلتها تتريث. تساءل رقيبة ببعض دهشة وتقطيب : باصالح ؟ والرحمونية ؟ أنت بنت من ؟

دهشت حياة ولم تنْبس... وظل يتأملها متعجباً يكرر : باصالح ؟ الرحمونية ؟ من هو باصالح ؟ وأنت من ؟

بدأت دهشة الفتاة تزول، عزَتْ سؤاله إلى فضول متأخر أو نشوة سهر غير بادية... وطفت عليها مسحة المزاج المرح المعهود؛ أجابت عن تساؤله فاتحة ذراعيها حانية الرأس بحركة استعراض مسرحية ضاحكة :

ــ أنا حياة... حبيبتك حياة، يا حبيبي !

تجاهل حركتها، ومضَى في جديته يسأل أين وكيف تعرفُ الرحمونية ؟

وانبرت لطيفة مأخوذة بالمشهد تُجيب في تساؤل :

ــ الرحمونية... أمنا كلنا... تعرفها ؟

ــ رحمونية درب كرلوطي ؟!

صمتتا أمام تساؤله الملح المدقق... وأضاف مشيراً إلى حياة :

ــ أنت بنت الشومينُو ؟ باصالح الشومينو ؟!

ــ تعرفه ؟ فضيحة أخرى !

واستمر في تساؤله :

ــ أنت بنت البلدية... قرب الجيارة !

وطفق يتفرس جيداً في الفتاة على النور الداخلي للسيارة المفتوحة الباب... ملامح باصالح لا تخفى... الشومينو المسكين... صدفة عجيبة... والرحمونية... من أي بئر أتيت يا بنت ؟ من رمى بك إلى طريق النسيان ؟.. أحقّاً ذكر باصالح والرحمونية أمامه ؟

وزاد رقيبة يتفرس في الفتاة ويسأل من هي ؟ لم تنبس، وكرّر يسأل عن اسمها !؟

قالت وقد فترت حماستُها والمرح، إنها حياة... ثم استدركت أمام نظرته الفاحصة المستطلعة :

ــ في الحقيقة... أنا البيضا، هذا اسمي الحقيقي البيضاء... اسم تنساه ولا يصلح للذكر، لا فائدة منه ولا من ذكره... هل يكفي هذا... ماذا بعد... البيضا...

وهتف :

ــ ها... البيضا... بنت باصالح الشومينو... أمك أمك... بنت الشرقي... آه... آه يا بنت... كنت صغيرة... خفيفة شيطانة... آه...

كان يعتصر ذاكرته وصفحة كفه على جبهته، كم تفجرت البنت تلك النحيفة الظّريفة أظْرف ما كان في عشرة باصالح، وبنت الشرقي... كانت تحتمي عند أي جار عندما يحتدم النزاع في أي وقت من ليل أو نهار... بلكنة في لسان ولمعان في عينيها الصغيرتين، كانت البيضاء تثير الحب أكثر مما تثير الشفقة... باصالح الشومينو من لا يعرفه في كامل درب السلطان ودروبه ؟.. كان علامة بارزة... باصالح الشومينو... معلمة الدرب والدروب...

مفاجأة حقّاً كانت للجميع... غيرتْ حياة من لهجتها... رجَتْه بحرارة إن كان حقا يعرف أسرتها ألا يتحدث عن ذلك لأحد مهما كان... لا أحد يعرفُ أنها هنا... وهي لا تظهر نهاراً ولا ترجع لدار الرحمونية إلا في بداية الصباح... الرحمونية نفسها لا تعرف... يجب ألا تعرف... رجاء... رجاء...!

ظل رقيبة مشدوهاً، والفتاتان تبتعدان بسرعة...

أدار المحرك... تفادى الاتجاه الممنوع وسار في أثرهما... لم يصدق ما حصل، ولم يشعر بأنه انتهى أو يمكن أن ينتهي هكذا... كان عليه أن يفعل شيئاً محسوساً وهامّاً أكثر من وداع مندهش بين أشباح معزولة مجهولة... ذكرى الجوار العزيز الذكر والذكرى، الأليم بوقائعه المرة... ذكر الشومينو باصالح المسكين العزيز... أين هو وكيف ؟ أما يزال حيّاً وكما هو ؟ وهل يتغير مثله... باصالح جلد على عظم وحاله... فاقدٌ حاله في كل لحظة إلا حينما يغلي صدره الضعيف الاحتمال وهو دائم الغليان بقدر ما عقله دائم الغياب... لم يكن معلم الدرب فحسب، بل معلم الدنيا كلها، شغله حمال بمحطة القطار حيث قضى زهرة العمر وطيب ثماره، لم يكن إلا وجوداً شرفياً له، لم يكن أكثر من مشير وموجه لبقية الحمالين... وهل تبقى في باصالح ما يحمل أو يحتمل... ويعود بكسب مقبول كل يوم... لا... لا... إنما يعود بآثار الكسب مرسومة في غيابه وترنحه، بعد أن ينفقه ويزيد عليه في مصاب الأرزاق ومضايع الإنفاق... يعود مترنحاً مشعراً برجوعه بحركات وأصوات... عودة يتلوها هدوء لفترة تكاد تكون مضبوطة محسوبة ثم ينشب ما يتوقعه الجميع من خصام ونزاع وضرب وتقاذف بالأواني... ليتدخل الغير... وبنت الشرقي في أسوإ حال... يتدخل المصلحون لينتهي الموقف غالباً برجوع باصالح من حيث جاء لا يدري أحد إلى أين، ولكن الكل يعرف... معناه أن جيوب باصالح مايزال بها بعض «الصرف» أو أنه متأكد من وجود دائن ما...

آه، الذكرى... والصغيرة الظريفة البيضا... المفاجأة لم تترك لرقيبة فرصة التصرف على الوجه الأنسب بلباقة وحكمة... سار بسيارته في أثر الفتاتين بمهل... عند الزاوية مباشرة، كانتا قد غابتا تحت الضوء

اللازوردي لملهى النيكرو ومصراعا البوابة يتحركان في اتجاهين متعارضين على إثر ولوجهما، أشبه ما يكون بتلمظ وحش عقب ابتلاع فريسته !

هزته الصورة بعمق، اهتز لها بقوة، وظل يتابع حركة مصراعي البوابة المتلمظة...

نبهته حورية بلمسة، اتكأت عليه برفق، ليضغط على البنزين باتجاه الأوبة...

48

على خط مستقيم، شريان طريق مديونة يمتد قوياً مماساً في اتجاهه نحو القلب التجاري للمدينة، يحاذي درب السلطان في مروره، يكاد يشطره في عبوره به، وكأنّه يبدأ به ومنه... يحل، يمضي مستقيماً، ينشر حواليه حيثما وصل واتصل نبض حياة، يزرع هنا وهناك نقطاً فوارة تلظّى بالبيع والشراء...

على خط مستقيم، طريق مديونة، تبرز حيةً نابضةً نقطُ تماس ثلاث على مسافات كالمتساوية : كراج الجيلالي، كراج علال؛ وأخيراً وحديثاً كراج العمراني... نقط تتفاوت ضيقاً واتساعاً، بساطة وضخامة، ضجة وهدوءاً، صيتاً وخفوتاً، ولكنها تظل مواقع التقاء، وشد وجذب... نقط ثلاث تشترك في الكثير وتختلف في الكثير يتميز من بينها كراج علال في موقع الوسط بأزليته ومحتواه ودلالته.

على امتداد خط مستقيم، طريق مديونة، تتحرك نقطة هادئة، تتنقل متهاوية في مضماره قبل أن تغيب في الأزقة والأحياء؛ مرسلة حولها موسيقى صاخبة مختلطة بأصوات متداخلة، وآلات متمازجة بلا تناسق، يتخللها امتداد حشرجة خشنة، كأنها تصدر عن جهاز مفكّكة متراخية أوصالُه؛ تمضي النقطة متحركة لا يتبين منها إلا ضجيج عال مرتفع، لعله القصد بالذات من هذه الحركة لسيارة صغيرة غاب منها

كل شيء عدا العجلات والمقدم تحت اللوحات الكبيرة المتلاقية الحافات والمتساندة على هيكلها في شكل هرم، تكملها لوحة بنصف حجمها ترتكز فوق المقدم. تدب السيارة، نقطة، تثير حولها ضجة تلفت الانتباه إلى لوحاتها المزدهرة بألوان صارخة تعلن بالصورة المكبرة والحروف، عن أفلام ابن عنتر، ممنوع الحب، ليلى بنت الريف... تحت لافتة سينما الشاوية... إحدى فرائد كراج علال، نقطة البدء والمنتهى لحركة السيارة وتجوالها حاملة معها الضجة والصخب...

سينما الشاوية قاعة بلا نافذة ولا مخرج سوى ما ينفتح منها على كراج علال مباشرة... انبثقت من بين سلسلة مترابطة من الدكاكين، وكأنما استُنبتت لتكمل الصورة حتى لا ينقص الموقع العتيد شيء... ويظل يتداخل في الساحة المقابلة شخير حافلات النقل إلى الضواحي مع أصوات البراحين والمنادين على الزبائن، وحلقات العنترية والذكر والطرب والتشخيص الهزلي، وبنادير الحواة ومزاميرهم؛ وبوشويبة الملاكم بقفافيزه الجاهزة لكل من يريد أن يجرب حظه، علاوة على المتفرج، نظير مقابل، وحركات بُورُوسَيْن بألاعيبه البهلوانية على دراجته...

تنطلق سيارة الإعلان، تدب كجُعْلان بألوان فراشة من نقطة الشاوية، تتحرك على امتداد طريق مديونة قبل أن تلج الأزقة والأحياء مكتفية بضجيجها المزعج الغامض لإثارة الانتباه في البداية، حتى إذا ما بدأت تغوص في عمق الأزقة تجوب الدرب من أقصاه إلى أقصاه، مخترقة غوامضه ومكامنه بتؤدة، وبمهرجان طفولي متابع ومتسلق ومتشبث، يضاعف الصخب والضجة المقصودة... حينذاك يرتفع صوت يعلن بين الفينة والأخرى عن أفلام الشاوية...

عيون وأسماع تتعلق بالنقطة الصاخبة المتحركة... أذهان وعقول تغوص في ألوان الصور وحركات شخوصها... تغيب في التباسها تخلق من حركاتها بطولات وأساطير... وقائع وأعاجيب، تفوق أحداث الفيلم ذاته ولا تغني عنه، بقدر ما توقظ الحمية لمشاهدته...

تصمت ضجة الموسيقى بين الحين والآخر، متيحة لصوت ينطلق من قلب النقطة المتحركة يعلن ويعيد عن أفلام الشاوية... يغري ويزيد، بقدر ما ترتفع حرارة الأطفال المتحلقين المتابعين من حوله، وهم يصفقون ويهتفون عقب توقفاته الحماسية المدروسة ويهللون عند ذكر كل فيلم أو شخص من أبطاله...

تستكين عيون وأسماع من حدة الصخب، تؤوب عقول وأذهان من رحلة البطولات والأعاجيب، تعود من لحظة متعة عابرة، مألوفة تسرّي الخيال وتنعش الخاطر، وتجذب من له سعة وقت وجيب، إلى زحمة التذاكر عند باب الشاوية... ووقائع الدُّخول... وهي تزري بوقائع الفيلم أحياناً، أو تنافسها على الأقل في مغامراتها ومفاجآتها... يمكن أحياناً... ويحدث في غالب الأحيان، أن المتمرسين المحترفين، يرتمون فوق الرؤوس، ويتحركون فوق الأكتاف، ليمدوا أيديهم إلى القابع وراء طاقة الشباك، وهو يعرف ويفهم صاحب اليد والصوت، ليعودوا بتذاكر يبيعونها بسعر مرتفع يزداد ارتقاء بقدر ما يتذوق العاديون المزدحمون احتراق اللحظات القريبة من بداية الفرجة داخل القاعة المظلمة، وهم يعاينون ما بينهم وبين التذكرة الموعودة من قمم وهضاب... فلا يملكون إلا أن يساوموا على ثمن التذكرة عن طريق آخر... سومة ترتفع وترتفع بقدر ما تقترب لحظة البدء، ثم تهبط بقدر ما يمضي من لحظات من الفرجة لمن يريدها فرصة ناقصة بأقل ثمن..!

يسأل الذهن الغافل عما يتبقى من تذاكر في أيدي هؤلاء البياعين المتسابقين... تذاكر يظلون يعرضونها للبيع بعد مضي منتصف العرض... لا يتعب الذهن في ملاحظة هؤلاء عقب الوقت المحدد لإغلاق طاقة التذاكر، في نهاية الفترة، أن يراهم يحاسبون المحاسب ويتحاسبون فيما بينهم، يقبل منهم ما تبقى في أيديهم... فرزقهم واحد... وكلهم شركاء... على باب الله !

بقدر ما تثير سيارة الإعلان من ضجة منها وحولها، وبقدر ما تثير تذكرة دخول عرض الشاوية، من مغامرات، بقدر ما تبدو هادئة حلقات كراج علال، مقابل قاعة الشاوية مباشرة وعلى خطوات معدودات، بمتحلقيها وسارديها وحوارييها، حواتها وبهلواناتها... جمهور هادىء حتى في زحمته يختار المشهد بعد الآخر، ويتنقل بإرادته من حلقة إلى أخرى، لا يتحرك أو يضج إلا بترديد الصلاة على النبي أو بالتصفيق عندما يطلب السارد والمفرج ذلك، تنشيطاً للأذهان، وتحفيزاً للهمم...

وقائع تسري بسرعة سحرية على جدارية، في قاعة مغلقة تتمازج أبخرة الأنفاس مع أدخنة السجائر الرخيصة تبدو للمتابع ذرات غبار وسحباً دكناء يخترقه ضوء العرض في خطه المستقيم المخترق نحو الشاشة... ووقائع أخرى على الساحة يحييها سحر السرد، وعفوية التشخيص... عرض هنا بالمغامرة والمقابل وعرض هناك بالعفوية والتطوع... والجمهور هنا وهناك، منه المداوم المدمن هنا أو هناك، ومنه المبادل المتبادل حسب الظروف والأحوال،

تمضي سيارة الإعلان، تغيب، تؤوب عقول وأذهان، تسري في

سحر ما تعرضه الأفلام، وتلتوي أخيلة في تفسير ما تراه وتسمعه من ذلك... تتحرك من جديد أيد وهمم منصرفة إلى ما هي فيه... له ومنه... كل يوم...

ككل يوم...!

صدر للمؤلف

1 ـــ روايات :

- الطيبون، الطبعة الرابعة توزيع شوسبريس، الدارالبيضاء.
- الريح الشتوية، الطبعة الثالثة (1996)، مطبعة النجاح، الدارالبيضاء.
- رفقة السلاح... والقمر، الطبعة السادسة، توزيع شوسبريس، الدارالبيضاء.
- بدر زمانه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1984.
- برج السعود، توزيع شوسبريس، 1990، الدارالبيضاء.
- من جبالنا، توزيع شوسبريس 1998.

2 ـــ مجموعات قصصية :

- سيدنا قدر، الطبعة الثانية، مكتبة المعارف، الرباط.
- دم ودخان، الطبعة الثانية، مكتبة المعارف، الرباط.
- رحلة الحُب والحصاد، دار الآداب، بيروت، 1983.
- البلوري المكسور ـــ توزيع سوشبريس 1996.

3 ـــ سرديات للأطفال والفتيان.

- طريق الحرية، منشورات المندوبية السامية لقدماء المحاربين وأعضاء جيش التحرير، 1994.
- ميساء ذات الشعر الذهبي، نشر اليونيسيف ووزارة التربية الوطنية.
- أحلام الفتى السعيد، نشر اليونيسيف ووزارة التربية الوطنية.
- بطل لا كغيره، نشر اليونيسيف ووزارة التربية الوطنية.

4 ـــ دراسات وأبحاث :

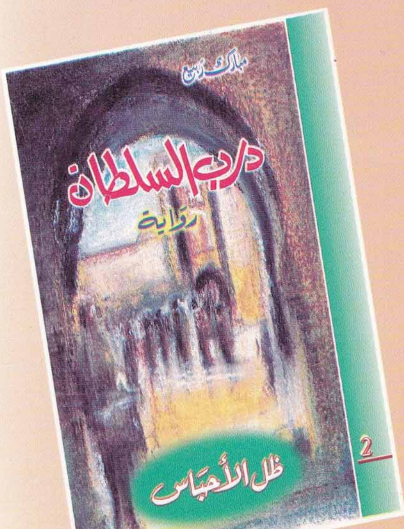
- عواطف الطفل، الطبعة الثانية، الشركة المغربية للطباعة والنشر، الرباط.
- مخاوف الأطفال وعلاقتها بالوسط الاجتماعي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1990.
- دراسات ومقالات عديدة في مختلف المجلات.

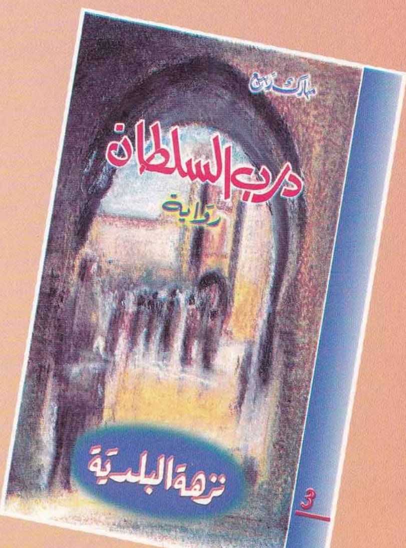
مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

الإيداع القانوني رقم : 1999/725

درب السلطان، هَدْأة ليل لا تشي بِوَنى المستغرق المُتعَب، ولا بقوْمة الحارس المتهجد ؛ هدْأة الليل غفوة حي يقظن في نوم، نائم في يقظة... يهمد منه بعض ليتحرك بعض آخر، نبض لا ينقطع، تيار لا يزيد على أن يفتر هنا أو هناك؛ في هذه اللحظة أو تلك، إلا أنه يتململ باستمرار، يتمايل في غفوته، يميل على جوانبه، ويظل دائماً يتردد فيه النفس، ويجري مجْرى الدم... مجْرى الحياة...

يصدر قريبا





مكتبة نوميديا 120
Telegram@ Numidia_Library

45 د.